

جامعة فؤاد الاول

# مجلة كلية الآداب



المجلد السابع

يوليه ١٩٤٤

تصدر هذه المجلة مرة فى آخر كل سنة دراسية ، وتطلب من مكتبة جامعة فؤاد الأول بالجيزة . وتوجه المكاتبات الخاصة بالناحية العلمية الى سكرتير التحرير الدكتور زكى محمد حسن بكلية الآداب بالجيزة .

مطبعة الاعتماد بشارع حسن الاكبر بمصر لصاحبها محمود الخضرى

# جامعة فؤاد الأول

# مجلة كلية الآداب

المجلد السابع — يولية ١٩٤٤

## موضوعات القسم العربى



## موضوعات القسم الأوربى

# إنتشار الاسلام فى الهنــــد

بقــــلم

حسن ابراهيم حسن

---

تناول كثير من المؤرخين الأقدمين والمعاصرين الكلام على غزوات المسلمين فى الهند، وأفاضوا فى ذكر الحروب والحملات، وما أتاه أمراء المسلمين من الأعمال السياسية، على حين لم يعنوا ببحث أثر هذه الغزوات من الناحية الاجتماعية؛ كما أنهم لم يتركوا لنا شيئاً ذا غناء عن انتشار الاسلام فى هذه البلاد، اللهم إلا ما يذكر من الأقاصيص التى تدور حول ما أتاه هؤلاء الفاتحون من ضروب البطولة والاقدام. فالتاريخ لم يضن علينا بهذه الأحاديث المحلية التى تناقلتها الألسن، كما أمدنا بسير أئمة المسلمين ودعاتهم الذين ساهموا بنصيب وافر فى نشر الاسلام بين أهالى هـذه البلاد، وما بذله سلاطين المسلمين من الجهود الجبارة فى سبيل نشر هذا الدين، وبخاصة ما قام به محمود الغزنوى وأورانجزيب Aurangzeb وغيرهما من السلاطين. ويقسم السير توماس أرنولد فى كتابه «الدعاية الاسلامية»(1) الجماعة الإسلامية فى الهند إلى طوائف ثلاث:

الأولى: طائفة المسلمين الذين رحلوا إلى هذه البلاد ونشروا الاسلام فيها. وقد جاءوا من البلاد الواقعة شمال غربى الهند واستوطنوا إقليم السند والبنجاب؛ وبعضهم من بقايا الجيوش الاسلامية التى أغارت على هذه البلاد فى أزمنة مختلفة، أو من أعضاء الطبقة الأرستقراطية الذين أقاموا فى أعالى الهند أو فى جزء من هضبة الدكن.

الثانية: طائفة الهنود الذين كانوا يدينون بأديان مختلفة ثم اعتنقوا الاسلام.

---

(1) T. W. Arnold : The Preaching of Islam, p. 255.

الثالثة : طبقة المسلمين الذين جاءوا إلى هذه البلاد من البحر ونزلوا الساحل الغربى وهم من أصل عربى .

ويسكن السواد الأعظم من مسلمى الهند فى إقليم البنجاب وما يجاوره . وكثير من هؤلاء المسلمين من أصل أجنبى ينتمون إلى قبائل ليست من السكان الأصليين ، ويلقبون بألقاب لم تكن تعرف فى بلاد الهند قبل مجيئهم إليها ، مثل شيخ وسيد وبك وخان . بيد أن الجمهور الأعظم من هؤلاء المسلمين من سكان البلاد الأصليين الذين اعتنقوا الاسلام ، واندمجوا فى الطبقة الارستقراطية الاسلامية ، واتخذوا ألقاب هؤلاء الذين أسلموا على أيديهم[١] .

ولم يكن إسلام سكان الهند الأصليين الذين اعتنقوا الاسلام راجعاً إلى القوة والعنف ، وإنما دخلوا فى هذا الدين طوعا واختياراً[٢] .

وترجع حملات المسلمين على بلاد الهند إلى عهد بعيد ، فقد أرسلوا أولى حملاتهم بعد أن انتقال الرسول إلى جوار ربه بخمس عشرة سنة . ومن ثم أخذ سيل العرب يتدفق على هذه البلاد إلى القرن الثامن عشر الميلادى ، واستقر بعضهم فيها ، وكونوا ممالك كان لها أثر يذكر فى تقدم الحضارة الاسلامية .

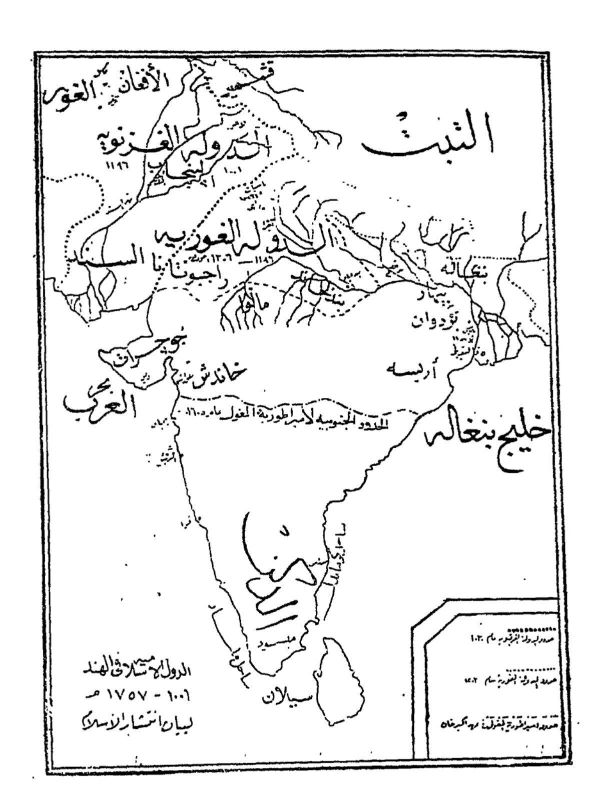
يقول البلاذُرى[٣] : « ولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه عثمان بن أبى العاص الثقفى البحرين وعمان سنة خمس عشرة للهجره ، فوجه أخاه الحكم إلى البحرين ، ومضى إلى عمان فأقطع جيشا إلى تانة . فلما رجع الجيش كتب إلى عمر يعلمه ذلك فكتب اليه عمر : يا أخا ثقيف حملتَ دوداً على عود ، وإنى أحلف بالله أنْ لَو أصيبوا لأخذت من قومك مثلهم . ووجه ( عثمان بن أبى العاص ) الحكم أيضاً إلى بروص ، ووجه أخاه المغيرة بن أبى العاصى إلى خور الدَّيْبل ( على الساحل الغربى لبلاد الهند ويعرف الآن باسم كراتشى ) فلقى العدو فظفر » .

---

(١) راجع عن الاسلام والمسلمين فى الهند L. Massignon : Annuaire du Mond Musulmane (Paris, 1925), pp. 288 et seq.

(٢) Arnold : The Preaching of Islam, p. 255.

(٣) كتاب فتوح البلدان ص ٤٣٨ .


التبت
الأفغان
الغور
الدولة الغزنوية
١١٩٦
البنجاب
١٠٠١
الدولة الغورية
١١٩٦ - ١٢٠٦
السند
راجبوتانا
مالوا
بنغاله
بيهار
كوندوان
جوجرات
خانديش
أريسه
بحر العرب
خليج بنغاله
الحدود الجنوبية لامبراطورية المغول عام ١٦٠٠
سيلان
الدول الاسلامية في الهند
١٠٠١ - ١٧٥٧ م
لبيان انتشار الاسلام

فلما ولى عثمان بن عفان الخلافة ولى عبد الله بن عامر العراق ، وأمره أن يوجه إلى الهند رجلا يستطلع أخبارها ويصفها له ، فوجه حكيم بن جَبَلة العبدى، فلما رجع وصفها له . ولم يغز هذه البلاد أحد حتى سنة ٣٩ ﻫ حين وجه على بن أبى طالب اليها حملة بقيادة الحارث بن مرة ، فغنم كثيراً من الغنائم والأسرى . ثم قتل سنة ٤٢ ﻫ بأرض القيقان من بلاد السند مما يلى خراسان . وفى عهد معاوية بن أبى سفيان غزا بلاد السند المهلب بن أبى صُفرة فى سنة ٤٤ ﻫ ، وامتدت فتوحه إلى الأراضى الواقعة بين كابل والملتان . ثم امتدت فتوح المسلمين فى هذه البلاد فشملت البوقان والقِيقان والديبل . وفى عهد الوليد بن عبد الملك ( ٨٦—٩٦ ﻫ ) عهد الحجاج بن يوسف الثقفى إلى محمد بن القاسم فى غزو بلاد الهند ، فسار اليها سنة ٨٩ ﻫ ، وحاصر ثغر الديبل وفتحه عنوة وبنى به مسجداً ، ثم سار إلى بيرون فاستقبله أهلها استقبالا حسنا « وأدخلوه مدينتهم ووفوا بالصلح » .

وواصل محمد بن القاسم فتوحه فى هـــذه البلاد حتى بلغ نهر السند ، وكان يعرف اذ ذاك باسم نهر مهران ، وهنا التقى بداهر ملك السند ، وكان هو وجنده يقاتلون على ظهور الفيلة ، فاقتتلوا قتالا شديدا انتهى بقتل داهر وهزيمة أصحابه . وذكر المدائنى أن الذى قتله رجل من بنى كلاب ، وقال يصف كيفية قتله :

الخيلُ تشهد يوم داهر والقَـنَا ومحمد بن القـــاسم بن محمد
أنّى فَـرَجْـتُ الجمع غيرَ مُـعَـرِّد حتى علوتُ عظيمَـهم بمهنَّـد
وتركته تحت العجاج مجدَّلا مُـتعفـِّرَ الخدَّيْن غير موسَّد(١)

بذلك استطاع محمد بن القاسم أن يمد فتوحه فى كافة أرجاء بلاد السند ، ثم تابع هذه الفتوح حتى وصل الى الملتان ودخلها (٢) . على أن مؤن المسلمين قد نفدت وكادوا يهلكون جوعا وعطشا ، حتى اضطروا الى أكل الدواب . وقتل محمد بن القاسم سدنة البدّ ، وهو مكان عبادتهم ، ويشبه كنائس النصارى وبيع اليهود . ويقول البلاذرى(٣): « وكان بد الملتان بدا تهدى اليه الأموال وتنذر له النذور ، ويحج اليه السند فيطوفون به

(١) البلاذرى ص ٤٤٣ — ٤٤٤ .
(٢) Muir: The Caliphate, Rise, Decline and Fall, p. 353
(٣) ص ٤٤٥ .

ويحلقون رءوسهم ولحاهم عنده ، ويزعمون أن صنما فيه هو أيوب النبي صلى الله عليه وسلم » . والمولتان أو الملتان مركز مشهور للحجاج من الهنود فى جنوب بلاد البنجاب . قال ياقوت فى معجمه : « وبها صنم يعظمه الهند ، وتحج اليه من أقصى بلدانها ، ويتقرب إلى الصنم فى كل عام بمال عظيم ينفق على بيت الصنم والمعتكفين عليه منهم . وسمى المولتان بهذا الصنم . وقد ألبس جميع بدنه جلداً يشبه السختيان الأحمر لا يبين من جثته شيء إلا عيناه . وعيناه جوهرتان وعلى رأسه إكليل ذهب ، وهو متربع على ذلك السرير ، وقد مد ذراعيه على ركبتيه ، ويسمى العرب المولتان فرج بيت الذهب ، لأنها فتحت فى أول الاسلام ، وكان بها ضيق وقحط ، فوجدوا فيها ذهباً كثيراً فاتسعوا به »[١] .

ولما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة ( ٩٩ — ١٠١ ﻫ ) كتب الى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام ، ووعد بأن يقرهم على ما بأيديهم ، وأن يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم « وقد كانت بلغتهم سيرته ومذهبه ، فأسلم حليشة بن داهر والملوك وتسموا بأسماء العرب ، وغزا عمرو بن مسلم الباهلى عامل عمر بن عبد العزيز بعض بلاد الهند[٢] . وفى عهد هشام بن عبد الملك ( ١٠٥ — ١٢٥ ﻫ ) خرج المسلمون عن بلاد الهند . ثم ولى الحكم بن عوانة الكلبى « وقد كفر أهل الهند إلا أهل قصة ، فلم ير للمسلمين ملجأ يلجئون اليه ، فبنى من وراء البحيرة مما يلى الهند مدينة سماها « المحفوظة » ، وجعلها مأوى لهم ومعاذا ومصّرها »[٣] .

ولما قامت الدولة العباسية ولى أبو جعفر المنصور ( ١٣٦ — ١٥٨ ﻫ ) هشام بن عمرو التغلبى بلاد السند . وفى عهده فتحت بلاد قشمير والملتان ، وكانت قد انتقضت ، وهدم البد وبنى فى موضعه مسجدا . وقد تقدمت هذه البلاد فى عهد ولايته واستقر بها الأمن وتوطدت أركانه[٤] .

---

(١) انظر لفظ المولتان فى معجم البلدان لياقوت .

(٢) البلاذرى ص ٤٤٦ — ٤٤٧ .

(٣) المصدر نفسه ص ٤٤٨ — ٤٤٩ .

(٤) المصدر نفسه ص ٤٤٩ — ٤٥٠ .

وفى عهد الخليفة المهدى العباسى ( ١٥٨ — ١٦٩ هـ ) غزا المسلمون بلاد الهند فى سنة ١٥٩ هـ ؛ وحاصروا مدينة باربد بالمنجنيق وفتحوها عنوة ، وأشعلوا النار فى تمثال بوذا . على أن هذه الغزوة كانت كارثة على جند العباسيين ؛ فقد فشا الموت فيهم حتى مات منهم أكثر من ألف ، ودمرت الزوابع سفنهم فى الخليج الفارسى ، وغرق كثير من الجند . وما زالت فتوح المسلمين تتسع فى بلاد السند والهند فى عهد الخليفة العباسى المأمون ( ١٩٨ — ٢١٨ هـ ) ؛ وفى عهد أخيه المعتصم ( ٢١٨—٢٢٧ هـ ) انتشر الاسلام فى البلاد الواقعة بين كابل وقشمير والملتان . وفى ذلك يقول البلاذرى : « إن بلدا يدعى العيسفان بين قشمير والملتان وكابل كان له ملك عاقل . وكان أهل ذلك البلد يعبدون صنما قد بنى عليه بيت وأبّدوه . فمرض ابن الملك ، فدعى سدنة ذلك البيت فقال لهم : أدعوا الصنم أن يبرىء ابنى . فغابوا عنه ساعة ثم أتوه فقالوا : قد دعوناه وقد أجابنا الى ما سألناه ؛ فلم يلبث الغلام أن مات . فوثب الملك على البيت فهدمه ، وعلى الصنم فكسره ، وعلى السدنة فقتلهم . ثم دعا قوما من تجار المسلمين فعرضوا عليه التوحيد ، فوحّد وأسلم . وكان ذلك فى خلافة أمير المؤمنين المعتصم بالله رحمه الله » [١] .

* * *

اصطبغت بعض حملات المسلمين بصبغة الجهاد الدينى ، ولا سيما هذه الحملات التى قام بها كل من محمود الغزنوى ( ٣٨٨ — ٤٢١ هـ = ٩٩٨ — ١٠٣٠ م ) وتيمورلنك التترى . فقد ورث محمود الغزنوى مملكة أبيه سَبُكتَكين الصغيرة ، ولكنه ما لبث أن أزال الدولة السامانية . وغزا بلاد الهند اثنتى عشرة مرة ( ١٠٠١ — ١٠٢٤ م ) ، وقتل كثيراً من عبدة الأوثان ، وهدم كثيراً من الهياكل ، وضم بلاد البنجاب وبلاد الغُور [٢] ( ١٠١٢ م ) . وبلاد ما وراء النهر ( ١٠١٦ م ) ، واستولى على أصبهان من أيدى بنى بويه [٣] . ولا بأس أن نأتى بقصة هاردتا Hardatta أحد ملوك الهند وزعيم بولندشهر Bulandshahr [٤] . فقد روى سكرتير محمود الغزنوى أن هاردتا لما اتصل

(١) البلاذرى ص ٤٥١ .

(٢) بضم أوله وسكون ثانيه وآخره جبال وولاية بين هراة وغزنه .

(٣) Browne, Literary History of Persia, vol. I. p. 376.

(٤) أوبران وهو الاسم القديم .

بمسامعه نبا وصول جيوش محمود إلى باربا Barba حول سنة ٤١٠ هـ (١٠١٩ م) سقط فى يده ، وأخذ الفزع والهلع من نفسه كل مأخذ ، وخشى على حياته من عقاب الله ، ولم ير بدآ من اعتقاد الأسلام ، إذ رأى أن هذا الدين يحوطه سياج متين من قوة الله سبحانه وتعالى .وسرعان ما تقدم على رأس عشرة آلاف من رجاله ، وأعلنوا للفاتحين رغبتهم فى التحول عن دينهم القديم إلى الاسلام ومناصبة الكفار العداء [١] .

يقول الأستاذ ولسلى هيج Cambridge History of India (Cambridge, 1928) Vol. III, pp. 26—7. : « يمكننا إلى حد ما أن نعتبر محمود ( الغزنوى ) سلطانا هنديا خالصاً . فقد فتح فى خريف حياته إقليم البنجاب ، ونشر الإسلام فى ربوع الهند وافتتح طريقاً سلكه بعده كثيرون ؛ وقنع خلفاؤه ، بعد أن جردوا من أملاكهم فى فارس وأفغانستان وبلاد ما وراء النهر ، بحكم إقليم البنجاب ، وكونوا أسرة هندية خالصة » .

ويقول ستانلى لينبول[٢] « إن حملات الغزنويين فى بلاد الهند ، واتخاذهم لاهور مقراً لهم ، يمكن اعتباره بدء حكم المسلمين الحقيقى فى هذه البلاد . فقد مهدت الدولة الغزنوية فى لاهور السبيل أمام محمد بن سام الغورى [٣] وخلفائه الذين تولوا سلطنة دلهى ، والذين نشروا نفوذ المسلمين فى كافة أرجاء بلاد الهند الشمالية[٤] .

وقد وضعت غارات المغول بقيادة بابر Babar حداً للانقسامات التى أضعفت مملكة دلهى فى أواخر عهدها ، واستطاع « أكبر » حفيد بابر أن ينظم أمبراطورية المغول العظام التى بقيت إلى هذا الوقت .

وقد نقل الأستاذ براون[٥] عن كتاب ظفر نامه Zafar - nama للمؤرخ الفارسى

---

(١) Arnold : The Preaching of Islam, pp. 256—57

(٢) The Muhammadan Dynasties, p. 284.

(٣) حكمت الدولة الغورية بلاد أفغانستان وهندستان من سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨م) الى سنة ٦١٢هـ (١٢١٥ م) .

(٤) Ishwari Prasad : Inde du VIIe au XVIIe Siècle, p. 84 et suiv.

(٥) Lit. Hist. of Persia, vol. III. p 193-4

شرف الدين علي يزدي (١) أن تيمور بعد أن ولى ابنه شاه رخ Shah Rukh مملكة خراسان وستان Sistan ومازندران من فيرزكوه Firuzkūh إلى الري في شهر مايو سنة ١٣٩٧ شرع في ربيع سنة ١٣٩٨ في غزو بلاد الهند. ومن بين العوامل التي دفعت تيمور إلى تحقيق هذه السياسة رغبته في نشر الاسلام، والقضاء على الوثنية في هذه البلاد، وما بلغه من تسامح أمراء المسلمين لرعاياهم وجيرانهم من وثني الهنود.

وبعد أن حارب تيمور الأفغان وعلى رأسهم سليمان كوه Sulayman Kūh وسياه پوش Siyah-Push حاكم كافرستان الذي اتخذ السواد شعارا له في عدة مواقع، عبر السند في ١٢ المحرم سنة ٨٠١ هـ (٢٤ سبتمبر سنة ١٣٩٨ م). وتقدم إلى بلاد الهند، وأعمل السيف في أهلها، وأشعل النار في أرجائها. ويقول الأستاذ براون(٢): «إن حملات تيمور امتازت كحملاته السابقة بأهدار الدماء. وكان أشد هذه الأعمال وأقساها تلك المذبحة التي ذهب ضحيتها مائة ألف أسير قرب دلهي في ١٢ ديسمبر سنة ١٣٩٨ م. وإن هذه الفظائع التي ارتكبت بعد أن فتحت مدينة دلهي بأيام. وما كان من ذبح عشرة آلاف شخص في مدينة بتنير Batnir قبل ذلك بشهر واحد — كل ذلك لا يقل هولاً إذا ما قورن بهذه الجريمة الشنيعة».

أما تيمورلنك فقد كتب في مذكراته بعد أن استولى على دلهي: «قضيت في دلهي خمسة عشر يوماً بين رجال البلاط، أقيم الأسمطة والحفلات، وأنعم بألوان من الأبهة والترف والنعيم. ثم ذكرت أنني قمت بهذه الحملة وأتيت إلى بلاد الهند لأشن الحرب على الكفار، وأنشر الاسلام في هذه الديار. وقد بارك الله هذه الحملة فجعل النصر حليفي والظفر يتبعني. ولقد فللت شوكة أعدائي، وقتلت الكفار، وحطمت الأصنام، وخضبت سيفي من دماء أعداء الدين. والآن، وقد تم لي هذا النصر المبين، أشعر أنه

---

(١) طبع هذا الكتاب في كلكتا في جزئين (في مجموعة Bibhiotteca Indica (١٨٨٧—١٨٨٨). وقد أسرف شرف الدين في مدح تيمور الذي وضع هذا الكتاب تحت رعايته (وقد ترجم هذا الكتاب الى الفرنسية مسيو Mercier de la Petit Croix). وممن كتب في أخبار تيمور أحمد بن عربشاه الذي كتب كتابه «عجائب المقدور في أخبار تيمور» (ليدن سنة ١٨٣٦م وكلكتا سنة ١٨١٨م، والقاهرة سنة ١٢٨٥هـ) في لهجة شديدة.

(٢) Browne, Literary History of Persia, vol. III. pp. 193—4.

لا يحق لى أن أركن إلى الراحة ، بل لا بد لى من أن أواصل الحرب على أهالى الهندستان الكفار تلبية لداعى الدين »[١] .

* * *

ولقد سار على سياسة تيمورلنك فى نشر الاسلام فى بلاد الهند من جاء بعده من الفاتحين ، فكسرت الأصنام وخربت المعابد ، وبنيت المساجد بدلا منها . ولم يتردد فريق ممن اعتقدوا الاسلام من أهل السند فى التحول الى دينهم القديم كلما سنحت لهم الفرصة . فانه لما غزا قطب الدين أيبك بولندشهر سنة ١١٩٣م ، قام فى وجهه أحد أحفاد « هاردتا » وهو الراجا شاندراسن Chandrasen ، وكان متعصباً شديد التعصب للديانة الهندوكية ، حتى إنه لم يعد للاسلام من أثر فى بلاده .

بيد أن رغبة بعض أولئك الفاتحين الحقيقية لم تكن التفانى فى نشر الاسلام ، فان بعض الدول التى تولت الحكم فى هذه البلاد لم تعمل عملا صادقاً على نشر هذا الدين ، كما عملت أسرة الخلجى ( ٦٨٩ — ٧٢٠ هـ = ١٢٩٠ — ١٣٢٠ م ) . وكان علاء الدين محمد شاه الخلجى من أعظم سلاطين هذه الأسرة ، وكان يتفقد أمور رعيته بنفسه [٢] .

كذلك عملت أسرة محمد بن تغلق ( Tughliqs ١٣٣٠ — ١٤١٢ م ) الذى جعل بلاد الهند مركزاً من مراكز الحضارة الاسلامية على نحو ما كانت عليه مصر فى عصر المماليك . فقد كان من أهم مظاهر سياسته ترحيبه بمن وفد على بلاده من المسلمين ومبالغته فى إكرامهم . ولا غرو فقد كان مسلماً يميل إلى تطبيق قواعد الاسلام ، وأشربت نفسه حب الاسلام والمسلمين . ويقول السير توماس أرنولد[٣] « كان محمد مسلماً تقياً مواظباً على أداء الفرائض الدينية ، وكان لا يشرب الخمر ، دائباً على اتباع تعاليم الاسلام . وقد جلس على العرش ثمان عشرة سنة ؛ ثم بدأت تساوره الشكوك حول أحقيته للحكم لعدم حصوله على تفويض من الخليفة العباسى يجعل هذا الحكم شرعياً . ومن ثم أخذ يستعلم من عدد كبير من الرحالة الذى وفدوا على بلاده ، ووقف منهم على أنه كان فى

---

(١) Elliot : The History of India, as told by its own historians (vol. II. p. 448). The Muhammadan Period. Edited by Prof. John Dowson (London, 1872—7).

(٢) راجع ما ورد فى رحلة ابن بطوطة عن السلطان علاء الدين محمد شاه الخلجى (جـ٢ ص ٢٦) ، وعن السلطان أبى المجاهد محمد شاه ابى السلطان غياث الدين تغلق شاه ( جـ ٢ ص ٣٤ — ١٠٥ )

(٣) Arnold : The Caliphate, p. 104

مصر خليفة عباسي يلقب المستكفي ، وتبادل معه الرسائل . ولما وصل من قبل هذا الخليفة رسول يحمل تفويضاً بحكم محمد بن تغلق ، بالغ هذا فى استقباله ، وأحله من نفسه محل الاحترام والتعظيم . وأمر بذكر اسم الخليفة فى الخطبة ونقشه على السكة ، وأرسل اليه الهدايا النفيسة » .

ويصف لنا ابن بطوطة [١] قدوم رسول الخليفة العباسى الى ابن تغلق فيقول:
« وكان السلطان قد بعث هدية الى الخليفة بديار مصر أبى العباس ، وطلب منه أن يبعث له أمر التقدمة على بلاد الهند والسند ، اعتقاداً منه فى الخلافة ، فبعث اليه الخليفة أبو العباس ما طلبه مع شيخ الشيوخ بديار مصر ركن الدين . فلما قدم عليه بالغ فى اكرامه ، وأعطاه عطاء جزلا ، وكان يقوم له متى دخل عليه ويعظمه » .

وكان محمد بن تغلق يرحب بالسفراء والرحالة والتجار من المسلمين الذين يفدون اليه ويحبب اليهم الأقامة فى بلاد الهند ، حتى لقد أصبحت مدينة دلهى قريبة الشبه ببغداد فى أيام العباسيين من حيث اجتذاب العناصر الاسلامية من مختلف الأمصار . ويؤيد هذا ما ذكره ابن بطوطة [٢] عن وصف موكب السلطان محمد بن تغلق فى عيدى الفطر والأضحى :

« وإذا كانت ليلة العيد ، بعث السلطان إلى الملوك والخواص وأرباب الدولة والأعزة والكتاب والحجاب والنقباء والقواد والعبيد وأهل الأخبار ، الخلع التى تعمهم جميعاً . فاذا كانت صبيحة العيد زينت الفيلة كلها بالحرير والذهب والجواهر ، ويكون منها ستة عشر فيلا لا يركبها أحد ، إنما هى مختصة بركوب السلطان ، ويرفع عليها ستة عشر شطراً ( جتراً ) من الحرير مرصّعة بالجواهر قائمة ، كل شطر منها ذهب خالص ، وعلى كل فيل مرتبة حرير مرصّعة بالجواهر . ويركب السلطان فيلا منها . وترفع أمامه الغاشية وهى ستارة سرجه ، وتكون مرصعة بأنفس الجواهر . ويمشى بين يديه عبيده ومماليكه . وكل واحد منهم تكون على رأسه شاشية ذهب ، وعلى وسطه منطقة ذهب ، وبعضهم يرصعها بالجواهر . ويمشى بين يديه أيضا النقباء ، وهم نحو ثلثمائة ، وعلى رأس كل واحد منهم أقروف ذهب ، وعلى وسطه منطقة ذهب ، وفى يده مقرعة نصابها ذهب . ويركب

(١) رحلة ابن بطوطة جـ ٢ ص ٤٣ .

(٢) ص ٣٧ — ٣٨ .

قاضى القضاة صدر الجهان كمال الدين الغزنوى ، وقاضى القضاة صدر الجهان ناصر الدين الخوارزمى ، وسائر القضاة وكبار الأعزة من الخراسانيين والعراقيين والشاميين والمصريين والمغاربة كل واحد منهم على فيل . وجميع الغرباء عندهم يسمون الخراسانيين . ويركب المؤذنون أيضا على الفيلة وهم يكبرن . ويخرج السلطان من باب القصر على هذا الترتيب والعساكر تنتظره ، كل أمير بفوجه على حدة ، معه طبوله وأعلامه . فيقدم السلطان وأمامه من ذكرناه من المشاة ، وأمامهم القضاة والمؤذنون يذكرون الله تعالى . وخلف السلطان مراتبه ، وهى الاعلام والطبول والأبواق والأنفار والصرنايات ، وخلفهم جميع أهل دخلته . ثم يتلوهم أخو السلطان مبارك خان بمراتبه وعساكره ، ثم يليه ابن أخ السلطان بهرام خان بمراتبه وعساكره ، ثم يليه ابن عمه ملك فيروز بمراتبه وعساكره ، ثم يليه الوزير بمراتبه وعساكره ، ثم يليه الملك مجير بن ذى الرجا بمراتبه وعساكره ، ثم يليه الملك الكبير قبولة بمراتبه وعساكره ؛ وهذا الملك كبير القدر عنده ، عظيم الجاه كثير المال . أخبرنى صاحب ديوانه ثقة الملك علاء الدين على المصرى المعروف بابن الشرايشى أن نفقته ونفقة عبيده ومرتباتهم ستة وثلاثون لكا فى السنة . ثم يليه الملك نكبية بمراتبه وعساكره ، ثم يليه الملك بغرة بمراتبه وعساكره ، ثم يليه الملك مخلص بمراتبه وعساكره ، ثم يليه الملك قطب الملك بمراتبه وعساكره ، وهؤلاء هم الأمراء الكبار الذين لا يفارقون السلطان ، وهم الذين يركبون معه يوم العيد بالمراتب . ويركب غيرهم من الأمراء دون مراتب . وجميع من يركب فى ذلك اليوم يكون مدرّعا هو وفرسه ، وأكثرهم مماليك السلطان . فاذا وصل السلطان الى باب المصلى ، وقف على بابه ، وأمر بدخول القضاة وكبار العلماء وكبار الأعزة . ثم ينزل السلطان ويصلى الإمام ويخطب . فإن كان فى عيد الأضحى أتى السلطان بجمل فنحره برمح يسمونه النيزة[١] . بعد أن يجعل على ثيابه فوطة حرير توقيا من الدم . ثم يركب الفيل ويعود إلى قصره » .

وكان محمد بن تغلق شديد العطف على المسلمين كلفاً بحبهم والحفاوة بهم ، فقد استدعى أحد سلالة الخلفاء العباسيين من بغداد وأحله من نفسه محل الاكرام والتبجيل . ويقول ابن بطوطة[٢] :

---

(١) بكسر النون وفتح الزاى .

(٢) رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ٤٥ — ٤٦ .

، وكان الأمير غياث الدين محمد بن عبد القاهر بن يوسف بن عبدالعزيز ابن الخليفة المستنصر بالله العباسي البغدادي ، قد وفد على السلطان علاء الدين طرمه مشير أبن ملك ما وراء النهر . فأكرمه وأعطاه الزاوية التي على قبر قثم بن العباس رضي الله عنهما ، واستوطن بها أعواماً . ثم لما سمع بمحبة السلطان في بني العباس . وقيامه بدعوتهم ، أحب القدوم عليه . وبعث له برسولين : أحدهما صاحبه القديم محمد بن أبي الشرقي الحرباوي ، والثاني محمد الهمداني الصوفي ، فقدما على السلطان . وكان ناصر الدين الترمذي الذي تقدم ذكره . قد لقي غياث الدين ببغداد ، وشهد لديه البغداديون بصحة نسبه ، فشهد هو عند السلطان بذلك . فلما وصل رسولاه إلى السلطان أعطاهما خمسة آلاف دينار ، وبعث معهما ثلاثين ألف دينار إلى غياث الدين ليتزود بها إليه . وكتب له كتاباً بخط يده يعظمه فيه ويسأل منه القدوم عليه . فلما وصله الكتاب رحل إليه . فلما وصل إلى بلاد السند وكتب المخبرون بقدومه ، بعث السلطان من يستقبله على العادة . ثم لما وصل إلى سرستي بعث أيضاً لاستقباله صدر الجهان قاضي القضاة كمال الدين الغزنوي وجماعة من الفقهاء ، ثم بعث الأمراء لاستقباله فلما نزل بمسعود آباد خارج الحضرة خرج السلطان بنفسه لاستقباله . فلما التقيا ترجل غياث الدين ، فترجل له السلطان وخدم فخدم له السلطان . وكان قد استصحب هدية في جملتها ثياب ، فأخذ السلطان أحد الأثواب وجعله على كتفه . وخدم كما يفعل الناس معه ، ثم قدمت الخيل فأخذ السلطان أحدها بيده وقدمه له ، وحلف أن يركب ، وأمسك بركابه حتى ركب . ثم ركب السلطان وسايره والشطر يظلهما معاً . وأخذ التنبول بيده وأعطاه إياه — وهذا أعظم ما أكرمه به — فانه لا يفعله مع أحد . وقال له لولا أني بايعت الخليفة أبا العباس لبايعتك ، فقال له غياث الدين : وأنا أيضاً على تلك البيعة ، وقال له غياث الدين : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما : من أحيا أرضاً مواتاً فهي له . وأنت أحييتنا ، فجاوبه السلطان بألطف جواب وأبره . ولما وصلا إلى السراجة المعدة لنزول السلطان ، أنزله فيها وضرب للسلطان غيرها . وباتا تلك الليلة بخارج الحضرة . فلما كان بالغد دخلا إلى دار الملك ، وأنزله بالمدينة المعروفة بسيري ، وبدار الخلافة أيضاً في القصر الذي بناه علاء الدين الخلجي وابنه قطب الدين . وأمر السلطان جميع الأمراء أن

يمضوا معه اليه ، وأعد له فيه جميع ما يحتاج اليه من أوانى الذهب والفضة ، حتى كان من جملتها مغتسل يغتسل فيه من ذهب . وبعث له أربعمائة ألف دينار لغسل رأسه على العادة ، وبعث له جملة من الفتيان والخدم والجوارى ، وعين له عن نفقته فى كل يوم ثلاثمائة دينار ، وبعث له زيادة اليها عدداً من الموائد بالطعام الخاص ، وأعطاه جميع مدينة سيرى إقطاعاً ، وجميع ما احتوت عليه من الدور ، وما يتصل بها من بساتين المخزن وأرضه ، وأعطاه مائة قرية ، وأعطاه حكم البلاد الشرقية المضافة لدهلى ، وأعطاه ثلاثين بغلة بالسروج المذهبة ، ويكون علفها من المخزن . وأمره أن لا ينزل عن دابته اذا أتى دار السلطان الا فى موضع خاص لا يدخله أحد راكباً سوى السلطان . وأمر الناس جميعا من كبير وصغير أن يخدموا له ، كما يخدمون للسلطان . واذا دخل على السلطان ينزل له عن سريره ، وان كان على الكرسى قام قائما ، وخدم كل واحد منهما لصاحبه ، ويجلس مع السلطان على بساط واحد . واذا قام قام السلطان لقيامه ، وخدم كل واحد منهما لصاحبه ، واذا انصرف الى خارج المجلس ، جعل له بساط يقعد عليه ما شاء ، ثم ينصرف يفعل هذا مرتين فى اليوم . »

***

على أن الاسلام لم تتوطد أركانه فى بلاد الهند الا منذ أيام المغول[1] ، حين أخذ

(١) لا بأس من أن نشير فى هذه الحاشية إلى الفرق بين اللفظين : « تتر » و « مغول » وإلى التطورات التى داخلت كلا منهما .

فكلمة تتر تختلف بالمعنى العام باختلاف العصور : فقد أطلق هذا اللفظ على جماعتين من قبائل التتر فى نقوش الأرخون التركية Turkish Orkhon التى ترجع إلى القرن الثامن الميلادى ، كما أطلق هذا الاسم على المغول عامة أو على فريق منهم خاصة .

وفى جميع الفتوحات المغولية فى القرن الثالث عشر الميلادى كان الفاتحون يسمون بالتتر فى كل مكان نزلوا فيه ، سواء أكان فى الصين أم فى البلاد الاسلامية أم فى بلاد الروسيا وغرب أوربا . ويسمى ابن الاثير أسلاف جنكيز خان باسم التتر ، وهم التتر الأول ، وكانوا مشهورين عند قدماء اليونان باسم سكيثيا « Scythia » أو سكوتيا .

ولم يظهر اسم المغول فى عالم الوجود حتى القرن العاشر ؛ ومن المرجح أنه أطلق على تلك العشائر التى انضوت تحت لواء زعيم احدى قبائلهم ، وكان يحمل ذلك الاسم ، ثم أخذ لنفسه السيادة على بقية العشائر المتحالفة ، ومن ثم أطلق اسم البعض على الكل ( Lane-Poole : Muh. Dyn. p. 200 ) .

على أن بعض المؤرخين يرون أن لفظ « مغول » لم يكن معروفا فى خارج البلاد التى كانت تسكنها قبائل الرحالة على حدود صحراء جوبى قبل القرن الرابع الهجرى ( العاشر الميلادى ) ؛ كما يقولون =

الهندوس يا يحرون الى اعتقاده . ويقول الأسقف ليفروى Lefroy[1] : « لما اصطدم الإسلام ، مع ما عرف عنه من تمثيل قوى لحقيقة وجود الله سبحانه، مع عقيدة التثليث التى تقوم على الخضوع والتسليم ، تبع ذلك أن الاسلام لم ينتصر فى هذه المعركة فحسب ، بل لقد غدا البلسم الشافى الذى سرى فى شريان الحياة والفكر فى بلاد الهند العليا . وسرعان ما أحيى التفكير وبعث فى الحياة نشاطاً وقوة ، سريا فى كثير من العقول التى لم يسبق لها أن تأثرت بمثل هذا التأثير الفكرى »

ولد بابر Babar فاتح هندستان المغولى من سلالة تيمورلنك وجنكيزخان سنة ١٤٨٢ م فى فرغانة التى كان يحكمها أبوه . وبعد أن طرد على يد أحد الملوك من أسرة

---

= باحتمال اطلاق هذا اللفظ على جميع هذه القبائل ، حتى امتد نفوذ رجل منهم تسمى بهذا الاسم على جميع تلك العشائر المتحالفة . وقد انتقلت قوة من قوى المغول الحربية إلى بلاد آسيا الصغرى ، وكان أعقابهم ( الذين صاروا أتراكا بلا شك ) يسمون بالتتر السود Kara Tatar ، وقد عاشوا عيشة بدوية وقت حلات تيمورلنك فى البلاد الريفية الواقعة بين أماسيا Amasia وقيصرية . وكان عددهم يناهز الثلاثين ألفا أو الأربعين ألف أسرة . وقد تقاهم تيمورلنك إلى أواسط آسيا ، فأنزلهم بايزيد الثانى العثمانى بعض الأماكن فى بلاد كشغر وخوارزم ، وقد عاد هؤلاء التتر السود بعد وفاة تيمور إلى بلاد آسيا الصغرى واستقروا بها من جديد .

كذلك نرى فى الروسيا وشرق أوربا اسم التتر يطلق غالبا على جميع الشعوب التركية ماعدا العثمانيين .

ويرى بعض المؤرخين من المسلمين أن التتر شعب كبير من الأمة التركية ، ومنه تفرعت معظم بطونها وأفخاذها ، وهو مرادف للترك عند الفرنجة ، حتى إنهم يعدون قبائل الأتراك كافة تترا ، ومنهم العثمانيون والتركمان . وقد تناول هذا الاسم ( تتر ) بنوع من التوسع جميع المغول وبخاصة المنكوس Manchus كما كانت الحال فى الصين .

وأما كلمة تتر بالمعنى الخاص فهى اسم لشعب معين ، إذ لا تطلق إلا على سكان حوض نهر الفلجا من بلاد قزان Kazan إلى استراخان ، وكذا على سكان شبه جزيرة القرم ، وجزء من سيبريا ممن يتكلمون اللغة التركية . ويظهر أن الشعوب التى كانت مغولا فى الأصل واللغة كانت تسمى نفسها بالتتار .

وقد استبدلت كلمة تتر بعد جنكيزخان فى بلاد منغوليا وأواسط آسيا بكلمة مغل Moghul ، ولا يزال لفظ مغل مستعملا إلى اليوم فى بلاد أفغانستان بين أعقاب المغول الذين لا يزالون محتفظين بلغتهم حتى الآن .

وقد أدخل جنكيزخان تلك التسمية رسميا فى بلاده . على أن كلمة Mongol لم تسد قط فى معظم البقاع الغربية من امبراطورية المغول رغم دخولها رسميا فى تلك البلاد ، كما نعلم ذلك من الرحالة الأوربيين أمثال حنا بيان الكاربينى John of Pian El Carpini ووليم روبروك William ot Rubruck وغيرهما .

(١) نقلا عن كتاب Arnold : Preaching of Islam, p. 259. Mankind and the Church, p. 286 (London, 1907).

# الأسرة التيمورية فى الهند

تيمور ١٣٦٩ — ١٤٠٤ م

شاه رخ ١٤١٤ — ٤٧
( بلاد ما وراء النهر )

جلال الدين ميران شاه
( ١٤٠٤ — ١٤٠٧ )
( العراق واذربيجان )

بايسنكر Bàysankar
+ ١٤٣٢ — ٣

ألوغ بك Ulúgh beg
١٤٠٩ — ١٤٤٩
( بلاد ما وراء النهر )

خليل ١٤٠٤ — ٩
( بلاد ما وراء النهر )

محمد
سلطان أبو سعيد
١٤٥١ — ٦٧

بابر الاول Bàbar I
١٤٥٠ — ٥٧
( خراسان )

علاء الدولة + ١٤٥٩
رقية سلطان

عمر شيخ + ١٤٩٣
( اندجان وفرغانه )

محمود ١٤٩٣ — ٩٤
( ما وراء النهر )

السلطان احمد
١٤٦٨ — ٩٣
( ما وراء النهر )

بابر الثانى ١٥٢٦
همايون ١٥٣٠
خنفاء | بابر
أكبر ١٥٥٦
جهانجير ١٦٠٥
داور بخش ١٦٢٧ — ٨
شاه جهان ١٦٢٨
مراد بخش ١٦٥٨
شجاع ١٦٥٨ — ٦٦ ( فى بنغاله )
أورنجزيب ١٦٥٩
أعظم شاه ١٧٠٧
كام بخش ١٧٠٨

---

لقد بذل أباطرة الدولة المغولية التى استمر نفوذها فى بلاد الهند حقبة طويلة من الزمن تمتد من سنة ١٥٢٦ إلى سنة ١٧٥٩ م ، وتداول عرش المغول فى خلالها كثير من الاباطرة العظام من الأسرة التيمورية ، جهودا صادقة فى سبيل نشر الإسلام فى هذه البلاد .

ومن هؤلاء الاباطرة العظام بابر فاتح هندستان المغولى من سلالة تيمورلنك وجنكيزخان .

أزبك الشيبانى سنة ١٥٠٤ م ، عوّل على إخضاع أفغانستان ، فاستولى على كابل ، وأخضع قندهار ( ١٥٠٧ م ) . وهناك كثر اتباعه وعظم شأنه ، ثم أخذ يفكر فى غزو بلاد البنجاب التى فتحها تيمور منذ مائة سنة وسبع سنين ، واستطاع أن يجمع جيشا زوّده بكثير من البنادق . ولما آنس فى نفسه القوة سار على رأس أنصاره من التركان ونزل فى بلاد البنجاب .

وكانت بلاد الهند فى ذلك الوقت منقسمة على نفسها ، كما كان أهلها على تمام الاستعداد للترحيب بأى غاز يكفل لبلادهم السلامة والطمأنينة ، ويقر فى ربوعها الأمن والنظام . وسرعان ما احتل بابر لاهور ( ١٥٢٥ م ) ، ووضع أساس دولة مغولية نسبت إليه . وفى ٢٠ ابريل سنة ١٥٢٦ هزم بابر جيش ابراهيم لودى آخر سلاطين أسرة لودى ( ٨٥٥ — ٩٣٠ هـ = ١٤٥١ — ١٥٢٦ م ) وسلطان دلهى هزيمة منكرة عند مدينة بانيبات Panipat ، أشهر مدائن السهل المسمى باسمها ، وتقع على بعد عشرة أميال شمال مدينة دلهى ، وانتصر عليه انتصارا مؤزرا برغم قلة عدد جنوده الذى لم يتجاوز خمسة وعشرين ألف ، على الرغم من أن جيش سلطان دلهى كان يربو على أربعة أمثال جيشه ، وعلى الرغم من أنه كان مزودا بعدد من الفيلة لا يقل عن ألف فيل . وسرعان ما دخلت جيوش بابر مدينتى دلهى وأجرا Agra ، وأخضع شمال بلاد الهند . وبذلك امتدت فتوحه من نهر السند الى حدود بنغالة ، وتلقب بلقب أمبراطور بلاد الهندستان. ومما كتبه بابر بعد أن فتح هذا الجزء من بلاد الهند : « إن هذه البلاد تختلف تمام الاختلاف عن بلادنا . فهى أحسن هواء وأكثر خصبا ونماء ، كما أنها لا تقرن ببلدنا من حيث الغنى والثراء »[١] .

خلف بابر ابنه هُمايون Humayun ( ١٥٣٠ — ١٥٥٦ م ) ، وكان فى التاسعة عشرة من عمره . على أنه قد حاول رغم صغر سنه أن يتم أعمال أبيه الحربية[٢] . بيد أنه لم ينجح فى فتح جوجرات ومالوا المتحدتين ، على حين تمكن الافغان فى بنغالة بقيادة شيرشاه Shir Shâh من صد همايون نحو الغرب بعد مقاومة شديدة . وتمكن شيرشاه من

---

(١) The Cambridge History of India (Combridge, 1928), Vol. III. P. 250

(٢) Stanley Lane-Poole : The History of the Moghul Emperors of Hindustan, pp. XI, XII.

اخضاع كل بلاد الهندستان لحكمه عدا جوجرات ، وأرغم همايون على الالتجاء الى بلاد السند أولا ، ثم الى فارس ثانيا ، ولم يتمكن من العودة الى بلاد الهند لاسترداد امبراطوريته القديمة الا بعد خمس عشرة سنة . وفى ذلك الوقت مات شيرشاه بعد أن وضع أسس النظام الادارى الذى أتمه أكبر خان فيما بعد . ومهد النزاع الذى قام بين خلفاء شيرشاه السبيل أمام الفاتح المغولى ، فتمكن من استعادة دلهى سنة ١٥٥٥م ، ومات هناك فى السنة التالية .

وكان لبابر وابنه همايون أثر يذكر فى نشر الاسلام فى بلاد الهند ؛ فقد اعتقد تيلوك شند Tilock Chand زعيم أسرة باشوتى Bachoti الاسلام طوعا واختياراً بعد ان أسره بابر ، ثم أطلقه على أثر اعتقاده هذا الدين . وقد قيل فى سبب اسلامه إن همايون سمع بجمال امرأته الفاتن وأمر رجاله فقادوها اليه من أحد الأسواق . ولكن سرعان ما أنبه ضميره وردها الى زوجها ؛ فلما عادت اليه أكبر هذا الخلق الكريم من نفس هذا المسلم العظيم ، واعتقد الاسلام الذى يحث على مثل هذه الفضائل العالية [١]

* * *

وقد ترك همايون مهمة إتمام هذه الفتوح التى بدأها لابنه أبى الفتح جلال الدين محمد أكبر خان ( ١٥٥٦ — ١٦٠٥ م ) ثالث أباطرة الأسرة التيمورية فى بلاد الهند . ولد أكبر فى أمركت Umarkot فى بلاد السند سنة ١٥٤٢ م فى المنفى ، فى عصر يعد من أعظم عصور التاريخ ، وكان هو أعظم حكام ذلك العصر . ولم تكن أوروبا وحدها فى طور النهوض العقلى ، بل كان هذا التطور قد بدأ فى بلاد الهند أيضا [٢] . ولم يكن أكبر خلال حياته الطويلة التى كانت تفيض بالنشاط العقلى يحسن القراءة والكتابة ، رغم أنه انحدر من أسرة امتازت بالثقافة ، ورغم أنه كان يعيش بين طائفة من رجال العلم ، ورغم أنه كان يعيش مع امرأتين اشتهرتا بالأدب : هما زوجه سليمة سلطان وعمته كلبدن . وربما كان سبب عدم تعلمه فى صغره راجعا إلى اضطراب مركز أبيه .

ولما بلغ أكبر سن الرشد انصرف باختياره عن التعليم ؛ ولكنه كان قوى

(١) Arnold : The Preaching of Islam, p. 259.

(٢) انظر لفظ أكبر فى ترجمة دائرة المعارف الاسلامية .

الملاحظة متعطشا للمعرفة ، وقد درس فرعا من فروعها على الأقل هو الدين . ولما توفى أبوه فى ٢٤ يناير سنة ١٥٥٦ م كان أكبر صبيا لم يناهز الرابعة عشرة من عمره ، فآلت الوصاية عليه الى بيرام خان بهارلو التركمانى ، فصحبه فى محاربة القوات الهندية التى انهزمت شر هزيمة ( ٥ نوفمبر سنة ١٢٥٦م) فى نفس سهل بانيبات الذى أحرز فيه بابر انتصاره المؤزر من قبل . وبذلك وجد أكبر نفسه صاحب النفوذ المطلق فى أحسن صقع فى هندستان . وسرعان ما قبض على أزمة الحكم رغم حداثة سنه ، ودخلت فى حوزته دلهى وأجرا ، وسقطت فى يده جواليور Gawalior ( ١٥٥٨ م ) ، وجونبور Jaunpur ( ١٥٥٩ م ) ، واكتسحت جيوشه مالوا Malwa وخنديش Chandesh ( ١٥٦١ — ١٥٦٢ م ) ، وسلمت إليه راجپوتانا Rajputana وجوجرات Gujarat ( ١٥٧٢ م ) ، واستطاع أن يقضى على الثورة التى قامت فى بنغالة (١٥٧٥ — ١٥٧٧م)، ثم ضم إلى أملاكه قشمير (١٥٨٧م) وقندهار بعد ذلك بست سنوات .

وكان أكبر عاقلا بعيد النظر . فقد رأى من الحكمة ألا يتدخل تدخلا جديا فى شئون بلاد الدكن السياسية ، واكتفى بتأمين نفسه من الغارات التى كانت تهدده من ناحية الجنوب . ومن ثم نراه يتخذ مدينة برهانبور حاضرة خنديش قلعة حصينة تقف فى وجه الحملات التى توجه إلى بلاده من ناحية الجنوب . ولم يحاول أكبر فتح بلاد الدكن وضمها إلى أمبراطوريته الشاسعة الأرجاء . وصفوة القول أن أمبراطورية المغول فى عهد أكبر خان قد صارت موطدة الأركان ، تتألف من الهند العليا وكابل وقشمير وبهار وبنغالة وأريسه وجزء كبير من بلاد الدكن .

وكان أكبر خان أعظم أباطرة المغول فى الهند ، وكان عهده عهد رخاء وثقافة ورقى لهذه البلاد[1] ، لذلك وجب أن نأتى بشىء عن تاريخ حياته الخاصة ، وعن الدور الذى قام به فى تقدم هذه البلاد ورقيها . ولا غرو فان آثاره فى هذه البلاد لا تقل عن آثار شرلمان أو قسطنطين الأكبر فى بلاد الغرب ، فهو حلقة اتصال بين القديم والحديث من تاريخ مجد هذه البلاد ، إذ لايزال ما قام به ذلك الرجل من الجهود فى تنظيم تلك البلاد

---

(١) راجع كتابى Stanley Lane-Poole : Mediaeval India Under Mohammedan Rule, pp. 238—288;

وكتاب The Legacy of India ( edited by G. T. Garratt ), pp. 223-55,287-304.

وتوطيد دعائم الملك فيها باقياً حتى اليوم [١]، فقد سار الانجليز على نهجه حين خلفوا أباطرة المغول فى الهند حتى إن لقبهم Kaisar-i-Hind قد انتحله ملك الانجليز لنفسه من أباطرة المغول.

وأما فى الروسيا وفى آسيا الغربية والوسطى، وكذا فى بلاد الصين فقد تفككت امبراطورية المغول، وأخذت أشكالا مختلفة من الحكم، وأصبحت كل عناية حكوماتها موجهة إلى غرض واحد هو جباية الضرائب لتموين قصور حكامها، كما كان حال القبيلة الذهبية The Golden Horde فى جنوب الروسيا، أو فى قره قورم، أو فى بكين حاضرة امبراطوريتهم. ومن ثم كانوا لا يتدخلون فى شئون الأهلين فيما يتعلق بأفكارهم ومعتقداتهم ما داموا يدفعون الضرائب المفروضة عليهم. ومن ثم نشطت حركة التبشير المسيحية فى موسكو وكييف، كما انتشر مذهب الشيعة فى فارس، وظهرت حركة قومية صينية فى بلاد الصين حيث أزال أهلها عن بلادهم نير المغول [٢].

أما فى بلاد الهند فقد كانت امبراطورية المغول على غير هذا. والفضل فى ذلك يرجع إلى أكبر خان الذى خلق من بلاد الهند بلاداً جديدة: فقد ساوى بين الأمراء وطبقة الحكام فى المصالح المشتركة. وكان من أبرز صفات أكبر سعة العقل وحرية التفكير؛ ولا غرو فقد عنى بتخريج الرجال ذوى الكفايات المختلفة فى بلاد الهند، أياً كانت جنسيتهم أو دياناتهم. ومن ثم لم تكن امبراطورية أكبر إسلامية النزعة أو مغولية، كما لم تكن آرية أو هندستانية، بل كانت هندية قبل كل شىء، فقد وضع نصب عينيه مصالح بلاده، فكان شديد التسامح فى الدين، ومن ثم ساوى بين المسلمين وغيرهم من أهل الملل والنحل والطوائف المختلفة فى بلاد الهند.

ولقد سر أكبر طوال حكمه ما لاحظه فى فرص كثيرة من حسن صفات أولئك الأمراء من الهندستان، وبخاصة نبل نفوسهم ووفائهم، وتفانيهم فى الإخلاص له، برغم بغض رجال بلاطه من المسلمين لهم، واعتبارهم إياهم من المخلدين فى العذاب يوم القيامة، لأنهم كانوا من أتباع «براهما» المعتقدين لمذهبه. وكان يرى أن هؤلاء الرجال ومن

(١) Stanley Lane-Poole : The History of the Moghul Emperors of Hindustan, p. XV.

(٢) H. G. Wells : Outline of History, vol. II. p. 487

نحا نحوهم يكوّنون الأغلبية الساحقة من رعاياه ، كما لاحظ كذلك أن الكثيرين من هؤلاء الهندستان ، وبخاصة من كان يوثق به ويركن إليه منهم ، كانوا شديدى التمسك بدينهم ، برغم ما كان يفيضه عليهم اعتقادهم للاسلام — دين رجال البلاط — من حطام الدنيا ، وما يسبغه عليهم من الآلاء .

وباطلاعه على المذاهب المختلفة والعقائد المتباينة زال ما كان فى نفس أكبر من الريب ، ولم يخامره شك فى أن يترك الناس أحراراً يدينون بما يريدون ، ويعتقدون ما يشاءون ، مهما كانت عقيدتهم وأيا كان دينهم ، كما دفعه إلى التسامح فى الدين مع جميع الناس ما كان يلاحظه فى كل يوم وفى كل لحظة من حرج عقول أهل الطوائف المختلفة ، وضيق عطنهم ( تفكيرهم ) وتعصبهم لمعتقداتهم أيا كان دينهم[١] .

قالت بفريدج عن أكبر : «وكان متصفاً بالصبر والمثابرة ورجاحة العقل التى تتمثل فى قوله المأثور « السلام مع الجميع » ، فحكم لمصلحة الكثرة من رعاياه ، وهم الهندوس الذين حررهم من القوانين الظالمة المهينة ، فكافأوه على هذا بما أدوا له من خدمات جليلة صادقة ... ونشر مذهباً منتخباً فى التوحيد سماه : « توحيد إلهى » . ويظهر أن هذا المذهب كان قائماً على الاعتقاد بوجود الله ، ذلك المذهب الذى يشترك فيه جميع معتنقى الأديان التى بحث فيها . وكان أكبر يعنى أول الأمر بالفرق الإسلامية نفسها ، ثم مل مما اشتمل عليه جدلها . وتزوج امرأة راجپوتانية هى أم سليم . ودرس البرهمية على كهنة علماء ، وترجم بعض الكتب المقدسة من الهندستانية . وكان لحرية التفكير الصوفى سلطان كبير على بطانته ، كما أنه قرب إليه الفرس ... وقد حاول أن يستخلص الحسن من الآراء المختلفة لغاية واحدة هى الوصول الى الحق » .

يقول الدكتور إميل شمدت Emil Schmidt [٣] عن أكبر : « وكان ابنا لأحد الأباطرة (همايون) الذى هرب من الحرب . وقد ولد فى الصحراء ، ونشأ فى بيئة محدودة فمرن على

---

(١) H. G. Wells : Outline of History, vol. II. p. 488

(٢) The World's History (ed. by Dr. H. F. Helmolt, Lond. 1904), Vol. II. Chap. IV. pp. 423—436

صعاب الحياة ومرها منذ طفولته . وقد حبته الطبيعة بنية قوية مكنته من احتمال الآلام والشدائد . ولا عجب فقد أصبح كلفا بالرياضة البدنية مولعا بها ، كما أغرم بالصيد ، وبخاصة بالمخاطرة فى صيد فرس الوحش والفيلة وذبح النمر المخيف . وقد سار أكبر مايقرب من مائتين وعشرين ميلا فى يومين ليصرف « راجا جودپور Raja of Jodphore» عن عزمه على إحراق أرملة ابنه المتوفى . أما فى المعارك الحربية ، فقد كان أكبر يظهر أقصى ضروب البسالة والاستماتة فى الدفاع ، وكان يقود جنوده بنفسه ، ويتقدمهم فى أخطر المعارك وأحرج المواقف ، تاركا لقواده لعبه الخفيف من أعمال الحرب . وكان فى كل انتصاراته مثال الإنسانية والرحمة ، كما كان يحول دون ارتكاب القسوة والعنف على أعدائه . وقد استطاع أن يوجد من تلك العناصر المتنافرة المتعادية شعبا قوياً ذا يسر ورخاء ، وذلك بفضل مااشتهر به من مقت المحاباة التى تفرق بين الأهلين وتولد الانتقام والبغضاء بينهم ، بفضل ذلك التسامح مع مخالفيه فى الدين ، وعدم تحيزه لجنس دون جنس ، وذلك من شأن عظماء أبطال التاريخ الذين تولوا العروش وأقاموا الدول . وكان شديد الدأب على القيام بالاصلاحات الداخلية فى بلاده فى وقت السلم . وقد أتاح له اعتداله فى ملاذه وقصده فى نومه وتوزيعه وقته توزيعا دقيقاً ، الفرصة لتكريس نفسه على العلوم والفنون بعد فراغه من النظر فى شئون بلاده . وقد اتخذ أصدقاءه وجلساءه من الأشخاص البارزين والعلماء النابغين الذين زانوا الحاضرة التى بناها لنفسه [1] » .

وكان أكبر يعقد فى مساء كل خميس مجلسا للبحث فى الأدب والفلسفة . وكان أخلص أصدقائه من هؤلاء رجلين هما فايظى وأبو الفضل ، وكانا من أشد الناس ذكاء . ولا غرو فقد ولدا من رجل اشتهر بحرية الفكر . وكان أكبر هذين الأخوين عالما مشهوراً فى الأدب الهندى ، فاستطاع أكبر بمعونة هذا الرجل وإشرافه ترجمة أهم المؤلفات السنسكريتية الى الفارسية .

أما أبو الفضل ، وكان أيضاً من أخلص أصدقاء أكبر ، فقد كان قائدا وسياسيا وإدارياً . وإليه وإلى نشاطه بوجه خاص تدين مملكة أكبر باستتباب الأمن والنظام .

يقول ولز : « إن أكبر كان ملكا عظيما ، لكنه قد عاش كما يعيش جميع الناس

---

(١) H. G. Wells : Outline of History, vol. 11. p. 488.

فى حدود بيئته فى ذلك العصر ، متأثراً بأفكار من يحيط به إلى حد بعيد ، كما كان أيضاً بحكم بيئته بعيداً عن تلك النهضة الفكرية التى قامت فى أوربا . ومن ثم لم يقف على ذلك النهوض القومى عنـــد أمم الغرب ، كما لم يقف على طرق التربية التى قامت بها الكنيسة ونشرتها فى البلاد الغربية . وقد هدته نشأته الإسلامية الأولى وعقليته التى اكتسبها من بلاده ، الى أنه لا يمكنه أن يوجد من بلاد الهند أمة عظيمة قوية ، ما لم توحّد بين أجزائها الأفكار المشتركة القائمة على أسس دينية . على أنه كان يجهل الطريق إلى إيجاد تلك المرحلة وتقويتها ، بانشاء المدارس العامة ونشر الكتب وادخال النظام الجامعى القائم على حرية الفكر ، ذلك النظام الذى لا تزال الأمم الراقية متأثرة به إلى اليوم ، . . . . وقد حقق أكبر لبلاد الهند نظاماً عاما للتعليم ، فقد فتح كثيراً من المدارس الإسلامية وأخرى هندستانية . ومن ثم يقول Wells [1]، كان عمل أكبر فى اصلاح شئون الهند أكثر من علمه ، فقد حقق لتلك البلاد من شئون الإصلاح أكثر مما قام به البريطانيون الذين خلفوه فيها ، فإن بعض الحكام البريطانيين قد قلده فى أبهته وعظمته ، وفى سرادقاته الفاخرة ، وفى قصوره الملوكية . ولكن أحداً منهم لم يجاوز هذا المظهر السياسى لهذا الملك التركانى فى العصور الوسطى ، فيحاول تحقيق ما كان يرمى إليه من ايجاد نظام عام للتعليم ، ذلك النظام الذى كان ضرورياً جداً لبلاد الهند قبل أن تلعب دورها الهام فى تقدم الإنسانية ونهوضها ، .

وكان لسياسة اللين والتسامح التى سار عليها السلطان أكبر خان أثر عظيم فى جذب قلوب الهندوس وانتشار الإسلام الذى كان الناس يسارعون اليـه بوحى من ضمائرهم ، وبسبب اعتقادهم أنه هو الدين الحق [2] .

وفى عهد أكبر خان دخلت قشمير تحت نفوذ دولة المغول ، ومن ثَمّ قوى نفوذ المسلمين فى هذه البلاد ، ثم وفد عليها عدد كبير من رجال الدين واستقروا بها . ويسكن قشمير عدد كبير من المسلمين يربو على ٧٠٪ من مسلمى الهند جميعاً .

ويعزى انتشار الإسلام بين أهالى هذه الولاية بهذه الكثرة إلى حركة الدعاية المتصلة

---

(١) H. G. Wells : Outline of History, vol. 11. pp. 489-90

(٢) Arnold : The Preaching of Islam, p. 259.

التى بدأها وقام على تنفيذها الدراويش الذين وجد بينهم بعض دعاة الاسماعيلية من قلعة ألموت التى أسسها الحسن الصباح على مقربة من بحر قزوين فى القرن الخامس الهجرى ( الحادى عشر الميلادى ) . وكان صدر الدين أول من اعتنق الإسلام من ملوك هذه البلاد ، وكان إسلامه على يد أحد الدراويش — ويسمى بلبل شاه — وذلك فى القرن الرابع عشر الميلادى .

ويرجع ازدياد انتشار الإسلام فى هذه البلاد فى أواخر هذا القرن إلى سيد على الهمدانى الذى هرب من مدينة همدان مسقط رأسه بعد أن أثار غضب تيمور ، ولجأ إلى قشمير . وقد صحبه سبعمائة من أتباعه وأسسوا لأنفسهم أماكن للتنسك ، فأصبحت هذه الأماكن مراكز لنشر الاسلام بين أهالى هذه البلاد .

وفى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى ، وصل من بلاد العراق أحد دعاة المذهب الشيعى — ويسمى مير شمس الدين — إلى قشمير ، واستطاع بمعونة تلاميذه ومريديه أن يحول كثيرين من أهالى هذه البلاد إلى الاسلام . وكان لتجار قشمير من المسلمين أثر كبير فى نشر هذا الدين بين أهالى هضبة التبت(١) .

كان أورانجزيب ( ١٦٥٩ — ١٧٠٧ م ) سادس أباطرة المغول فى بلاد الهند . وفى عهد شاه جهان ولى بلاد الدكن بين سنتى ١٦٣٦ و١٦٤٣ م ، فعمل على تنظيمها ، وقسمها أربعة أقسام هى : دولة آباد ( بما فيها أحمد نجار ) ، وخنديش ، وتلنجانة ، وبيرار . على أن اهتمامه بإتمام اصلاحاته قد ضعف بسبب ذلك النزاع الذى قام قبل توليته عرش دلهى فى سنة ١٦٥٩ — ولم تبدأ سلسلة فتوحاته فى الجنوب الا فى سنة ١٦٨١ ، أى قبل وفاته بست وعشرين سنة — ومع أن جيوشه اكتسحت كافة أرجاء الدكن واستولت على كثير من قلاعها ، فقد وقف فى وجهه ذلك الإقليم الجبلى الذى يقطنه الماراتسى Marathas الأقوياء الأشداء ، الذين لم تلن قناتهم والذين لم يكن من سبيل لإخضاعهم .

وفى عهد أورانجزيب الذى اشتهر بغيرته على الإسلام ، زاد حماس راجات الهند لهذا الدين ، وأخذوا يناوئون الديانة الهندوكية مناوأة شديدة . وقد دخل فى الإسلام

---

(١) Arnold : The Preaching of Islam, pp. 191—2.

كثير من أهالى الجهات الشرقية من مقاطعات البنجاب وجوجرات القريبة من دلهى ، وفى جهات كونبور Cawnphore وشمالى الهند[١].

وفى عهد أورانجزيب تحول راجا كشتوار Rájá Kichtwàr على يد سيد شاه فريد الدين إلى الإسلام ، ثم تبعه أكثر رعاياه ، ولا نزال نرى فى قشمير بعض راجات ينتمون إلى أسلافهم الذين تحولوا إلى الإسلام فى ذلك الوقت[١].

***

وبعد موت أورانجزيب سنة ١٧٠٧ م أخذت امبراطورية المغول بلاد الهند فى الانحلال ، وجاء بعده أباطرة ضعاف ، فى الوقت الذى كانت فيه قوات السيخ Sikh والمراتسى قوية ناهضة . وكانت غارات نادزشاه ، واحمد درانى Durrani ( ١٧٤٨ و١٧٥٧ م ) علامة تنذر بقرب سقوط امبراطورية المغول . ولم يمض خمسون عاما على وفاة أورانجزيب حتى غدا المراتسى أصحاب النفوذ المطلق فى جنوب بلاد الهند ، اللهم الا هذا الجزء الذى تسكنه أسرة النظام الجديدة التى شقت طريقها فى جوجرات ، وامتد نفوذها الى دلهى ، ولم يعد أهل راجبوتانا يعترفون بسيادة المغول . كما امتدت سيادة السيخ على البنجاب التى كانت فى يد الأفغان ، واستقلت أسرات على مقربة من اجرا ، وفى بنغالة . ولو أن الأجزاء الصغيرة فى قاليقوط Calcutta وبمباى ومدراس لم تكن تنبىء عن المستقبل العظيم الذى خبأه القدر لشركة الهند الشرقية العظيمة . هذا وقد جعلت موقعتا بلاسى Plassy (١٧٥٧م ) وبكسار Buxar ( ١٧٦٤م) من الامبراطورية المغولية شبحاً أجوف لايخشى له بأس ، ولو أن سيادة المغول ظلت حتى سنة ١٨٥٧ م . وكان الأباطرة الثلاثة الأخيرون خاضعين للعرش البريطانى ، يعتمدون على معونته المادية . ومات بهادر الثانى ، بعد أن سقط عرشه المتداعى لاشتراكه فى العصيان منفيا فى رانجون سنة ١٨٦٢ م .

وقد بذل المغول فى الهند فى أواخر عهدهم جهودا متصلة فى سبيل نشر الإسلام ، وساهم فى هذه الجهود حيدر على وتيبو سلطان Tipu Sultan اللذان قاما بنشر الإسلام فى بلاد الدكن . ففى سنة ١٧٨٨ م أصدر تيبو سلطان المنشور الآتى على سكان ملبار :

---

(١) Arnold : The Peaching of Islam, p. 292.

، بعد انقضاء أربعة وعشرين عاما على غزو بلادكم ، أرى أنكم لا تزالون على عصيانكم وتمردكم ، كما أنكم لازلتم مصــــدر القلق والاضطراب والحروب التى ذهب ضحيتها واستشهد فيها عدد غير قليل من رجالنا . على أنى مستعد لأن أتناسى الماضى . ولقد حان الوقت الذى يجب أن تلين فيه قناتكم ، ويسلس قيادكم ، وتعدلوا عن خطتكم ، وتلزموا السكينة والهدوء ، وتؤدوا ما عليكم من الضرائب على نحو ما يؤديه الرعايا المسلمون . بيد أنى سوف آخذكم بجريرتكم ، ولن أتوان فى تأديبكم إذا لم تقلعوا عن عاداتكم المستهجنة ، وهى أن تعاشر المرأة منكم عشرة رجال ، وأن تتركوا أمهاتكم وأخواتكم فى حمأة الفجور كما تفعل الوحوش الضارية ، مما تقشعر منه الأبدان وتشمئز النفوس الأبية . لذلك أرى لزاما علىّ أن أنهاكم عن هذه العادات الأثيمة ، وأنصح لكم بأن تأخذوا بأهداب الفضيلة التى هى من صفات المجتمع الإنسانى . وإذا عصيتم أمرى وخالفتم نصحى ، فإنى أقسمت قسما حقاً غير حانث فيه ولا آثم أن أحملكم على الصراط المستقيم ، وأن أنيلكم شرف الإسلام . وسوف أحمل كبيركم وصغيركم على الاعتراف بحكومتى (١) » .

وسرعان ما أعد تيپو سلطان عدته وأخذ لهذا الأمر الخطير أهبته ، وجرد فى سنة ١٧٨٩ م جيشا جراراً يتألف من عشرين ألف مقاتل ، للقضاء على الكفار من أهالى ملبار ، وتوعّدهم باحراق دورهم ؛ فاعتقدوا الإســـلام وأكلوا لحم البقر الذى كانوا يقدسونه حسب طقوسهم القديمة . على أنه لم يلبث أن داهمته الجيوش الانجليزية فى أواخر سنة ١٧٩٠ م ، وهو لا يزال ينعم بهذا النصر المبين ، ولقى حتفه فى أثناء حصار سرنجاباتم Seringapatam . وسرعان ما أنكر البراهمة والنيار Nayars الدين الاسلامى ورفضوه ، وعادوا الى دينهم القديم ، حتى إن عدد المسلمين فى الجهات التى يسود فيها النفوذ الإسلامى ، مثل دلهى ، لا يكاد يعدو العشرة فى المائة من السكان (٢) .

من ذلك نرى أن الديانة الهندوكية لم تضعف بسبب دخول الإسلام فى الهند . على أن هؤلاء الهندوكيين ، وإن كانوا قد رفضوا الإسلام ، فانهم مع ذلك لا يزالون

---

(١) Arnold : The Preaching of Islam, pp. 261—62.

(٢) Ibid. p. 262.

يحتفظون ببعض طقوسه، كدفنهم الموتى وفق العادات الإسلامية بدل إحراقهم بالنار. واتخاذ أسماء إسلامية مثل «غلام».

بيد أن انتشار الاسلام فى بلاد الهند لا يرجع إلى ازدياد نفوذ المسلمين السياسى وبسط سلطانه وحده، فان هناك جهات، كجنوب الهند وشرق بنغالة، كانت فيها قوة الإسلام السياسية فى غاية الضعف. وانما يرجع انتشار الاسلام فيها إلى جهود دعاة المسلمين. ولاسيما جنوبى الهند والدكن والسند وجوجرات وبنغالة. وترجع المحاولات التى قام بها المسلمون لنشر الاسلام فى الهند الى جماعة المسلمين الذين هربوا من بلاد العراق ولجئوا الى هذه البلاد، كما ترجع أيضاً إلى تغلغل النفوذ الاسلامى عن طريق اتصال سكان ساحل الهند الجنوبى الغربى بتجار العرب والفرس، الذين اشتغلوا بتجارة التوابل والعاج بين الشرق وأوربا. وكان من أثر تردد هؤلاء التجار على هذه البلاد أن نشأ من سكانها خليط يجمع بين الدم الهندى من ناحية والدم العربى أو الفارسى من ناحية أخرى.

كما نشأت علاقات ودية بين هؤلاء التجار من المسلمين وبين الحكام الهندوكيين، الذين مدوا لهم يد المساعدة، وتعهدوا بحمايتهم وحماية تجارتهم، تشجيعا لهذا النشاط التجارى، وما أصابه أهل هذا الاقليم من ربح وفير وثروة ضخمة وانتعاش اقتصادى ملحوظ، حتى لقد عومل الوطنيون من الهنود الذين اعتقدوا الاسلام بدون اعتبار للطبقة التى ينتمون إليها، معاملة تنطوى على الاحترام الذى كان يعامل به تجار المسلمين الوافدين على هذه البلاد [1].

ولم يكن انتشار الاسلام فى بلاد الهند راجعاً إلى هؤلاء التجار فحسب، بل ساهمت طائفة من فقهاء العرب ومفكريهم فى نشر هذا الدين [2]. فقد بلغت نسبة المسلمين على ساحل ملبار فى أوائل القرن السادس عشر نحو خمس السكان، ولا يزالون يتميزون عن غير المسلمين باطالة لحاهم وغطاء رأسهم. ولا يعزب عن بالنا ما كان للافراد من أثر

---

(١) Arnold : Ibid, pp. 263—4.

(٢) Ibid, pp. 265 et seq.

فى نشر الاسلام فى بلاد الهند، وما قام به شاه رخ البهادورى الشيزرى فى سنة ١٤٤١ م من محاولة نشر هذا الدين فى قاليقوط . هذا الى ما كان للبعوث الاسلامية التى اشتهر رجالها بالعبادة والورع والتقوى وعمل الخير من أثر فى هداية كثير من الهندوكيين إلى الإسلام .

ومما ساعد أيضا على دخول كثير من الهندوكيين فى الاسلام ، أنه كان إذا نبذ أحد هؤلاء الهندوكيين عشيرته وطردته أسرته من حظيرتها ، جذبه الإسلام إليه ، وساوى بينه وبين سائر المسلمين ، وسمح له بالاندماج فى الطبقة الاجتماعية التى كان ينتمى إليها وهو على دينه القديم . وإن هذا التحول كان يتبعه فى العادة إيمان قوى بهذا الدين وعقائده . ولو أن أمبراطورية المغول استمرت فى حكم بلاد الهند لتحول كثير من أهالى هذه البلاد، وبخاصة أهالى راجبوتانا Rajputana وبنكلخند Bunkelkhand الذين لم يقتصروا على احترام شيوخ المسلمين، بل عهدوا بتعليم أطفالهم إلى معلمين من هؤلاء المسلمين، وذبحوا الحيوانات على النحو الذى يذبح به المسلمون، واشتركوا فى أعيادهم، وتزيوا بأزيائهم، وصلوا كما يصلى المسلمون المتمسكون بشعائر دينهم .

وإن ما أظهره أمراء المسلمين فى بلاد الهند من روح التسامح قد حفز هؤلاء الهندوكيين على الدخول فى الإسلام، بخلاف ما كانت عليه الحال فى عهد الأسرات المغولية التى عملت على نشر هذا الدين بما لها من نفوذ وسلطان . ومع ذلك لم يكن لهذه السياسة الأثر المرجو، بل إنها — على العكس — قد أدت إلى توحيد كلمة الهندوكيين وأدت إلى وقوفهم فى وجه أمرائهم المسلمين .

كذلك كان الهندوكيون يشتركون مع المسلمين فى شعائرهم الدينية ، فيذهبون ذرافات ووحدانا لزيارة أضرحة الصالحين ، وينذرون النذر علهم ينجبون أولاداً . فاذا ما استجيب دعاء أحدهم وقضيت حاجته وأولد ولدا ، بر بقسمه، واعتنقت أسرته الإسلام[1] .

ومما ساعد على دخول كثير من الهندوكيين فى الإسلام ،أنه إذا تبنّى أحد أغنياء

---

(١) Arnold : The Preaching of Islam, pp. 288–9.

المسلمين طفلا هندوكيا ، نشأ هذا الطفل نشأة إسلامية . كما أن النساء الهندوكيات كن يتحولن إلى الإسلام بزواجهن من المسلمين . وقد حرص المسلمون على اجتناب كثير من أطفال الهندوكيين إذا فقدوا آباءهم وأمهاتهم وقت انتشار المجاعات ، ويعملون على تحويلهم إلى الإسلام . ويرى سير توماس أرنولد [1] أن نظام الطبقات فى بلاد الهند ، ومايسوده من خلافات ، قد ساعد على ازدياد نفوذ الإسلام فى هذه البلاد ، كما أدى إلى تحول عدد كبير من الهندوكيين إلى هذا الدين .

---

(١) The Preaching of Islam, p.290.

# هـــذا النحو ؟*

بقلم

أمين الخولى

معالم البحث :

١ — من النواميس الاجتماعية : أن تعد الفكرة حيناً ما ، كافرة تحرم ؛ ثم تصبح عقيدة تعتنق وقد جرى هذا أمامنا فى حياة الفقه الإسلامى حديثاً .

٢ — عملنا لغوى ، والحياة تقتضينا فيه تجدداً ؛ وإنما بدأنا بذكر الفقه ، لأن أصول هذا النحو تبنى عليه عند القدماء ، فحديث تجدده يمهد للتجدد اللغوى .

٣ — طرائق الاصلاح اللغوى متعددة : منها الحر الطليق — المتطرف — ؛ والمتوسط المعتدل الذى يقفى على أثر التجدد التشريعى . . . وقد خطا التجدد التشريعى أخيراً خطوات فسيحة . . . وثم من طرائق الإصلاح اللغوى ما هو مسرف فى الاعتـــدال حتى يكاد يكون جموداً ، وهو الطريق الذى نسير فيه هنا الآن .

٤ — حياتنا اللغوية ومشكلاتها ، ومحاولات المحدثين فى التدبير لها .

٥ — تيسير النحو والرأى فيه : ما نأخذه منه ، وما ندعه .

٦ — صعوباتنا اللغوية اليوم ليست ما رآها أصحاب تيسير النحو ، بل هى غير ذلك ؛ فهى : المعيشة بلغة ، وتعلم لغة أخرى ، وهى اضطراب أعراب هذه الفصحى التى تتعلمها ثم هى اضطراب قواعدها .

٧ — التدبير لحل هذه العقد ، والأصل العام لهذا الحل .

٨ — معالجة اضطراب الإعراب : فى الأسماء الخمسة ، والمثنى ، وجمع المذكر السالم ؛ والجمع بألف وتاء ، والأسماء المنقوصة ، والأفعال الخمسة ، والمضارع المعتل الآخر .

٩ — معالجة اضطراب القواعد ، ومحاولة طردها بمعونة أصول الأقدمين النحوية .

١٠ — مناقشة ما يمكن أن يورد على هذه الحلول من شبه مثل : صلتنا بالقرآن ، وحال تلاميذنا مع هذه الحلول ، أمام التراث القديم ، وروابط الشعوب التى تتكلم العربية .

(*) محاضرة ألقيت خلاصتها فى الجمعية الجغرافية الملكية بعد ظهر الخميس ١٣٦٢/٤/٣ — ١٩٤٣/٤/٨

## — ١ —

## نواميس اجتماعيـــة

منذ أكثر من عشرين عاما ، كنت أتولى تحرير مجلة القضاء الشرعي ، فنشرت فيها مقالا من رسالة لأحد أبناء المدرسة عن « اجتهاد عمر » خاصاً بالتطليق ثلاثا بلفظ واحد ، وأغضب هذا المقال من أغضب ، حتى استدعيت من الريف سريعاً لأدرك المجلة وقد تعرضت لخطر مخيف على حياتها ، فكتبت فى افتتاحية العدد التـــالى — صفر سنة ١٣٤١ هـ — كلمة أهدىء بها النفوس ، كان مما قلت فيها :

« لم تنشر المجلة ذلك رأيا لها أو مذهباً ، ولم تعلق عليه باستحسان أو تحبيذ ، ولم يجىء فى سياق الكتابة نفسها مايشعر بدعوة إلى جديد ، أو حمل عليه ، أو تحسين له ، ولكنه بحث نظرى محض ، كتب للخاصة من المتفقهة . يروضون فيه النظر ، ويمرنون الفكر ، ولهم أن يفندوه وينقضوه ، ويردوا عليه بما شاءوا ، والمجلة تتقبل ذلك بصدر رحب وقبول حسن ، ولا سيما إذا ذكرت أن البحث نظرى محوج إلى التمحيص ؛ ويحسن فيه الأخذ والرد . . . »

إلى كلام آخر فى هذا المعنى ومايتصل به .

***

وشاء الله وقضت نواميس الكون الاجتماعية ، بعد ذلك بأعوام ليست كثيرة فى حياة الأمة ، أن يصبح منع التطليق ثلاثا بلفظ واحـد ، قانونا رسمياً ، معمولا به فى المحاكم . ثم قضت بأن يكون الأستاذ كاتب المقـال السابق أحد أساطين المختصين بإصلاح تشريع الأحوال الشخصية ، فى مسائل أهم وأبعد مدى من الطلاق الثلاث بلفظ واحد .

وإنها لظاهرة مطردة مكررة فى حيات الكائنات المعنوية كلها . وقد عرفتها الدنيا فى شواهد جمة ومواطن متعددة ، مما له صلة بالتدين والاعتقاد ، أو لاصلة له به .

إذ تعد الفكرة حيناً ما ، كافرة تحرم وتحارب ، ثم تصبح — مع الزمن — مذهباً بل عقيدة وإصلاحا تخطو به الحياة خطوة إلى الأمام . . .

وعلى أساس من التنبه لهذا الناموس الاجتماعى والثقة به ، تعرض لموضوعنا فى « هذا النحو » .

— ٢ —

## النحو والفقه

ولكن . . . مادام الناموس الاجتماعى مطرداً فى حياة الكائنات المعنوية جميعاً ، ففيم البدء بالإشارة إلى هذا الفقه وما كان من أمره ؟ ونحن قوم انما نشتغل بالشئون اللغوية ، وقد قصدنا إلى الحديث فى هذا النحو ، حين استفاض القول بفساد مابينه وبين الحياة ، إذ أقام الصعوبات المحرجة فى أوجه الصغار ، حين يتعلمون الفصحى ، فيعكفون على تعلمها مدة لن تقل فى حياة واحد منهم عن اثنى عشر عاما ، حتى يحصل على شهادة إتمام الدراسة الثانوية ، وقد تزيد . . . ثم لا يظفرون منها بطائل ، بل يتقدمون إلى الحياة كباراً لا يحسنون استعمال هذه الفصحى والانتفاع بها ، وهى أزمة إن شكاها الأفراد فإن هذه الأمة لتشكو من أنها تعيش بلغة ، وتبذل ماتبذل فى تعلم لغة تكاد تظل غريبة عنها ، فلا تجد فيها مالابد منه للأمة ، وهو الأداة الطيعة المرنة المواتية للتفاهم والتعامل ، والتعلم ، والتفنن . تلك الأداة التى تحقق رغبات الجماعة فى ميادين النهضة على اختلافها ، وتكون عاملا من أهم العوامل فى وحدة الأمة ، وتماسكها ، وإعانتها على مسايرة الحياة ، والاستجابة لكل تدرج وتطور فيها ؛ والحياة بطبيعتها تدرج ونماء ...

ومن أجل ذلك صار الواجب الاجتماعى الأول ، على المشتغلين بالشئون اللغوية ان يفكروا تفكيراً نفاذا ، فى تدبير الوسائل الفعالة لتذليل هذه الصعوبات كلها ، وهو ماحاولت بجهدى المتواضع أن أعرض فيه شيئاً عن هذا النحو .

وإنما بدأت بالإشارة إلى الفقه ، لأدل بذلك على خطة من الخطط ، فى بحث مسألة النحو ، إذ أن للبحث فيه أكثر من خطة : فقد يأخذ متناوله بالحرية المسرفة فيقول لكم إن اللغة — فى نظر الاجتماع — أشد التقاليد الاجتماعية لينا ، وأقلها صلابة وتحجراً ، وأطوعها للتطور ، وأكثرها تأثراً بالعوامل المختلفة ، وانقياداً لسائر ظواهر الإجتماع وأنظمة المجتمع . . . ومن هنا تعددت اللغات بتعدد الجماعات ، ثم تفرعت اللهجات

باختلاف البيئات . فى وطن الجماعة الواحدة الجنس والإقليم ، ومن هنا أصابت اللغات الحية ألواناً من التطور حفظت بها حيويتها واستجابت لطلبات الجماعة منها ، فكذلك ينبغى أن تتناول لغتنا بإصلاح حر طليق . إذا ما أردنا لها أن تكون فى حياتنا ، كما يجب أن تكون اللغات فى حياة الأمم .

ولا تحسبوا أن هذا الذى أصفه هو احتمال فرضى أو رأى نظرى . فقد كان قولا يقال وينشر فى الجيل الماضى ، مع أنه حديث عهد بتجدد ، فكان من رجاله من أشار بالتخلص من هذا النحو وإعرابه بالوقف مثلا ، كما كان من رجاله — وإن لم أثبت اسمه من قال ما معناه : « إن كانت هذه اللغة التى تريدون أن نعيش بها ، ميراثاً آل إلينا ، فلنا فيه ما للمالك فى ملكه من تصرف ، فدعونا نتصرف فيها بما يصلحها . وإن كانت عارية لاغير ، فخذوها ودعونا نبحث عن لغة غيرها ، نستطيع التصرف فيها بما يدفع حاجة الحياة » .

وسواء أكان هذا قولا لشخص بعينه « هو المرحوم أحمد فتحى زغلول باشا » — فيما نقل إلى ، أم كان صرخة كل فرد مكظوم حين يعانى هذه الصعوبات ، فان واقع الحياة لا يغفل تقديره .

ولكننا رغم هذا كله ، لن نأخذ هنا بشىء من تلك الحرية التى تبدو مسرفة ، بل ندع الآن هذه الخطة التى لاتتمسك إلا بحقها فى التصرف ، دون أن تقيم هذا التصرف على أساس تعينه ... ندعها هنا لنأخذ بخطة مسرفة فى عكس ما أسرفت فيه الأولى من حرية ، مسرفة فى الرجوع إلى القديم ، والتعمق فى البحث عنه . فهى خطة معتدلة محافظة ، تقيم نظرها فى مسألة النحو ، على ما يتكشف لها من تقدير لأصوله البعيدة التى أقام النحاة عليها بناء قواعده ، وللنحو أصول كأصول الفقه . وأصول القانون ، صنعها أصحاب النحو على وجه يبين فى تاريخه ، والفحص لمناهج درسه ... وما دام للنحو أصول فان الرجوع إليها أمر لا بد منه فى فهم كيانه ، فهما يعين على التحدث فيه عن بصيرة ، ويدل على تقدير أصحاب هذه القواعد لها ، ومدى ما يجيزونه من التصرف فيها بنفى أو اثبات .

والناظر فى هذه الأصول ، يرى النحاة منذ أول الدهر ، قد ربطوا أصولهم بأصول

الفقه، بل حملوها عليها ... فهذا ابن الأنبارى — المتوفى سنة ٥٧٧ هـ — حين يعد علوم الأدب، يذكر أنه ألحق بها — علم أصول النحو. فيعرف به القياس وتركيبه وأقسامه: من قياس العلة، وقياس الشبه، وقياس الطرد، إلى غير ذلك على حد أصول الفقه، فإن بينها من المناسبة ما لا يخفى. لأن النحو معقول من منقول، كما أن الفقه معقول من منقول، ويعلم هذا حقيقة، أرباب المعرفة بهما[1].

ثم هذا الجلال السيوطى بعده — فى القرن العاشر الهجرى — إذ يزعم أن صنيعه — فى كتابه «الاقتراح فى أصول النحو، صنيع مخترع، وتأصيله وتبويبه وضع[2] مبتدع، لا يلبث أن يقول هو بنفسه عن هذا الاختراع: أنه رتبه على نحو ترتيب أصول الفقه، فى الأبواب والفصول والتراجم[3] الخ — كما يقول فى ثنايا كتاب الاقتراح. هذا معلوم من أصول الشريعة، وأصول اللغة محمولة على أصول الشريعة[4]

وليست المسألة بنت القرن العاشر أو السادس، بل هى أسبق من ذلك وأقدم. فابن جنى فى القرن الرابع — توفى سنة ٣٩٣هـ — قد زاول أصول النحو — كما يقول السيوطى المخترع بنفسه: «إن ابن جنى وضع كتابه الخصائص فى هذا المعنى، وسماه «أصول النحو»[5] وقول ابن جنى هذا — فى صلة النحو وأصوله، بالفقه وأصوله أكثر مما روينا وأوضح، إذ ينقل عنه أنه قال فى الخصائص: «أعلم أن أصحابنا انتزعوا العلل من كتب محمد بن الحسن، جمعوها منها بالملاطفة والرفق[6]».

---

(١) نزهة الألباء فى طبقات الأدباء. ط مصر ١٢٩٤ هـ صفحة ١١٧.

(٢) السيوطى: الاقتراح فى أصول النحو طبعة الهند صفحة ٢.

(٣) المصدر السابق ص ٤.

(٤) المصدر السابق ص ٣٨.

(٥) المصدر السابق ص ٢.

(٦) ربما كان هذا المعنى الذى ذكره ابن جنى من أخذ النحاة عللهم من كتب محمد بن الحسن، صاحب أبى حنيفة، وجها لما أشار به الزمخشرى فى مقدمة «المفصل» إلى هذا الامام الفقيه بخاصة، إذ يذكر أن الكلام فى معظم أبواب أصول الفقه ومسائلها، مبنى على علم الإعراب. ويبين أهمية هذا العلم للعلوم الاسلامية المختلفة، وتدخله فى مباحثها، حتى يشير إلى صنيع محمد بن الحسن الشيبانى، من بين الفقهاء، ويقول: «هلا سفهوا رأى محمد بن الحسن الشيبانى رحمه الله، فيما أودع كتاب «الايمان» (شرح المفصل لابن يعيش. طبعة مصر ص١٤). فلعل تعيينه هذا الاسم، وإشاره بالذكر دون غيره، يشير الى صلة عمل هذا الفقيه بعمل النحاة، على نحو ما ذكره ابن جنى، من انتزاعهم علل النحاة من كتبه بالملاطفة والرفق.

وفى كل حال ، فان الصلة بين الأصلين ، وحمل أصول النحو على أصول الفقه ، مما استقر أمره فى نظر الأقدمين على مانقلنا . وإن زاد ابن جنى على هذا أصول المتكلمين وضمها إلى أصول الفقهاء [١] . ورأى أن علل النحاة أقرب إلى علل المتكلمين منها إلى علل المتفقهين [٢] ، وجعل عللهم فى منزلة بين التعليلين ؛ الكلامى والفقهى ، فهى متأخرة عن علل المتكلمين ، متقدمة علل المتفقهين [٣] .

ومانقف هنا لنرى رأيا فى فقهية هذه الأصول النحوية ، أو كلامية العلل النحوية فربما اطمأننا إلى غيرذلك كله ، حينما نعرض للبحث النظرى فيه ، تحقيقاً للمنهج النحوى وماحوله .. وإنما مهمتنا هنا — كما قدمنا — عملية ، نلزم النحاة فيها بقولهم . وأول هذا أن نسجل عليهم ما التزموه وقرروه ، من حمل أصول اللغة على أصول الشريعة حملا ، وأخذها منها أخذاً ، بل نقدر ، مع ذلك أنهم تحروا تأليف كتبهم فى النحو على غرار ما ألف الفقهاء فى فقههم [٤] فننظر أولا مكان :

## — ٣ —

## اللغة والشريعة فى الحياة

من حيث اتصال كل واحدة منهما بهذه الحياة ، ثم من حيث تأثر كل واحدة منهما بها .

فكل من الشريعة واللغة ، مظهر قديم من مظاهر حياة الجماعات البشرية ؛ ثم اللغة من أقدم هذه المظاهر — إن لم تكن أقدمها — فى تقدير أصحاب الاجتماع . وهما متصلتان بالحياة العاملة اتصالا وثيقاً ، بل عنيفاً . وربما كانت اللغة فى هذا المعنى أشد وثاقة ، وأقوى ارتباطا ، لأن بعض التشريع قد يغنى عنه القانون الخلق . ولا غنى لجماعة متقدمة — إلى الآن — عن اللغة . . . والشريعة تنظم ناحية من نواحى معايش الناس ، على حين تتصل اللغة بكل النواحى .

وأما من حيث تأثر الشريعة واللغة بالحياة وواقعها ، فإنا نعرف أن الشريعة تعتبر

---

(١) ابن جنى ، الخصائص ، المقدمه ص ٣ .

(٢) ابن جنى ، الخصائص ١ ص ٤٦ . الاقتراح ط الهند ص ٤٦ .

(٣) الخصائص ١ ص ١٤٩ . الاقتراح ط الهند ص ٥٠ .

(٤) السيوطى — الأشباه والنظائر — المقدمة ط الهند .

العرف . وهو تركز اجتماعي بطيء التكوين بطيء التغيير ، فهي إن لامست الزمان والمكان ، وجعلت أحكامها تناسبهما ، إلا أنها فى ذلك بطيئة الخطى بطيئة التغيير نوعا ما . . . ولعله بهذا انخدع الفقهاء . حين أقفلوا باب الاجتهاد ، وتصوروا أن يجعلوا إقفاله أبديا .

أما اللغة فهى على ماسمعتم من قول الاجتماعيين عنها ، أشد المظاهر الحيوية ليناً وأقلها تصلباً وتحجراً ، وأطوعها للتطور . وقدماؤنا أنفسهم يدركون هذا واضحاً حين يتحدثون عن تهذيب اللغة وعوامله ؛ وحين يقررون أن الاستعمال يحي ويميت ، ويقبح ويحسن ، وحين يصفون تداخل اللغات ، وتحول اللسان ، وما إلى ذلك ، من دلائل الشعور بتأثر اللغة بالحياة تأثراً قويا .

وإذا ما كانت تلك هى صلة كل من الشريعة واللغة بالحياة ، وحظ اللغة منها أقوى ؛ ثم إذا ما كان هذا مدى تأثر كل من الشريعة واللغة بالحياة ، ونصيب اللغة منه أوفر وأظهر ، فان من حقنا حين نحاول شيئاً من تطويع اللغة للحياة ، أن ننظر أولا فى :

## — ٤ —

## صنيع أصحاب الفقه اليوم

إذ الواقع قد أجبرهم على صنوف من التدرج والمسايرة ، بحكم قاس لا يرد ، فنظروا فى قواعد التصحيح والترجيح عندهم ، وخطة اختيار المذاهب والقضاء بها . وهى القواعد التى تتبعها النحاة تتبعا . وقد قدم الفقهاء من ذلك ما غيروا به التشريع فى الأحوال الشخصية ، وكانت لهم فى هذا محاولات متفرقة ، آخرها — وقد يكون أوسعها — صنيع لجنة الأحوال الشخصية التى مضت عليها أعوام تباشر عملها ، وقد أخرجت منه ما أصدرته الحكومة قانونا ، بعد ما أقره البرلمان . وهيأت قدراً آخر للإصدار .

وقد آثرت ألا أقوال فى هذا شيئاً من عندى ، وإن كنت أستطيع هذا القول ، فوجهت سؤالا كتابيا فى ذلك إلى أحد أعضائها المحترمين ، ليجيب عنه كتابة أيضاً — ولعله من حسن الاتفاق أن هذا العضو المحترم ، هو صاحب مقال «اجتهاد عمر» الذى صدرت هذا الحديث بالاشارة إلى ما كان من أمره ، وما انتهى إليه الحال ، من جعل المحرم بالأمس تشريعا اليوم . وهذا العضو هو حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أحمد فرج السنهورى الذى تعرف اللجنة له فى عملها أثراً محموداً ونشاطاً بارعاً .

قلت له فى سؤالى : « ...أعرف أنكم أعددتم فى اللجنة التحضيرية للتشريع الجديد — فى الأحوال الشخصية — مذكرات فى هذا التشريع ، فأرجو أن تتفضلوا ببيان على واف عن الدستور الذى اتبعتموه فى اختيار الأقوال والآراء الفقهية ، ولكم الفضل والشكر » .

فتفضل باجابة كتابية موقعة منه ، ألخص منها هذا الدستور محتفظا بعباراته ، نفسها ، لتروا ما فعل أصحاب الأصول التى حملت عليها أصول النحو حملا .

— ٥ —

## دستور شرعى للتجديد النحوى

فقد قال ان اللجنة التحضيرية ، التى تقوم بإعداد المشروعات الفقهية — وهو أحد أعضائها الثلاثة — قررت مبادىء أقرتها فيما بعد اللجنة العامة ، وتلك الأصول هى :

١ — أن الشريعة جاءت لمصالح العباد ، وأن الدين يسر ، وأن المشقة تجلب التيسير ، وأنه كثيرا ماأخذ المتأخرون بالقول المرجوح واعتمدوه ، لتغير الزمان ، أو الأعراف ، أو لأنه أرفق بالناس ، وعلى هذا الأساس ، سارت اللجنة فى عملها على النظام الآتى :

٢ — أن تجمع الآراء ، من الكتب الفقهية كلها ، بل من غير كتب الفقه أيضاً ، ككتب السنة والتفسير ، ولاتعتمد على المنصوص عليه منها صراحة فحسب ، بل يعتمد على المنصوص ، وعلى ما يؤخذ منه ، ومن علله ؛ وعلى القواعد العامة المذهبية ، والقواعد التى أقرها جمهور الفقهاء .

٣ — ألا تتقيد بمذهب واحد ، فى مسألة بعينها ، بل ينتزع حكم المسألة الواحدة من مذهبين أو أكثر ، ولا تتقيد بما نص على أنه القول الأصح ، أو الأرجح ، فى مذهب من المذاهب ، بل يؤخذ بالمرجوح ، وبه يفتى ويقضى .

٤ — أن تتخير أكثر الأقوال ملاءمة للمصلحة العامة . مراعاة لما يوافق حاجة الأمة ويساير رقيها الاجتماعى ، على ضوء التجارب القضائية ، وما وقفوا عليه من الشكاوى الحقة .

* * *

* * *

فاذا ماسمع حديثنا عن « هذا النحو » من يرى الاتباع خيراً من الابتداع ، ومن يحمى قواعد هذا النحو من كل يد متاولة ، فهل تراه سيدعى للنحو قدسية دينية ؟ وهل تراه سيجعل تغير النحو عسيراً كتغير الفقه ، ويلحق النحو بالفقه فى هذا كله مهما تكن مبالغته وتطرفه ؟... وهبه سيفعل هذا كله على بعده . فانا نقول له : إنا لن نطلب فى هذا النحو أكثر مما فعل أصحاب الفقه فى الفقه . وهو أصل لهذا النحو فى تفكير أصحابه ، كما سمعنا قولهم فى ذلك ، وهاهم أولاء الفقهاء . وقد مهدوا لنا سبيلا لابدع بعد ذلك فى أن نسلكها . وحيث كان الأمر على ماسمعت . من الدستور الشرعى ، فى تناول الفقه وإعداده للتشريع المساير للحياة ، فان من الحق ، الذى يقره المحافظ المتبع ، بل الجامد الراكد ، أن نتبع تلك القواعد الإجمالية فى تهذيب هذا النحو فنقرر :

ا — ملاحظة التيسير والرفق ، ولانقول ان البلوى بالنحو أعم من الفقه وأشمل ، بل حسبنا أن يساوى النحو الفقه فى ذلك ، وإن كان من الناس غير قليل ، يستطيعون الاستغناء عن الرجوع إلى هذه المحاكم الفقهية ، وليس فيهم واحد فرد ، لايعرض للمشكلات اللغوية الكلامية ، وبخاصة حينما نعطى الناس جميعاً حقهم الفطرى فى التعلم . ومجاوزة الأمية ، واستعمال لغتهم فى الحياة قراءة وكتابة وكلاماً . . .

ب — جمع كل مايوجد من المذاهب النحوية ، حيثما وجد ، والتوسع فى فهمه دون وقوف عند نصوصه .

ح — عدم التقيد بمذهب نحوى واحد فى مسألة بعينها ، وعدم التقيد بالأفصح أو الأرجح ، أو الأصح الذى نصوا عليه .

ء — تخير ما يوافق حاجة الأمة ، ويساير رقيها الاجتماعى ، على ضوء التجارب العملية ، والخبرة التعليمية ، والشكاوى الحقة ، من المصاعب اللغوية .

* * *

وليس من الابتداع فى شىء مطلقا أن يأخذ بهذه الأصول فى اللغة والنحو ، أشد المحافظين ، بل المتعنتين ؛ بعد الذى سمع أن أصولها محمولة حملا على أصول الشريعة ، وأن هذا ما أقرته أصول الشريعة ، وأصدرت على أساسه قوانين اعتمدتها السلطة التشريعية المصرية ، ولم يرتفع صوت ما ، بمعارضة أصول هذا التشريع ، مع الفرق

الهائل بل البون الشاسع ، بين الفقه والنحو من حيث الصفة الدينية ، والحل والحرمة فى الأول ، وعدم ذلك تماماً فى النحو . ومع شدة صلة اللغة بالحياة ، ومسايرتها إياها مسايرة قهرية ، لا يستطيع أحد الوقوف فى وجهها ، وهو ما لا يتوافر للشريعة بهذه القوة .

## — ٦ —

## اعتدال جامد

إلى هنا ، من الحديث عن منهج البحث فى هـذا الموضوع ، رأيتم أن صعوباتنا اللغوية ، قد تعرض لتذليلها الجيل السابق ، أو الأسبق — على بساطة حظه من التجدد — فتحدث عن خطة حرة أو متطرفة رأينا هنا ، ألا نأخذ بشىء منها ، وتركناها إلى خطة تتأخر عنها خطوة إلى الوراء ، بل ربما تأخرت خطوات . فنظرنا إلى أصول النحو كيف أصلها النحاة وأسسوها ، وإذا هم قد انتزعوها من أصول الفقه انتزاعا ، وإذا أصحاب الفقه اليوم يعملون رسمياً لمسايرة الحياة ، فقلنا : إن ما صنعه أصحاب الفقه يتخذ مثله فى النحو ، لتذلل صعوباته ، مع ما بين النحو والفقه من فروق ، توجب ذلك فى النحو أكثر وأقوى وأسبق مما توجبه فى الفقه ، وحل لنا اتخاذ هذا الدستور الشرعى ، للتجديد النحوى ، على أن هذه لا تكون منا إلا خطوة محافظة ، بل مقلدة ، لا محافظة فحسب .

لكن ما رأيكم فى أنه ، حتى هذه الخطوة . لا نخطوها هنا بل نرجع إلى ما وراءها أيضاً ، فاذا كان أصحاب الفقه قد حوروا فلا نحور نحن ، وإذا كانوا قد لفقوا فلا نلفق نحن وإذا كانوا قد التمسوا الحلول حيثما وجدت فى غير كتب النحو ، فلا نلتمس شيئاً من ذلك نحن ... بل نلزم أصول النحو بنصها ، ونقف عند منطوقها ، ونبتغى الحلول من عباراتها !! وهو اعتدال جامد ، أو هو أكثر من ذلك حقاً ، فلا يخشى عليه اعتراض فيما أظن .

وعلى هذا الأساس ، سنعرض عليكم الرأى والاقتراح ، بعد أن تسمعوا قبله عبارة النحويين فى أصولهم ، وأنها تحله فى غير لوم ولا تثريب .

* * *

والآن وقد أحجمنا عما تقدم إليه الجيل الأسبق قبلنا ، ثم تأخرنا عما تقدم إليه أصحاب الفقه حولنا ، لا نظن أن حولنا عناصر للرجعية أكثر من ذلك تأخراً ، فلننظر بعين هذا الإعتدال الجامد فى :

## — ٧ —

## حياتنا اللغوية

وإذا قلنا : حياتنا اللغوية ، فإنا نقدر تقديراً صحيحاً أن حياتنا هذه اليوم ، إنما هى ثمرة ونتيجة لذلك الماضى الطويل الذى تعرضت فيه اللغة العربية لعوامل ومؤثرات اجتماعية متنوعة ، ورحلات وانتقالات بعيدة المدى ، وصراع مع لغات أخرى انتصرت فيه حيناً وهزمت حيناً ، وتأثرت ببيئات طبيعية متغايرة ، وبيئات معنوية متعددة ، فترك فيها كل ذلك وما إليه آثاراً فى كيانها ، وفى علومها ، وفى طرق تعلمها ، ولا بد لمن أراد فهم المنهج النحوى فهما صحيحاً ، من التعرض لدرس هذا الماضى السحيق كله ، وتتبع آثاره ، والتفهم التفصيلى لتلك المؤثرات ، فلعله بعد ذلك الدرس يفهم من غوامض هذا المنهج وخفاياه ، حقائق كثيرة ، ويتبين من نواحى خطته وطرق تحريره ، ما لا يستطيعه قط المتناول المستعجل ، وفى العزم إن شاء الله أن نفرغ لهذا الدرس بعد الآن لنحكم على هذا المنهج حكما دقيقاً ، ونتحدث فى تغييره وتصحيحه ، بما يقوم على واقع الحياة ، وقول التاريخ ، وسنة الاجتماع .

أما هنا فغرضنا عملى قريب ، لا يضيره الأغضاء عن هذا المنهج ولا يفسده التزام أصوله التى أشرنا إليها ، راجين مع هذا الاحترام والالتزام ، أن نزيح صعوبات ذاتية ، يعرض لها متعلم العربية فى كل دور من أدوار هذا التعلم ، وإن كنا سنعنى هنا بغير المتخصصين فى علومها المتفرغين لها ، تاركين أولئك المتخصصين يعانون تلك الصعوبات إلى أن يكون القول فى المنهج قولا علميا تاريخياً ، يتم به التغيير البطىء لهذا المنهج إن واتت عليه الحياة العامة والخاصة ، فيغير إذ ذاك أصحاب العربية المختصون بها ، من أسس مقرراتها وأصول دراستها ، بقدر ما يستطيعون من ذلك التغيير .

أما الآن ، فالحديث عن متكلمى العربية ومتعلميها كافة .

* * *

ونؤثر قبل أن نعرض لما نريده من غرض عملي ، أن نصف في إجمـــال موجز ، المحاولات التي بذلت في سبيل إزالة تلك الصعوبات ، لنهتدي بالنافع منهـــا ، ونتقي ما ينقصها ، فيما نبتغيه .

وتبدأ المحاولات لتذليل صعوبة تعلم العربية واستعمالها ، مع النهضة الشرقية الحديثة ، ولعلها في مصر تظهر مع « محمد علي باشا » ولعل أصحاب هذا العهد وما تلاه ، لم يضعوا مسألة اللغة موضع الدرس النظري والتدبير ، بل سلكوا فيها خطوات عملية ؛ ذللوا بها ما واجههم . ودفعوا اللغة إلى الاستجابة لمطالب النهضة العلمية والحربية والصناعية ، التي ظهرت في الوادي ؛ فأحيوا ألفاظاً وأساليب واصطلاحات ؛ وحاولوا من ذلك ما حاولوا . حتى أخرجوا ذلك النتاج القيم في الميادين المختلفة . عربي الصورة إلى الحد الذي استطاعوه . مع مزاحمة التركية لها . وجمود العربية نفسها إذ ذاك .

ثم صارت مسألة اللغة موضع البحث والتدبير في مثل محاولة علي مبارك باشا . إنشـاء مدرسة خاصة بهذا ، لتهيء معلمين للغة ، غير الذين كانت تعرفهم من الأزهر ، ومنذ ذلك العهد عملت المعاهد التي أنشئت حول الأزهر ، ولا سيما دار العلوم ، على تذليل صعوبات العربية ؛ وربما كانت الصعوبات الخارجية أو الشكلية ، أكثر ما وجهت العناية إليه ، أو ما سمح بتوجيه العناية إليه ، وتناوله بالتغيير ، فأصلحت طريقة تعليمها مثلا ، واستعين فيها بما ترشـد إليه أساليب التربية الحديثة قدر المستطاع ، ووضع الكتاب الأقرب مأخذا ، والأصلح شـكلا في عرض قواعد اللغـة ، فأزاحت تلك الأعمال شيئا من الصعوبات ، ولكن ظل صراخ الشاكين يرتفع في كل مناسبة ، كما ظلت قواعد النحو نفسها في جوهرها وصورتها ، على ما كانت عليه في الكتب الأولى ، وكما أسست على أصولها الأولى ، فيما اتخذه النحاة منها ، نقلا عن أصول الفقه ، أو تأثرا بغير ذلك من مؤثرات وجهتهم في صنيعهم .. بقيت تلك جميعا لم يفكر أحد في أن يمسها ، أو ينال منها شيئاً ما ، قليلا أو كثيراً .

ثم عمل الزمن عمله . وتأثرت الحياة اللغوية بما حولها من مؤثرات التجدد . فجعلنا نسمع الكلام عن قواعد النحو نفسها وعمل النحاة فيهـا . ومنهجهم في ذلك . وجعل الدارسون ينظرون إليه بعين ناقدة . لا تغضي أمامه إجلالا ولا هيبة . وجعل

يرتفع الصوت بذلك . فيما سمعنا من عناوين مثل : إحواء النحو، وتيسير النحو . وما أشبه ذلك . مما نحاول أن نصفه قبل الإشارة بشيء غيره ، انتفاعا بما فيه كما قلنا . واتقاء لما نقصه ، فلم يحقق الرغبة الملحة ، فى تذليل العربية ، وتطويعها للحياة والاستعمال .

## — ٨ —

## فى تيسير النحو

فأما إحياء النحو ، فما نحتاج إلى الوقوف عنده لأن صاحبه — أكرمه الله — قد صار فيما بعد سادس خمسة ، كلفوا رسمياً ، تيسير النحو ، فجاء فى ذلك بكل ما استطاع أن يكون له أثر عملى يذلل من قسوة هذا النحو . فنظرُنا فى هذا التيسير ، يغنى عن القول فيما قبله .

وقد كان هـــذا التيسير عملا مرجو النجاح ، إذ أتيحت له المعونة الحكومية والقوة الرسمية ، فصدر قرار وزارى سجل الشكوى من هذه الصعوبة ، وقال :

« بما أن الوزارة سبق لها أن عملت على تبسيط قواعد النحو والصرف والبلاغة . فيما أخرجت من الكتب ، وكان لهذا العمل نتيجة مرضية ، وبما أن هذه الخطوة التى خطتها الوزارة فى الماضى لم تكن كافية ، إذ أنه لوحظ أن صعوبة قواعد النحو والصرف والبلاغة لاتزال قائمة ، وأن المعلمين والمتعلمين ، يبذلون جهداً كبيراً . ووقتاً طويلا فى تعليمها وتعلمها ، ولا يصلون بعد هــذا كله ، إلى نتائج تتفق مع مايصرف من زمن وجهد » .

وحدد هذا القرار الوزارى مهمة اللجنة [1] التى ألفها ، بأنها : « البحث فى تيسير قواعد النحو والصرف والبلاغة — كما سماها التبسيط الجديد — وطلب الأسس التى تشير اللجنة بوضع قواعد النحو والصرف عليها ، وقد أعدت اللجنة تقريرها فى ذلك وطبعته الوزارة وأذاعته .

---

(١) تألفت هذه اللجنة من حضرات الأساتذة : الدكتور طه حسين بك ، وأحمد أمين بك ، وعلى الجارم بك ، ومحمد أبو بكر ابراهيم ، وابراهيم مصطفى — صاحب إحياء النحو — وعبد المجيد الشافعى وقدمت رأيها فى تقرير طبعته الوزارة ، وعليه نعتمد فى هذا النظر ، وإلى صفحاته نشير .

. وىما نحمده لهذه اللجنة ، أنها تمثلت حاجة الأمة اللغوية تمثلا واضحاً إذ قالت : « ولن تكون اللغة العربية الفصحى ، لغة حية خصبة حقاً ، إلا إذا شاعت بين الناس على اختلاف طبقاتهم وأصبحت أداة يصطنعونها لتأدية أغراضهم المختلفة ، فى يسر وإسماح وفى غير مشقة وجهد » — ص ٤٢ س ٨٠٧ .

وثانى ماتحمد لها أيضاً ، اهتمامها بالعامل الاجتماعى الذى يزيد من صعوبة تعلم العربية واستعمالها على الوجه الذى رأته اللجنة إذ قالت : « ... لأن الشباب لايتعلمون هذه اللغة كما يتعلم الشباب فى الأمم الأخرى لغتهم . هم لايسمعونها فى البيت ، وهم لايسمعونها فى البيئة التى تحيط بهم ، ثم هم لايسمعونها فى المدرسة إلا أثناء درس اللغة العربية » ص ٢ س ٢٠ — وحين قالت : « ... ويجب أن نلاحظ أن الشباب الانجليزى أو الفرنسى إنما يحسن لغته ، ويتقن النطق بها والتصرف فيها لأنه يسمعها صحيحة فى البيت وخارج البيت . ويسمعها صحيحة فى المدرسة بنوع خاص ، فقد تتأثر لغة البيت ولغة الشارع ، ببعض اللهجات العامية ، وقد يكون لهذا تأثير فى لغة التلميذ ، ولكن المحقق أن اللغة الصحيحة وحدها ، هى المسيطرة على التعليم الحديث داخل المدرسه ؛ والشاب الفرنسى أو الإنجليزى لايسمع اللغة الصحيحة فى درس اللغـــة الفرنسية أو الإنجليزية فحسب ، ولكنه يسمعها فى درس التاريخ والجغرافيا ، وفى درس الطبيعة والكيمياء ، وفى درس الرياضة أيضاً . » ص ٣ س ١٧ ومابعده —

ومن تقدير اللجنة للعامل الاجتماعى فى صعوبة تعلم اللغة العربية واستعمالها ، ما أشارت إليه كذلك من مزاحمة اللغات الأجنبية للغة الوطنية ، فى عقول الصبية وأذواقهم وذاكرتهم ، ومارأته من أن التعليم الإبتدائى يجب أن يخلص للغة الوطنية ، فلايسمع الصبى فى المدرسة الإبتدائية غيرها — ص ٤ س ٣ وما بعده — . كما قررت أهمية الاعتبار الاجتماعى فى حياة اللغة الوطنية بقولها كذلك : « ولنسجل أننا على إكبارنا لخطر النحو والبلاغة ، لانغتر بأثر هذا التيسير ، ولانراه السبيل الوحيد إلى إحياء لغة وإشاعتها ، وتمكين التلاميذ من أن يمنحوها ماينبغى أن تمنح اللغة الوطنية ، من الحب لها والإقبال عليها ، وإنما هو سبيل من هذه السبل ، يجب أن نأخذ بأسبابه ؛ ولكن يجب ألا نكتفى به ونقصر جهدنا عليه . » ص ٥ س ١١ ومابعده .

والحق أن لهذا العامل الإجتماعى دائماً خطره فى اللغة العربية وعلى اللغة العربية أيضاً طوال حياتها ، كما هو الشأن الاجتماعى للغات فى الحياة دائماً . ومن هنا ما أشرت إليه قريباً من ضرورة بحث أثر هذا العامل فى حياة علوم العربية ومناهجها ، ولكن هذا العامل الاجتماعى مهما يكن خطره فى الإقبال على تعلم الفصحى والنشاط لاستعمالها ، قد كان له منذ القدم أثر أشد خطراً فى أبناء العربية نفسها ؛ وقد خلف فيها صعوبات ذاتية هى التى نحاول تذليلها اليوم تذليلا عملياً ، مع تقديرنا أن الاهتمام الإجتماعى بهذه اللغة فى الحياة ، مؤثر كبير جداً فى التغلب على هذه الصعوبات ، إذا خف ما بها من تعقد جوهرى ، وصعوبات أساسية سنصفها فيما بعد .

* * *

والآن وقد حمدنا من نظرات أصحاب هـــذا التيسير ما حمدنا ننظر فيما وراء ذلك منه فنرى .

١ — أن أصحابه يقولون : « وقد شرط علينا القرار الوزارى ، وشرطنا نحن على أنفسنا ، ألا ينتهى بنا حب التيسير إلى أن نمس من قريب أو بعيد أصلا من أصول اللغة أو شكلا من أشكالها » ص ٥ س ١٥ — فنقول لهم : هبوا أن القرار الوزارى — لاعتبار سياسى أو نحوه — قد شرط عليكم ألا يمس التيسير والتبسيط أصلا من أصول اللغة ولا شكلا من أشكال الإعراب والتصريف ، كما قال ؛ فهل ترونكم — وأنتم المكابدون المعانون لهذه الآلام - تنزلون على ذلك وتلتزمونه ؟.. لقد أثرتم الناحية الإجتماعية وما إليها ، وأفسحتم لها من صفحات تقريركم ما يزيد عن ثلثه ، ثم قلتم : « وقد أطلنا فى هذه الأشياء ، مع أنها ليست من جوهر المهمة التى كلفنا النهوض بها ، لنشير بما نرى أنه الخير من جهة الخ » ص ٥ س ٩ — ١٠ — فكنتم بالقياس على هذا ، بل بالإخلاص للعمل الذى أنتم أهله الأولون ، خلقاء بأن تشيروا بما فيه الخير ، من عدم التحرج من المساس بشكل من أشكال الإعراب والتصريف ، ومن وجوب النظر فى الأصول نفسها لعل فيها ما ينتفع به دون مساس ولا تغيير !! بل كنتم — فيما أومن به — خلقاء بأن تشيروا أن المسألة من الأهمية والخطر الاجتماعى ، بحيث تحتاج إلى النظر المستأنف فى هـــذه الأصول نفسها . . . لــكنكم فعلتم عكس ذلك ، فحين شرط عليكم القرار ألا تمسوا فقط ،

زدتم أنتم فقلتم : وشرطنا نحن على أنفسنا ألا نمس من قريب أو بعيد... ذلك ما لا أرتاح إليه من حذركم ولا ألتزمه إن شاء الله، وإن كنت مستغنياً فعلا عن المساس، لأنا لا نعرف لهذا النحو تلك القدسية، وليس عنا يعرفها الناس له !! على أنا سنرى فيما يلي أن اللجنة لم تهيب هذه المساس بل أقدمت على غير شيء منه... وإن كان أعضاؤها رغم كل شيء قد غلبهم حب الحياة والتجدد. فعدوا عملهم خطوة معتدلة موفقة فى هذا التيسير، قد تتاح بعدها خطوات أدنى إلى التوفيق وأقرب إلى الكمال — ص ٢ س ٣ —

= = =

وننظر فى اقتراحات اللجنة التى رأت أن فيها تيسير النحو، فنرى ما يأتى :

(١) أنها ترى : «وجوب الاستغناء عن الإعراب التقديرى والإعراب المحلى — ص ٧ — ولكن. ما التيسير فى هذا ؟! أن الكلمات التى فيها هذا الإعراب من المقصور والمنقوص، والمضاف لياء المتكلم، والمبنيات ليست مصدر الصعوبة على القارىء أو المتكلم، لعدم تغير الحركات عليها باختلاف مواضعها، بل ليت اللغة كانت كلها من هذا الصنف، إذن لزالت الصعوبة الأساسية.

ثم إن بيان هذا الإعراب التقديرى والمحلى، بقدر ما يعرف متعلم العربية، أجزاء الجملة لا بد منه لفهم المعنى، كما أنه لا بد من معرفة موقع الإعراب للكلمة التى لم تظهر عليها الحركة ليمكن ضبط تابعها بعدها، فمن يقول : جاء الفتى، لابد له أن يعرف موضع الفتى من الإعراب ليقال بعد ذلك : الأبيض أو الطويل الخ — ودع عنك فوق هذا ما لابد منه فى فهم معنى بناء الكلمة، من معرفة أنها وقعت فى موضع تغيير الآخر بكذا ولم تتغير. فكل الذى يمكن الإستغناء عنه هو الأخذ بالرواسيم والصيغ المتحجرة، فى بيان هذا الإعراب التقديرى أو المحلى، وتلك مسألة شكلية يكفى فيها أيسر لفت للمعلمين !!.

٢ — رأت اللجنة عدم التميز بين علامات إعراب أصلية وأخرى فرعية، فلا تقول إن الأسماء الخمسة معربة بالواو أو الألف أو الياء نيابة عن حركة كذا. بل هى مرفوعة بضمة ممدودة. منصوبة بفتحة ممدودة، مجرورة بكسرة ممدودة ... وفى هذه الفقرة من قرارها : قسمت اللجنة الأسماء بحسب ما تظهر فيه الحركات كلها أو بعضها، وجعلت بين هذه الأقسام أيضاً ما تظهر فيه ألف ونون، أو ياء ونون، أو واو ونون، وعدت

من كل أولئك أقساماً سبعة ، ثم تقول بعد هذا كله ، إنها تقرر عدم التمييز بين علامة أصلية وأخرى فرعية .

وتنظر[١] فى هذا الصنيع ، فترى — فيما يخص الأسماء الخمسة ، والحركات الممدودة فيها ، ليس فيه شىء من التيسير مادمنا نفهم مع النفسيين وأهل التربية ، أن اللغة إنما هى الأصوات ، لاصور الأصوات ، فهنا قد وجد صوتان : ضمة قصيرة ، وأخرى طويلة . سواء أصورتها بواو ، أم بممدود الضمة ، فهى صوت مغاير للأولى ، وقد وجد التعدد وتغيرت الأحوال والقواعد على المتعلم .

ثم إنها فيما عدته من أقسام حسب ظهور الحركات على الكلمات ، فى الأحوال جميعها — أو فى بعضها — قد عدت فيما قلنا سبعة أقسام بالأسماء الخمسة ، فكثرت عما فى القديم ، إذ كانت تعد الياء حالة مشتركة فى المثنى وجمع المذكر ، ثم ما التيسير فى هذا وقد ذكرت علامات متعددة ، هى حيناً حركات ، وحيناً حروف ، وحيناً حركات بدل حركات كما فى الممنوع من الصرف — ولعل فى النص على النيابة راحة ذهنية . على أن القدماء الأولين لم يجعلوا النص على النيابة أمراً هاماً يجب ذكره ... فليس فى هذا العمل كله تيسير .

٣ — قالت اللجنة « جعل النحاة لحركات الإعراب ألقاباً ، ولحركات البناء ألقاباً » ص ٨ » لكنك تجد أن ليس النحاة — استغراقا ولا عهداً — قد جعلوا ذلك ، بل هو جعل سيبويه ، والكوفيون يخالفونه[٢] — وقد عادت اللجنة نفسها أخيراً فقالت « ومن النحويين من لم يلتزم هذه التفرقة » . وكانت تحسن لو قدمت هذا .. وأخذت به . وفى كل حال ، انتهت اللجنة إلى أن ترى أن يكون لكل حركة لقب واحد فى الإعراب والبناء ، وأن يكتفى بألقاب البناء . . .والأمر أيسر من أن يوقف عنده كما ترى .

---

(١) فى هذه الأسماء الخمسة ، مسألة منهجية أخرى هى أن هذا الرأى فى إعرابها بممدود الحركات ، قديم أورد بين اثنى عشر رأيا فى تفسير هذا الإعراب لتلك الأسماء ، فاذا ماأريد ترجيحه على غيره نظريا وجب ابطال ما عداه ، أو وجب على الأقل ترجيحه على ماعداه بشىء ، أو وجب على أقل الأقل ، رد ما أورد عليه من اعتراضات ، ولم تتكلف اللجنة شيئا من ذلك كله ، فست أصول البحث والتفكير ، وهى التى شرطت على نفسها ألا تمس من قريب أو بعيد ، شكلا من أشكال الإعراب والتصريف .

(٢) شرح المفصل جـ ١ ص ٧٢ .

٤ — حاولت اللجنة ضبط الجملة بأصنافها تحت تقسيم واحد . ينتظم الفعلية والاسمية، والجملة الصغيرة والكبيرة . وهو صنيع إن ساغ فى المنطق ، لأنه يبحث فى المعانى والمفاهيم، ولا شأن له بالألفاظ مطلقاً . . أو قُبل فى البلاغة، لأنها تبحث عن حسن المعانى ، وتعرض للألفاظ بهذا المقدار ، فلعل هذا الصنيع — على ما يبدو لى — لا يسهل فى النحو ، لأنه يتحدث عن الصحة واستقامة المعنى الأول . وفى هذا يطيل الوقوف عند الألفاظ ، ويلحظ فيها أدق الفروق ، فيتحدث مكرهاً عن الفاعل ونائبه والمعنى فيه . والمبتدأ والأحكام اللفظية لكل منهما ، لا مفر . على حين قد ينضمها كلها البلاغى أو المنطقى تحت اعتبارات جامعة ، فيسميها مسنداً ومسنداً إليه . وفى كل ، صنعت اللجنة فى هذا السبيل أشياء فيها محل للنظر فهى مثلا :

٥ — قالت إن تسمية طرفى الجملة ، المحدث عنه والحديث اصطلاح جديد ، ولكنه قديم يعرفه من اتصل بأوائل كتب النحو ، وأحياناً يجده فى أواسطها ، فى مواضع من المفصل .

٦ — آثرت تسميتهما — كالمناطقة — المحمول والموضوع ، على ما فيه من اعتبار معنوى ، بعيد عن عقل المتعلم .وعن طبيعة الدرس اللغوى التى تلتزم الالفاظ،والظواهر الحسية لتدل بها على المعانى ، وفى كل حال ، حاولت ضبط إعراب الطرفين ، فارتكبت صعوبات لا تطرد ، وليس فيها يسر فهى مثلا :

٧ — تقول : « إن المحمول يكون ظرفاً فيفتح ، ويكون فعلا الخ . . . ويكتفى فى إعرابه بأنه محمول — ص ٩ » — وعادت فى ص ١٠ فقالت « يخلو الفعل فى زيد قام من الضمير ، وأنه المحمول » ولا نقف عند خلوه من الضمير أو تحمله إياه . . . ولكنا نسأل كيف يعرب الفعل فى قام محمد ؟ . وهل سيترك القول فى بنائه وإعرابه ليطرد إعرابه خبراً فى محمد قام دون بيان حال آخره ؟ وهل ترك المسألة مرسلة هكذا ، يكون تيسيراً للصعوبة أو هو فرار ، منها ؟

قالت اللجنة فى المطابقة بين الموضوع والمحمول . « إذا كان الموضوع مؤنثاً كان فى المحمول علامة التأنيث » وهذا يصح فى الجملة الصغرى أما فى الجملة الكبرى فلا — إذ تقول : اللجنة أصاب رأيها ، وحسن حظها — فيكون المحمول فى أصاب وحسن ، ناقصاً

للقاعدة . وإن قلنا معهم — كما فى ص ٩ س ٥ — أن الخبر الجملة يكتفى فى إعرابه بأنه محمول ، فهذا خبر جملة ، وجب فيه التفصيل فى الإعراب ليعرف أن المطابقة فيه بين حسن وفاعله ، لا بين حسن واللجنة التى هى مبتدأ . ثم فيه بعد ذلك الربط بين جملة الخبر ومبتدأ لها لا بد من مراعاته ؛ ففى المسألة تعقيد ونقص ، لا يسر ، إلا أن يكون التيسير بالإغفال والانقاص . . .

٩ — قالت اللجنة : « إذا كان المحمول متأخراً لحقته علامة العدد التى توافق الموضوع وإذا كان متقدماً لم تلحقه — فيقال : الرجال قاموا وقام الرجال . ونصت على أنها أخذت فى ذلك برأى المازنى الذى يقول : الواو للذكور والنون للإناث ، والألف للمثنى ، والتاء للواحدة ، علامات لا ضمائر — ص ٩ س ١٦ — وبذلك زادت اللجنة شيئاً جديداً على الضمير ، هو علامة العدد التى اختارتها ، ولكنها أهملت فى هذه العلامة دلالتها على الجنس ذكورة وأنوثة ، وعلى الحال حضوراً وغيبة وخطابا ، ولم تستفد شيئاً إلا ترك إعرابها . ولو اكتفت بإعرابها فاعلا دون تفصيل لكان أيسر ، وهو ضرورى لأنها مضطرة إلى بيان الخبر الجملة فى نحو المثل السابق ، هذه اللجنة أصاب رأيها ، لتعلم الدارس أن المطابقة فى الجملة الخبرية ، بين جزأيها ، لا بين جزء منها ، وبين الموضوع أو المبتدأ التى هى خبره .

« وتقول اللجنة فى هذا المقام — ص ٩ س ١٨ — » أنها بتقسيم الجملة إلى محمول وموضوع ، وجعل إشارات العدد علامات ، يسرت الإعراب ، ونائب الفاعل ، وقللت الاصطلاحات . وجمعت أبواب الفاعل والمتبدأ ، وإسم كان ، وإسم إن — فى باب الموضوع — وجمعت أبواب خبر المبتدأ ، وخبر كان وخبر إن ، فى باب واحد هو المحمول — وخففت برد باب ظن إلى الفعل المتعدى .. وحسن هذا لو كفى ، ولكنك تسألها : سيبقى بعد ذلك أحكام لكل واحد من هذه الأشياء فأين ستدرس ؟ فهناك مثلا ماينوب عن الفاعل ، مما لا يصلح فاعلا ، وهناك مطابقة الفعل للفاعل وجوبا وجوازاً وصحة تعبير وخطأ ، وهناك حذف المبتدأ وجوبا ، وتقديمه وجوبا ، واستغناؤه عن الخبر ، وحذف الخبر وجوبا ، وتقديمه كذلك — وهناك حذف إسم كان وخبرها وترتيبها معهما — وهناك فتح أن مثلا وكسرها . وتخفيفها — فهل ستبحث هذه الأشياء

فى باب المحمول والموضوع دون أن تسمى ؟ وكيف يكون ذلك ؟! وإذا بحث فى موضوعات مستقلة. فماذا صنعنا ؟ وإذا تركت فماذا صنعنا ؟ وهلا كان الأولى أن تكون النواسخ وأحكامها، مع المبتـــدأ والخبر بعد استيفاء أحكامهما الخ ؟ ! والحق أن الصعوبة ذاتية. ليست شكلية. يدفعها ضم باب إلى باب. وإدماج مسألة فى أخرى.

ونكتفى بهذا فى التعليق على أمهات الاقتراحات التى قدمتها اللجنة، وننظر فى محاولة أخرى. حاولتها بعد الذى اعتبرته ضبطا للجملة، وتلك هى :

١٠ — أنها جعلت بعد الجملة وتكملتها ما سمته الأساليب — ص ١٠ — ورأت أن توجه العناية فى درس هذه الأساليب، إلى طرق الاستعمال، لا بتحليل الصيغ — ص ١١ — وقد يفهم هـذا فيما مثلت به من التعجب ، والتحذير والإغراء ، ولكنها جعلت من الأساليب الاستثناء — ص ١٣ — فكيف يدرس هذا الاستثناء بطريق الاستعمال، وأدواته : أفعال ، وأسماء، وحروف . وأحكام كل منها كما نعرف كثيرة منتشرة لا يأتى عليها عرض . بل هو — إن كان — يتسع اتساعا . خير منه درس الأحكام . وكذلك لا تغنى هذه الشكلية فى علاج صعوبة ليست فى صناعة النحويين. بل فى بناء اللغة نفسها . وفى سعتها . وفى أشياء أخرى من طبيعتها . هى التى نعرض لأهمها حين نتحدث عن :

## — ٩ —

## « صعوباتنا اللغوية اليوم »

ونكرر الإشارة هنا . إلى أهمية العامل الاجتماعى . فى تخفيف هذه الصعوبات . أو فى زيادتها أحيانا . وقد تنبهت اللجنة إلى هذا العامل . وأشارت إليه . على ما مر — ونكرر هنا موعدتنا بأن نجعل هذا العامل الاجتماعى موضع البحث . حينما نعرض لدراسة المنهج النحوى نظريا وتاريخياً .

أما هنا . فهدفنا — كما قلنا — عملى قريب . ولجنة التيسير قد قدمت بين يدى اقتراحاتها

ما رأته أساس الصعوبة فى النحو . ولكنى أخرت الحديث عن رأيها فى ذلك إلى ما بعد النظر فى قراراتها ، ليسهل تقدير نظرها فى هذه الصعوبات ، بعد فهم مدى تيسيرها وأثره .

وعند اللجنة : أن أهم ما يعسر النحو على المعلمين والمتعلمين . ثلاثة أشياء :

الأول : فلسفة حملت القدماء على أن يفترضوا ويعللوا . ويسرفوا فى الافتراض والتعليل .

والثانى : إسراف فى القواعد ، نشأ عنه إسراف فى الاصطلاحات .

والثالث : إمعان فى التعمق العلمى ، باعد بين النحو وبين الأدب ، ص ٥ — ٦ .

* * *

وننظر فى هذه الأسباب فنجد أن : فلسفة القدماء فى النحو لها نظائر فى الدراسات اللغوية عند الأمم المختلفة ، وليس العيب فى التفلسف ، وإنما العيب أن يكون التفلسف فى الكتب المدرسية التعليمية ، على أنا مع هذا قد رأينا ، أن ما برمت به اللجنة من آثار هذه الفلسفة ، لم يكن موضع عناية ... وكانت ملاحظة حازمة من أحد المفتشين تكفى فى وقاية شره ، كما أشرنا فى الإعراب التقديرى والمحلى ، وألقاب الحركات ، وما فيها من مظاهر هذه الفلسفة .

وأما الإسراف فى القواعد ، وما نشأ عنه من إسراف فى الإصطلاحات فقد رأينا من اقتراحات اللجنة نفسها ، أن الذنب فيه ليس ذنب النحويين ، لكنه شىء اقتضته أو اقتضت أكثره طبيعة اللغة وسعتها ، وأشياء فى كيانها ؛ نوفيها فى البحث النظرى بعد .. وآية ذلك ما رأيناه من عدم استطاعة اللجنة نفسها التخلص من شىء يذكر فى هذه الاصطلاحات ؛ إلا بترك الموضوع ، وإغفال واقع اللغة ، ونقص ما يعرفه منها المتعلم .

وأما المباعدة بين النحو والأدب ، فشىء يتصل بطريقة الدرس وخطته الفنية ، ويكفى فيه — كما أسلفنا — توجيه حازم من الرقابة على المدرسين ؛ ثم إن الوصل بين النحو والأدب لا يؤثر فى كثرة القواعد ؛ ولا فى تشعب الاصطلاحات ، وإن هون فى تجرعها ، وخفف بعض وقعها على المتعلمين ؛ لكن الأزمة بعد ذلك كله باقية .

* * *

والذى يبدو لى أن اللجنة . بعد مابدأت فى تقريرها بالنظر إلى الناحية الاجتماعية والاهتمام بها عادت إلى صعوبة النحو ، فى القواعد ، وفى المعلمين تاركة الحياة الواقعة وأثرها فى ذلك كله . . ولو ظلت تنظر إلى المشكلة من حيث صلتها بالحياة . لرأت — فيما أرجح — غير هذه الأسباب ، ولبدا لها أن أسباب هذه الصعوبات فى الحقيقة إنما هى ثلاثة أخرى .

الأول : أننا نعيش بلغة غير معربة ولاواسعة ، حين نتعلم لغة معربة ، وافرة الحظ من الإعراب ، واسعة الآفاق مع ذلك .. فكأننا بهذا نتعلم لغة أجنبية وصعبة ، إذ أننا نعيش ونتعامل ، ونتفنن ، بل يفكر مثقفونا ، بهذه العامية . . . ثم هاهى ذى العامية تتابع زحفها الجرىء ، على مجال حياة تلك الفصحى ، فقد اعترف بها رسمياً فى بلاط صاحبة الجلالة الصحافة ، كما قبلت على المسرح ... وهى بهذا ومثله من الانتصار المتصل ، تحرج العربية وتنفث حولها جواً نفسياً وعملياً مسمما .

الثانى : أن هذه الفصحى الواسعة المعربة ، مع ثقل إعرابها علينا ، لا تسهل ضبطه بقاعدة ، بل يسوده الاستثناء ، فتتعدد قواعده ، وتتضارب ، فالفتحة تنصب وتجر ، والكسرة تجر وتنصب ، والحذف يعرب ، والاثبات يعرب ، والسكون يبنى ويعرب ، والفتح ، والحركات كلها كذلك . والياء تنصب وتجر ، وو . . . الخ ما نعرفه من هذه المتقابلات ، التى تجعل التلميذ يعرف الاعراب وحركاته ، ثم إذا هو يقرأ حواراً فيه اثنان ، ومؤنثات ، ومذكرن ، فلا يجد فى الحوار إلا خلاف ما عرفه من حركات الإعراب ، وهكذا يرتبك ويرى أن المدى بعيد ، والأزمة شديدة . . وهذا السبب هو ما سميناه اضطراب الاعراب .

الثالث : أن هذه الفصحى ، فيما وراء إعرابها المضطرب ، وسعتها ، وانتشار قواعدها ، باختلاف الكلمات ، تعود فلا تستقر على حكم وقاعدة فى الكلمة الواحدة ، أو التعبير الواحد ، فيجوز فيه النصب والجر ، أو يجوز فيه الرفع والنصب والجر جميعاً . . . وهكذا يتمادى الاضطراب ، ويزداد التزعزع فى الكلمات المختلفة . ثم فى الكلمة أو التعبير الواحد بنفسه ، وهذا هو اضطراب القواعد .

تلك هى الصعوبات الثلاث ، أو بالأحرى هى أظهر هذه الصعوبات . . وبالنظر فى كنه هذه العقبات وحقيقتها ، يمكن البحث عن :

## — ١٠ —

## تدبير لحل هذه الصعوبات

ويتضح جلياً ، أنها كلها فى جسم اللغة وكيانها ، فالإعراب طابعها ، واضطراب الأعراب صدى تشعبها .. واضطراب القواعد وتعدد الآراء فى الكلمة والتعبير الواحد ، من سعتها وتفرقها .. وكلها عقبات فى سبيل التعلم ، تكد الطاقة الحيوية ، للتعلم الناشئ . بل هى تحول بينه وبين التمثل الواضح لهذه اللغة ؛ فيظل كبارنا يعانون من ذلك بلاء مخزياً ، ويبذلون جهداً ضائعاً وما أشك فى أن الموظف الكبير الذى كان يذيع فى الراديو فيقول : بدا لوزارةُ كذا بالضم قد تعلم اللغة العربية ، بل تعلمها بضعة عشر عاما ، واضطرب فى ذهنه خلالها ، جر الكسرة ، وجر الفتحة . . أو اضطربت فى ذهنه أشياء متدافعة متعارضة يلقاها بنفس منصرفة بل كارهة وحانقة ، إن لم تكن وراء ذلك محتقرة مشمئزة . وثائرة متمردة .

وإذا ماقدرنا أن هذه العقد جوهرية ذاتية ، فقد بدا أن حلها يمس الجوهر والكيان لابد ، ويحتاج إلى عمل جراحى أو مايشبهه ، وإلا فتلك الحلول السطحية ، والمسكنات الظاهرية ، لاتحدث أثراً يذكر ، ولا تسعف الفصحى فى صراعها مع العامية ، بسلاح ولا ذخيرة .. ولا يعلم إلا الله مايكون المصير إذا جمحت جامحة اجتماعية ، تقول بالحرية المسرفة التى سمعنا صدى صوتها فى الجيل الماضى ! ! !

فاذا ما كان هذا العمل الجوهرى الذى نرجوه ، سيجرى بمباضع معروفة من أصول نحاتنا ، فقد أعان الفصحى على مرضها ، وأثبتت أن لها من الحيوية مايخلصها من هذه الأزمة الخطرة ، وذلك — ولا مراء — خيرلها وأجدى عليها ... ونحن بعون الله محاولون هنا أن نستعمل تلك الأسلحة نفسها ، وأن نستعين على علاج العربية بحيويتها هى ، لا بنقل دم ، ولا إعانة بغريب عن جسمها أو عن نظامها .

***

وعلى هذا الاساس ، سنجد أنه لا يدلنا بعمل يمس العقدة الأولى وهى الإعراب ، فسندعها هنا كما هى . وتبقى العقدتان الأخريان ؛ وهما مانأمل أن نصل فيهما إلى شىء تخف به تلك المصاعب ، على مستعملى هذه اللغة فى حياتهم ، من غير المختصين بدرسها ،

والمتعمقين فيها . فإنما نريد أن يجد الشخص العادى إذا تعلم مايزيل أميته ، ثم المتخصص فى غير اللغة والأدب ، من طبيب ، ومهندس ، وعالم طبيعى ورياضى ، ومن إليهم . نريد ليجد هؤلاء جميعاً ، وتجد الصحافة والتحرير على اختلاف صوره ، والتعامل على تنوع طرقه ، لغة أقل عقداً فى اضطراب الأعراب وفى اضطراب القواعد ، قدر ماتستطيع أن تسعفنا به الأصول النحوية التى سنعتمد عليها لاعلى غيرها .

وأعرض عليكم الآن الأساس العام لهذا التدبير ، ثم أعرض تطبيقه على العقدتين الباقيتين ، واحدة فواحدة . فإليكم :

— ١١ —

## الأصل العام لهذا الحل

وهو أن ندع النحاة وآراءهم وقواعدهم ، ونمضى إلى ماوراء ذلك من أصولهم التى ستخرجوا منها هذه القواعد ، فنحاول بحسب استعمالهم هم لها ، وكما دلوا على هذا الاستعمال — ، وعلى رغم ما لنا من اعتراض على هذه الأصول — أن نرجح من منقول اللغويين ، ومرويهم فى اللغة ، أوجها تدفع هذه الصعوبات ، وتقلل هذا التعدد ، وتغنى المتعلم عن بذل جهد عنيف . . فالذى سنختاره من الأوجه ، عربى عربى منقول ، مقرر فى أصولهم الاحتجاج به ، لكنا سنلاحظ فى اختياره اعتبارين :

١ — تقليل الاستثناء . اضطراب الإعراب ما استطعنا إلى ذلك سبيلا .

٢ — اختيار ما هو بسبب من لغة الحياة والاستعمال عندنا . فإن لنا فى عاميتنا إعرابات بالحروف مثلا ، قد نطمئن إلى إن لها أصلا عربياً . بل هذا ما قد يرجحه البحث أو يثبته . . وفى كل حال فإن أنسنا بها وألف المتعلم لها ، فى لغة البيت والشارع سيجعل الوجه الذى تختاره من الفصحى قريبا من أنفسنا سهلا ، لاجدة فيه ولا إعنات . وسنجد التمثيل لهذا فى موضعه حين نعرض له قريبا .

وتلك هى المرحلة الأولى التى نعتمد فيها على أصول النحاة بنصوصها . وبما قرروا فيها حل استعماله بلا لوم فيه علينا . ولا إنكار منهم . كما تسمعون نص عباراتهم فى هذه الإباحة ، إذ يقولون :

١ — كل ماورد أن القرآن قرىء به جاز الاحتجاج به فى العربية . سواء أكان متواتراً، أم آحاداً، أم شاذاً ؛ وقد أطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذة فى العربية . إذا لم تخالف قياساً معروفاً ، بل ولو خالفته ، يحتج بها فى مثل ذلك الحرف بعينه ،وإن لم يجر القياس عليه ، كما يحتج بالمجمع على وروده ومخالفته القياس فى ذلك الوارد بعينه ، ولا يقاس عليه نحو استحوذ . . . الخ .

ثم يقول ناقل هذا إن ما ذكرته من الاحتجاج بالقراءة الشاذة ، لا أعلم فيه خلافا بين النحاة ، وإن اختلف فى الاحتجاج بها فى الفقه ، ومن ثم احتج على جواز إدخال لام الأمر على المضارع المبدوء بتاء الخطاب بقراءة — فبذلك فلتفرحوا — كما احتج على إدخالها على المبدوء بالنون بالقراءة المتواترة — ولنحمل خطاياكم — واحتج على صحة قول من قال : إن الله أصله لاه ، بما قرىء شاذا وهو الذى فى السماء لاه وفى الأرض لاه [1] .

٢ — اللغات على اختلافها كلها حجة ؛ ألا ترى أن لغة الحجاز فى أعمال ما ، ولغة تميم فى تركه ، كل منهما يقبله القياس ؛ فليس لك أن ترد إحدى اللغتين بصاحبتها لأنها ليست أحق بذلك من الأخرى ؛ لكن غاية مالك فى ذلك أن تتخير إحداهما فتقويها على أختها ، وتعتقدأن أقوى القياسين أقبل لها ، وأشد أنساً بها ؛ فأما رد إحداهما بالأخرى . فلا ، ألا ترى الى قوله — ص — « نزل القرآن بسبع لغات ، كلها شاف كاف » ؟ . . هذا حكم اللغتين إن كانتا فى الاستعمال والقياس متدانيتين متراسلتين أو كالمتراسلتين ؛ فأما أن تقل إحداهما جداً ، أو تكثر الأخرى جداً ، فإنك تأخذ بأوسعهما رواية وأقواهما قياساً ؛ ألا تراك لا تقول : المال لك ، ولا مررت بك ، قياساً على قول قضاعة : المال له ولا مررت به . ولا تقول : « أكرمتكش » قياسا على قول من قال : مررت بكش ؛ فالواجب فى مثل ذلك استعمال ماهو أقوى وأشيع ، ومع ذلك لو استعمله انسان لم يكن مخطئا لكلام العرب ، فإن الناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطىء ، ولكنه يكون مخطئا لأجود اللغتين ، فان احتاج لذلك فى شعر أو سجع ، فانه مقبول منه غير منكر عليه . اه .

---

(١) بلفظه ، من الاقتراح ط الهند ص ١٤ — ١٥ .

وفى شرح التسهيل لأبى حيان «كل ما كان لغة لقبيلة قيس عليه»[1] . وهكذا كل قراءات القرآن حجة ، وكل ما كان لغة لقبيلة قيس عليه ، أى استعمل مثل استعمالها له ، والأخذ بالأقل استعمالا وشيوعا ، والأضعف قياسا ، سائغ عند الاحتياج اليه فى سجع

وكذلك منذ القرن الرابع الهجرى ، وقبل الجنون بالسجع ، يقول ابن جنى[2] : «فأما إن احتاج إلى ذلك فى شعر أو سجع ، فانه مقبول منه ، غير منعى عليه وكيف تصرفت الحال فالناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطىء ، وإن كان غير ما جاء به خيراً منه ... فهل ترون يا قوم أن جدوى هذا السجع ، خير من تخفيف بلايا هذا الاضطراب عن الصغار ، وخزايا الافتضاح عن الكبار ، على ما صرخت به وزارة المعارف قائلة : إن المعلمين والمتعلمين يبذلون جهداً كبيراً ووقتا طويلا فى تعليمها وتعلمها ، ولا يصلون بعد هذا كله إلى نتائج تتفق مع مايصرف من زمن وجهد » .. ومع ذلك إن قعد بنا الجمود إلى هذا الحد ؛ عمدنا إلى المحلل ، فوعدنا كم ووعدناهم أن نسجع عندما نستعمل مذهبا مخففا ، ولغة ميسرة ؛ ولله الأمر .

لكن اطمئنوا إلى أنا لن نلم بشىء يؤثر على الفصاحة ، مما ارتفعت عنه لغة قريش ، من عنعنة وكشكشة وكسكسة وتضجع وعجرفية وتلتلة . . الخ .

هذه أصول النحاة أنفسهم ومآخذ قواعدهم المنصوصة . ننظر بها فى تذليل مابعد صعوبة الإعراب فى الفصحى ؛ بادئين بالنظر فى :

## — ١٢ —

## اضطراب الإعراب

إذ كثرت فيما نعلمّ الاستثناءات فى الأفعال والأسماء جميعا ، فاتسعت بذلك الهوة بين لغة الحياة ولغة التعليم ووجدت الصعوبة .

وننظر فى هذه الاضطرابات وأقوالهم فيها فنرى :

ا — الأسماء البضعة — الخمسة أو الستة — والمشهور منها يعرب بالأحرف أو

---

(١) الاقتراح ءط الهند ص ٧٧ — ٧٨ ، وهو ملخص من الخصائص : ج ١ ص ٤١٠ — ٤١٢ وقد ردت العبارة الى أصلها فى الخصائص قدر الامكان ، فامتزج النصان .

(٢) الخصائص ١ : ٤١٢ .

بالحركات المطولة المشبعة .. اخ .. وهو فى كل حال يختلف عن معتاد الإعراب بالحركات القصيرة . والنحاة يعربونها بالحركة القصيرة المعتادة فيقولون « أَبُكُ » ... كما أنهم قد يجعلونها من المقصور الملازم للألف فى الأحوال كلها . . ومن بنى الحارث من ينطقها بالوجه الأول وهم الذين يقصرونها كذلك[1] .

وننظر بعد هذا فى لغة الحياة اليومية . فنجد أنها فى هذه الثلاثة المشهورة من تلك الأسماء — أب ، أخ ، حم — تنطق الأولين منهما بالواو دائماً ، وتجعل الحم مقصوراً بالألف دائماً . فلا نجد هذا الصنيع كله غريباً عن العربية ، إذ ينقل لنا من قراءات القرآن : « تبت يدا أبو لهب » [2] — ويقول الزمخشرى : « كما قيل على بن أبو طالب ، ومعاوية ابن أبو سفيان ، لئلا يغير منه شيء فيشكل على السامع . » — وكل قراءة حجة كما سمعنا . وابن قتيبة كما يلخص قوله ابن مطرف فى كتابه القرطين ١ ، ١٨٥ — يقول فى هذه القراءة : « فكأنه حين كنى به . قيل أبو طالب ثم ترك كهيئته وجعل الاسمان واحداً » . . والكنية كما نعرف قد تصدر بأخ كما تصدر بأب[3] . فللمسألة أصل ثابت يجعلنى أجرؤ على فرض أن ما ننطقه اليوم فى لغة الحياة له أصل عربى وربما يرجح هذا أن الشافعى — وقد أعاد تصنيف الرسالة بمصر وهذه النسخة هى التى بقيت بأيدى الناس [4] أملاها بمصر على تلميذه الربيع بن سليمان المرادى ، الذى ترك نسخة بخطه كما أيقن ناشرها [5] . — وفى هذه النسخة المصرية التأليف والاملاء يورد الشافعى « أبو » بالواو فى موضع الجر فيقول : عن سالم ابو النضر » [ ويشير الناشر الفاضل فى الهامش إلى ماسبق من قراءة [ تبت يدا أبو لهب . ومن قول ابن قتيبة — اخ ]

ومن هنا نستطيع أن نرجح أن إلزام أب وأخ الواو فى عاميتنا له أصل عربى وقد قرىء به فى القرآن . وكتب به فى مصر علم ... وأما الحم فقد قصرت بالألف دائماً وهى اللغة المعروفة فى حياتنا .. فهل تتوسعون فتجيزون فى تلك الأسماء ما جاز فى الكنية ،

---

(١) المفصل جـ ١ ص ٥٣ ، التصريح ١/٧٢ ، الأشمونى ١/٧٨ وغيرها .

(٢) الكشاف ٢/٥٦٩ ، الرازى ٨/٥٢٦ ، البيضاوى ٥/٩٩ ، وأبو السعود وغيرهم .

(٣) الصبان ١/١٢٦ .

(٤) مقدمة الناشر ، ص ١١ نقلا عن الرازى فى مناقب الشافعى .

(٥) مقدمة الناشر ص ١٧ .

فتبقونها بالواو دائماً فى أب وأخ ؟ . . . أولا ترون هذا التيسير فترفضون هذا التوسع ؟.. لكم ماتشاءون حين يجد بكم الجد فى هذا التيسير العملى . . . وهو غير بعيد لأنه لون من القياس الذى أسس النحاة عليه نحوهم . . وهم فى هذا الباب نفسه مثلا قد جاءهم نقلا تثنية أب على أبان فقاسوا على هـذا المسموع تثنية أخ على أخان ، وقالوا ينبغى أن يكون حمان كذلك [١] .

أما أنا فحسبى هنا فى هذه الأسماء أن تلزم الألف كالمثنى فتنتقل الأقسام .

ب — المثنى وماعلى صورته . يعرب بحرفيه الألف والياء وقد برم به حتى المحدثون الذين حاولوا أن يصلوا فى هذا الأعراب إلى أصول تطرد فقالوا : « إن باب التثنية فى العربية غريب[٢] » .. ومابنا أن نصحح هذا القول هنا ، أو نطلب فى تصحيحه كلمة أصحاب مقارنة اللغات ، وإنما أشرنا إليه لفتاً للصعوبة النظرية ، مع الاستثناء العملى فى الإعراب بالحروف .. ونحن نعرف — مع هذا — أنه قد قرىء فى القرآن : « إنّ هذان لساحران » على أنه مثنى بصورة المقصور ذى الألف دائماً ، وتأويله على غير هذا ليس بقوى ، وقد ضعفوه هم أنفسهم [٣].

وهذا القصر للمثنى فى الشعر ، وفى عبارات الحديث أيضاً ، ثم هذه القراءة التى نقرأ بها ، غير ما نعلمه لأبنائنا ، وكلها غير ما نستعمله فى الحياة من إلزامه الياء دائما ، وأحسب أننا لورجحنا القصر فى الأسماء الخمسة ، ثم رجحناه فى هذا المثنى نريح ونستريح . وأصولهم وقواعدهم تعطى هذا ، كما عرفنا . فى سهولة وقرب .

حـ — جمع المذكر السالم وما على صورته ، وهو يعرب بحرفيه ، الواو والياء لكنا مع هذا نقرأ فى متون النحو المشهورة غير هذا من إعرابه ، فابن مالك يقول : « وبابه ، ومثل حين قد يرد ذا الباب ، وهو عند قوم يطرد » . فيقول الأشمونى فى شرحه : « إن مجىء الجمع مثل حين عند قوم من النحاة ، — منهم الفراء — يطرد فى جميع المذكر السالم ، فيكون معربا بالحركات الظاهرة على النون ، مع لزوم الياء ولزوم النون فلا تسقط للإضافة » . ويبدو أن الزمخشرى من قبل ذلك يقول بهذا الطرد

(١) التصريح ١ : ٧١ .

(٢) إحياء النحو ١١٣ .

(٣) الصبان ١/٨٣ .

إذ أطلق العبارة فى المفصل [1] فقال : « وقد يجعل إعراب الجمع بالواو والنون فى النون ؛ وأكثر ما يجىء ذلك فى الشعر ، ويلزم الياء إذ ذاك » . فلعل هذه العبارة المطلقة تشير إلى ما عناه ابن مالك بقوله : « وهو عند قوم يطرد » . وان كان ابن يعيش يقيد هذا الإطلاق ويجعله فيما يجمع بالواو والنون عوضا عن نقص لحقــه ، وهو باب سنين ، فى قول ابن مالك . ويقول : « والشيخ قد أطلق ههنا ، والحق ما ذكرته » . ولكن عبارة ابن مالك وكثيرين من شراحه ــ وغير شراحه من النحويين [2] ــ واضحة فى أن من العرب من يجعل الإعراب فى جمع المذكر السالم ، وفى كل ما حمل عليه ، على النون ، ويسوقون لذلك الشواهد ، رغم تحكم ابن يعيش فى إطلاق الزمخشرى ، المؤذن بهذا الاطراد الذى ذكره ابن مالك . على أن هؤلاء الشراح ينقلون فى إجمال : أن الصحيح فى إجراء الجمع مجرى حين ، أن يقصر ذلك على السماع ولا يطرد . . . ونحن هنا ما يعنينا هذا التصحيح بعد ما اصطحبنا أصل النحويين فى استعمال الأقل والأبعد عن القياس ، وتسويغهم ذلك فى السجع ، ولكنا نظن أن قول الشراح فى القصر على السماع ، كقول ابن يعيش ، فى تقييده إطلاق الزمخشرى هذا الإعراب ، كلاهما نوع من الألف والميل إلى الشائع المستقر . لا يقوم على وجه ولا على حجة .

وبعد هذا الذى قدمناه ، ننظر فاذا نحن فى لغة الحياة . نلزم هذا الجمع الياء فى أحواله كلها ، ونستغنى كدأب لغتنا كلها ، عن علامة الإعراب . فهل هذه لهجة عربية أصلها إجراء جمع المذكر السالم مجرى حين ؟ . ليس هذا عندى ببعيد أبدا ، وإذا ذكرنا ما ورد فى التصريح عند الحديث عن إعراب جمع الذكور وما حمل عليه إعراب حين ، من قوله فى تعليل ذلك وتوجيهه « لأن باب الياء أوسع من باب الواو [3] » ، إذا ذكرنا هذا ونظرنا إليه . قدرنا أن هذه السعة فى باب الياء . قد تكون العامل الذى أغرانا فى مصر ، بإلزام هذا الجمع الياء دائما .

* * *

وبعد فاذا ما قدرتم يا سادة ، أنهم جوزوا تركيب اللغات ، وتركيب المذاهب ،

---

(١) شرح المفصل لابن يعيش ٥/١١ .

(٢) التصريح ؛ والتوضيح ١/٨٤ ، الهمع ١/٤٧ .

(٣) التصريح ١/٨٤ .

كما أوضح ذلك ابن جنى فى الخصائص ، حين عقد فصلا فى الجزء الأول لتركيب اللغات، وعقد فصلا فى الجزء الثانى الخطوط لتركيب المذاهب، وذكرتم معهذا أن الأصوليين — وهم أئمة النحاة فى أصولهم — قد جرى جمهورهم وجمهور الفقهاء على أخذ حكم المسألة الواحدة من أكثر من مذهب . إذا قدرتم ذلك كله : فهل تجيزون أن نجرى جمع المذكر السالم فى تعليمنا النحو . على هذه الياء التى بابها أوسع من باب الواو ، فنجعله بالياء فى كل حين . ونلزمه مع ذلك فتح النون تركيباً للغات أو المذاهب ؟ إن رأيتم ذلك فيها . وإلا فيكفى فى التيسر أن يكون بالياء دائماً كما نعرفه . وأن يعرب بالحركات على النون.

د — الجمع بألف وتاء . ينصب بالكسرة . حين يجر ما لاينصرف بالفتحه . وهى مقابلة متعبة . مهما يجهد الأقدمون فى الكلام عنها . ويلتمسوا لها علة[1] ويتعلق القدماء والمحدثون بأشياء فى توجيه هذه المخالفة فى الحالتين . والقول فى مثل هذه الأشياء باعتبارات نظرية عقلية يعد من الإخلال القبيح بالمنهج اللغوى . وهو مع ذلك قول متهافت تهافتاً واضحاً ، ألا ترونهم فى هذا الجمع بألف وتاء يحاولون حمله على جمع المذكر السالم فى الجر والنصب معاً بالياء . ويكدون ليخرجوا من هذا أصلا فى العربية مقرراً ؛ على حين أن جمع المذكر نفسه قد سمعنا قريباً أنه قد يطرد إجراؤه مثل حين فى الإعراب على النون مع الياء . كما أن من العرب من يلزمه الواو ويعربه على النون[2] كزيتون — فالأصل المقيس عليه نفسه . لم يسلم له فى العربية أمر مقرر . حتى يجهد المخلون بالمنهج اللغوى أنفسهم فى مثل هذه الأقوال ، ويضيعوا فيها وقتهم .

على أن هذا الجمع بألف وتاء . لم يسلم فيه للعربية أصل مقرر فى نصبه بالكسرة . فانك لتقرأ فى أكثر كتب النحو تداولا قولهم : وقد أجاز الكوفيون نصب هذا الجمع بالفتحة مطلقاً . أى سواء أكان جمعاً لما حذفت لامه أم لا [3] .

وأصولهم التى أكثرنا من الإشارة إليها تجيز الاستعمال ، وإن كان لابد من سجع لنصب هذا الجمع بالفتحة . سجعنا ، فذلك أهون من النصب بالكسرة والجر بالفتحة .

---

(١) الاقتراح ٤٨ « ويسميها علة معادلة » .

(٢) الهمع ١/٤٧ .

(٣) الهمع ١/٢٢ ، الأشمونى مع الصبان ١/٩٦ ، شرح المفصل ٥/٨ .

هـ — ما لا ينصرف . وهو كما نعرف يجر بالفتحة . ويجهد فى تعليله على غير طائل أولئك الذين يخضعون اللغة للفروض النظرية ، على حين هى ظاهرة اجتماعية ، يشرق بها الواقع ويغرب ، ويتيا من بها اللسان ويتياسر من غير ضبط ذهنى ولا قواعد نظرية . وما بنا هنا أن نصحح المنهج ولكننا نقول لهم : إن هذا الباب قد اضطرب أمره فى يد النحاة أنفسهم ، وقرروا وهن القاعدة فيـــه ، وقال قائلهم منذ بعيد : « إن حكم الإعراب لا يتخلف . . . أما حكم الصرف فإنه يتخلف عن العلة . ومنع الصرف سبب ضعيف ، إذ هو مشابهة غير ظاهرة بين الاسم والفعل »[1] ثم هم يجيزون صرف الممنوع فى الاختيار ، رعاية للتناسب واتساق اللفظ . وقد قرىء فى القرآن الكريم « وجئتك من سبأ بنبأ يقين — إنا اعتدنا للكافرين سلاسلا وأغلالا — ولا تذرن وداً ولا سواعاً . ولا يغوثاً ويعوقاً ونسرا . »

ثم ما لبثوا أن نقلوا أن العربية — فى وجه — لاتعرف منعاً من الصرف ، وحكى الأخفش ، لغة لبعض العرب ، تصرف ما لا ينصرف مطلقاً فى الاختيار . وقال : وكأن هذه لغة الشعراء لأنهم قد اضطروا اليه فى الشعر . فجرت ألسنتهم على ذلك فى الكلام[2] »... وأين أنتم يا قوم من لغة الشعراء ، ترحمون بها صغاركم وكباركم أيضاً ؟ إن فى هذا النص من تعليل الأخفش . ما كان خليقاً بأن يهدى النحاة قديماً وحديثاً . إلى المنهج اللغوى الصحيح ، حين يقدرون تصرف الألسن فى اللغات ، وجريانها بها . على نحو ما وصفوا من عمل ألسنة الشعراء . لا على نحو ما يتكلفونه من قواعد نظرية ! !

و — الاسم المنقوص : كالقاضى . واختلاف إعرابه بظهور النصب على يائه . وعدم ظهوره فى الجر والرفع ، فتحذف الياء فى المصروف . والنحاة مع هذا يقولون : إن من العرب من يسكن ياء هذا المنقوص فى النصب أيضا . وإن الأصح جواز هـذا فى السعة ، بدليل قراءة جعفر الصادق « من أوسط ماتطعمون أهاليكم » بسكون[3] الياء . وقال السجستانى بعد ما أجازه فى الاختيار : « إنه لغة فصيحة[4] » . وعدوه فى الشعر من

(١) شرح الرضى على الكافية .
(٢) الهمع ١/٣٧ والأشمونى ٣ : ١٨٠ .
(٣) الأشمونى والصبان ١/١٠٣ .
(٤) الهمع ١/٣٥ .

أحسن الضرورات[1] — وإذا كانت لغة فصيحة وقراءة قرآنية ، فقد صح أن نستعمل المنقوص دون « ال » بغير ياء فى الأحوال كلها ، ومع « أل » لا نظهر كذلك على يائه حركة فى الأحوال كلها ؛ فيكون اختزالا مريحا ، وإعرابا غير مضطرب ، ويستريح المتعلم من المنقوص وتحريكه ، استراحته من المقصور .

هذا مما فى الأسماء من اضطراب الإعراب .

وفى الأفعال من ذلك مثلا :

ا — الأفعال الخمسة ، أو الأمثلة الخمسة التى يجم الصغار أمام عدها ، وتثبت فيها النون فى الرفع ، حين تحذف مع النصب والجزم ، وقد ورد حذف هذه النون أيضاً ، عند الرفع فى النثر ، وقرىء بها القرآن ، فقرأوا :

« قالوا ساحران يظّاهرا » أى يتظاهرا . بدون نون ؛ وفى الصحيح : « والذى نفس محمد بيده ، لاتدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولاتؤمنوا حتى تحابوا » والأصل ، لاتدخلون ولا تؤمنون[2] . وقول عمر رضى الله عنه : « يارسول الله ، كيف يسمعوا ، وأنى يجيبوا ، دون نون . . وإذا لم تحتجوا بالحديث مع المحتجين فبحسبكم القرآن وقراءته ؛ وقد سمعنا قاعدتهم فى الاحتجاج بالقراءة ، دون خلاف بينهم فى ذلك ؛ وقد ورد هذا الوجه فى الشعر مثل قول القائل : « أبيت أسرى ، وتبيتى تدلكى » بدل « تبيتين وتدلكين » .. وبهذا قد انتهت أصولهم إلى حذف هذه النون رفعاً ، كحذفها نصباً وجزماً .

واسمحوا لى هنا أن أحدثكم عن شىء مما عاق انتفاع القوم بمثل هذه الأوجه فى تيسير اللغة للحياة ، ذلك أن السيوطى الذى ساق هذا فى كتابه « همع الهوامع على جمع الجوامع » يقول بعده : « ولا يقاس على شىء من ذلك فى الاختيار » فيردده الصبان فى حاشيته من قولة مطولة فى حذف هذه النون ، من الفعل المرفوع ، ويمضى على أن هذا لا يقاس عليه فى الاختيار كما قال السيوطى قبله ، مع أن الصبان نفسه ، بعد هذا بصفحتين ، عند ذكر حذف ياء المنقوص فى النصب على مابيناه ، وإيراد الأشمونى قول المبرد إن تسكين هذه الياء فى النصب من أحسن ضرورات الشعر ، يعلق صاحبنا فى

---

(١) الدرر للشنقيطى ١/١٠٣ — الأشمونى ١/٢٩ .

(٢) الهمع ١/٥١ ، الصبان ١/١٠٠ .

حاشيته قائلا: والأصح جوازه فى السعة بدليل قراءة جعفر الصادق : من أوسط ماتطعمون أهاليكم . » فلماذا كانت هذه القراءة دليل الجواز فى السعة على الأصح ، ولم تكن قراءة : « ساحران يظاهرا » دليـل جواز حذف النون فى السعة على الأصح ؟!! وإذا كان السيوطى قدنقل عدم القياس فى الاختياروهو يجمع ؛ لأنه لم يتكلف التحرى فلماذا عفل الصبان وهو يحشى ويعلق وينقد عما خطته يده قبل ذلك بقليل ؟!! وإن لم يكن لواحد منهما عذر ، لأن القاعدة كما نقلها السيوطى نفسه فى « الاقتراح » . هى الاحتجاج مطلقاً . وقد عقب عليها السيوطى بقوله عن نفسه : « وماذكرته من الاحتجاج بالقراءة الشاذة ، لا أعلم فيه خلافا بين النحاة !!! . . . أهو الألف والتقليد يصرف الشخص عن تأمل ماقرره ، ويرده عن استعمال حقه العقلى ؟ هو هكذا غالباً .

وأما قواعدهم فتخرج فى جلاء حذف نون الأمثلة الخمسة رفعا ونصبا وجزما . وهو تخفيف مريح . فيه اختصار أيضا .

ب — المضارع المعتل الآخر . ويحذف آخره فى الجزم . وقد قال بعضهم : إنه يجوز فى سعة الكلام ، وإن لغة بعض العرب إبقاء هذه الحروف مع الجازم[1] . وقد قرىء فى القرآن : « لاتخاف دركا ولاتخشى — أنه من يتق ويصبر » . وهذا القدر من القراءة القرآنية ، ومن أنه لغة كاف لابقاء الفعل المعتل دون حذف شىء منه رفعاً ونصباً وجزماً ، إراحة من الاضطراب الاعرابى ؛ وتكون المعتلات الأواخر . أسماء وأفعالا . باقية بحالها ، لا يعنت بها متكلم ولا كاتب .

* * *

تلك نواح من علاج صعوبة اضطراب الاعراب ، أضعها بين يدى الباحثين الصادقى الرغبة فى جعل اللغة مادة للتفاهم الحيوى . لايبذل فيه المتفاهم عناء وجهدا هو أحوج إلى أن يوفرهما لما يريد أن يقوله وينقله من المعانى والأفكار . ولا تنسوا ما كررته من أنى إنما أتحدث بهذا الى الذين ليس عملهم فى الحياة الاشتغال باللغة وأوجه إعرابها ، من سائر الطبقات العالمة والعاملة فى الشعب .

ثم ننتقل بعد ذلك إلى النظر فى الصعوبة الثالثة ، وهى : —

---

(١) السيوطى ، الهمع ١/٥٢ .

— ١٣ —

## « اضطراب القواعد »

إذ أن أساس القاعدة الضابطة، هو الاطراد والعموم ، الذى يهون به على الذهن تمثل الأصل الشامل : تمثلا يرجع إليه فى التطبيق والاستعمال . فإذا ما كانت القاعدة ذات شعب وصور . ثم ذات خلاف وآراء ، فقد فقدت أخص صفاتها فى الضبط الجامع . وانتشر الأمر ... واللغات بعامة قد تكثر قواعدها وضوابطها ، لعدم سهولة تركيزها . نظراً لما خلقته فيها المرونة ، ومسايرة الحياة ، ومطاوعة اللسان . من تغيير . على ما يتبينه من ينظر فى المنهج اللغوى نظراً محققاً . .

لكن لغتنا الفصحى فوق ما لها من هذه الكثرة فى القواعد . تزيد على ذلك بما فيها من اضطراب القاعدة فى الكلمة الواحدة أو التعبير الواحد ؛ لتعدد الصور والمذاهب والخلافات . التى تصل إلى حد التباين العجيب ؛ وحسبنا مثلا لذلك أن « لم » وهى شهيرة فى عمل الجزم الخاص بالأفعال ، على ما نعرف لا يتسق فيها ذلك ولا يثبت ، بل يتفرق فيها القول تفرقا يتناول كل احتمال ممكن . فهى أحيانا لا تجزم ، حملا لها على ما أو لا ؛ فيرفع الفعل بعدها ؛ ثم هى حينا تنصب فى لغة ، ويقرأ فى القرآن : « ألم نشرحَ » فيما نقلوا [١] . وتخريجاتهم لهذا النصب قد ضعفوها هم كما فى المغنى [٢] ؛ فيكون الفعل بعد لم : مجزوما ، أو مرفوعا ، أو منصوباً .. ولم يبق إلا أن يخرج الفعل عن ميزته فيجر بعد لم !!

وهذه الأحوال كلها ، تعلم فى كتب النحو ، التى يربى عليها معلمو لغة الأمة . فلا أقل من أن تزعزع تلك الاضطرابات صورة القاعدة وثباتها فى نفوس أولئك المعلمين !! وقدروا أن الأمر لا يقف عند وجود مثل هذه الآراء فى كتب النحو ، فيكون نقلا تاريخياً فقط ؛ بل نحن نجد هذا فى الاستعمال نفسه إذ نقرأ للشافعى — رضى الله عنه — فى الرسالة نحو سبعة عشر استعمالا لم يجزم فيها بلم ، منها بضعة عشر لم يحذف فى آخرها حرف العلة من المضارع المعتل .. فقال ( لم يرى ) ، ومنها بضعة مواضع لم

(١) الهمع ٢/٥٦ والأشمونى ٤/٤ .
(٢) مغنى اللبيب ١/٢٠٠ .

يحذف حرف العلة من المضارع الأجوف فقال : ( لم يحيل ) مثلا . [ وقد تتبعه الناشر الفاضل وأوردها فى فهرست الفوائد اللغوية ص ٦٥٩ ] . ولو قد نقلت إلينا النصوص القديمة المتحراة بكتابة عصرها ، لرأينا من أمثال هذه الظاهرة شواهد قوية - على فرق ما بين اللغة المستعملة ، وبين هذه القواعد التى اشتهر تعلمها ، ولاتضح تصورنا لواقع الحياة اللغوية ، تصوراً يجنبنا غير قليل من الأخطاء فى منهج درسها .

٭٭٭

ومابنا أن نعلل هذا الاضطراب فى القواعد فتلك مسألة تبحث فى غيرهذا الموضع وإنما نريد لهذا الاضطراب تدبيراً عملياً يهون المهمة التعليمية ، ويعين على استجابة اللغة لحاجات الحياة . لأننا نجد آثار هذا الاضطراب للقواعد فى كتب النحو المدرسية على أبسط صورة لها ، وبعد التيسير والاحياء ، وما إلى ذلك ، وخذوا لذلك مثلا .. باب الاستثناء الذى كان التيسير أن يعد فى « الصيغ » ، ولم تعرف كيف يكون الأمر فى أحواله المختلفة وأبوابه الكثيرة المتبعة ؛ فاذا كتاب النحو المدرسى ، الذى ألفه جماعة منهم صاحب الأحياء نفسه فى الجزء الأول منه ، لتلامذة السنة الأولى الثانوية ، يذكر بضعة قواعد ، لبعض أحكام الاستثناء وأحواله ، يلقاها أولئك الصبية الذين تعرفون أنهم يبدءون مرحلة هـذا التعليم الثانوى ، فى العاشرة وماحولها ، وليس الأمر واقفاً عند كثرة القواعد ، بكثرة أدوات الاستثناء ، وأنها تكون حيناً أسماء ، وحيناً أفعالا ، وحيناً حروفا ؛ بل هو كذلك تتبع للأحوال المختلفة فى الأداة الواحدة . أو الأدوات المتشابهة [1] .

وأرجو أن نعالج مثل هذا الاضطراب الذى امتد إلى أبسط كتب النحو بعد مازلزل كيان اللغة ، وفرق أمرها كله .. أرجو أن نعالجه كما فعلنا فى الصعوبة الأولى . فنلترم أصول النحاة التى أصلوها هم أنفسهم ونقوم بأمرين :

الأول : محاولة الاحتفاظ باطراد القواعد ما أمكن . فإذا ما أدى هذا الاطراد إلى التسوية بين وجه لغوى قوى ، ووجه لغوى أقوى ؛ أو الجرى على ماهو الأقل قوة

(١) راجع ص ٦٦ : ٦٨ من الكتاب المذكور .

فقد سمعنا ماتجيزه أصولهم من عدم اللوم فى ذلك ، بحلل هو السجع . وراحتا من هذه الآلام ، أمتع لنفوسنا آلاف المرات من سمج السجع .

الثانى : اختيار ماهو أيسر إعرابا ، أو أقرب فهماً ، أو أكثر رواجا فى حياتنا اللغوية الحاضرة . حينما نريد طرد القاعدة ، وإقلال التفريع والأحوال والصور فيها .

وأسوق لهذا التدبير مثلا من علاج مسألة فى الاستثناء الذى سبق ذكر صعوباته فأقول: إن فى هذا الكتاب المدرسى الصغير ، أنه يستثنى بخلا وعدا وحاشا . فيجوز فى المستثنى بها النصب . ويجوز فيه الجر . هذا إذا لم يسبق خلا وعدا كلمة ما . فيجب نصب مابعدها ومن ذلك نرى أن النصب مشترك فى الأحوال كلها ، مع ما وبدونها . فلو قلنا : أن الاستثناء بخلا وعدا وحاشا ، له حكم واحد دائما ، هو نصب المستثنى . وقد تدخل ما على خلا وعدا . . فإننا بهذا الطرد للقاعدة ، تضبط الأمر ونيسره . ولا نرتكب أكثر من أننا جعلنا بعض الأحوال المختلف فى قوتها ، أو المرجحة قوة الجر فيها ، أو النصب مثلا . جعلناها مرجوحة ، أو سوينا فيها بين الحالتين . وقد رأينا جواز هذا . وأنه عربى صحيح لاشىء فيه .

* * *

بمثل هذه الخطة نستطيع أن نمنع الكثير من اضطراب القواعد واختلافها المتعب وبذلك نمكن للفصحى من ألسنة الناس وقلوبهم . وإنما أعنى من الناس ، — كما كررت — هؤلاء الذين لايشتغلون فى الحياة باللغة وأبحاثها وآدابها . بل تعنيهم اللغة بقدر ماتكون أداة عملية تسعف على عملهم ، أوعلمهم ، أو فنهم ، أو منافعهم . فتمكنهم من أن يترجموا عما فى أنفسهم منه ، وينقلوه إلى المتعلمين عنهم ، أو إلى معامليهم أو معاشريهم .

فاذا ما مكنا للفصحى فى ألسنة هؤلاء وقلوبهم ، فقد أمددناها فى صراعها للعامية بقوة تهيىء لها شيئا من الثبات والمقاومة ، إن لم يكن التغلب والانتصار .

أما أولئك الذين عملهم فى الحياة ، هو الاشتغال باللغة وعلومها وآدابها . فمنذ يبدأون تخصصهم فى ذلك ، ويفصلون عن التعلم المشترك إلى أقسامهم الخاصة . لهم أن يرددوا من هذه الاستثناءات التى تربك الاعراب ، مايشاءون ، وأن يتتبعوا من أوجه الاختلاف مايعرفون به الفصيح والأفصح ، والأقل والأكثر ، مادامت الدنيا حولهم تمكنهم من ذلك وتجيزه لهم .

— ١٤ —

## هو الاعتدال الجامد

ثم أعود فأكرر هنا ما أشرت إليه من قبل ، إذ بينت أننا لم نأخذ بالخطة الحرة للجيل قبلنا ، ولا أخذنا بالدستور الشرعى الذى تقدم إليه الفقهاء حولنا ، بل رجعنا إلى ما وراء ذلك فلزمنا أصول النحاة ، ولم نعتمد على شيء أبعد مما أباحوه فى غير تعى ولا لوم .

وكل ما عرضناه هنا ، من حل ، قد التزمنا فيه أصول النحاة التى دونوها ، ولو قد جاوزنا ذلك إلى ما وراءه من عمل الفقهاء ، اطمئنانا إلى حمل أصول النحو على أصول الفقه منذ القدم ، وتقديراً للفرق الفسيح بين ما للفقه من قدسية ليس للنحو شيء منها الخ ، لو أخذنا بقواعد أصحاب الفقه فى صنيعهم ، فتوسعنا فى فهم المذاهب النحوية ، دون وقوف عند نصوصها ، وأخذنا الأحكام من التعليلات ، أو من القواعد العامة للمذهب النحوى ، أو من القواعد العامة للنحاة جميعاً ، كما فعل أصحاب الفقه ؛ أو لم نتقيد بمذهب واحد ، ولفقنا الحلول من مذاهب متعددة . كما فعلوا ؛ أو شعرنا بالحرية فى اختيار ما يساير الحياة ، ويلائم تطور الجماعة كما فعلوا ؛ إذن لأوفى بنا ذلك كله ، على أبواب من التصرف فى هذا النحو ، لم نفتح هنا شيئا منها يذكر .

وإنكم بهذا لتقدرون ما فى الذى عرضناه آنفا من اعتدال ، قد يرهب أن يعده الزمن منا جموداً لا يرضى عشاق التجديد .

— ١٥ —

## شُبه واهية

وبعد فهذه فكرة ، حدثت فيها — كما عرضتها هنا — كثيرين من أولى العناية بهذا النحو ، منذ بضع سنين ، وانتهزت لذلك الفرص ، لتكون دعوة سرية ممهدة ، ولأسمع ما عساه يكون هناك من اعتراضات عليها ، ربما أكون قد فتنت عنها أو لم أنتبه إليها .

وقد لقيت الدعوة — فى الجملة — غيرَ المحاربة والمخالفة المنكرة ، إن لم أقل إن بعض أصحاب الصفة الخاصة فى الأمر ، قد اطمأنوا إلى جملتها .. لكن بقى أثر الألف والتقليد

والتقليد ، يدفع نفراً الى الجمجمة بأشياء هى خواطر حائرة ، فيها كثير من اللين والوهن فلا أسميها اعتراضات ، وأكثر ما تنعت به ، أنها شبه واهية .. منها : —

ا — القرآن وهذا التدبير :

ولم أجد من صوّر هـذه الشبهة فى صورة تناقش ، وإنما هو شىء يسبق إلى الوهم لظروف اجتماعية وعملية ، أو منفعية خاصة . . وقد سمعتم ما تلونا من قراءات القرآن فى جل ما قلناه . وسمعتم أن كل قراءة حجة ؛ فلم يبق إلا أن يكون فيما نستعمله من اللغة ما هو غير الذى نقرؤه فى قطر من الأقطار . ولا بأس بهذا لأن هذا الاختلاف واقع بين ما نتعلم اليوم من القواعد ، وبين قراءات القرآن ، التى تقرع أسماعنا به فى الإذاعة — على الأقل — كل حين ؛ فلو غيرنا ما نتعلمه بما هو مخالف لقراءة وموافق لأخرى . فما حدث جديد ، ولا بدع ، ولا انتقض شىء ، ولا كانت مشكلة .

على أنا نفرض أبعد ما يتصور ؛ وهو : أننا أصلحنا لغة الحياة يوماً ما . بغير ما قرىء به القرآن . فهل نـكون قد فعلنا ما لم نفعله أو يفعله أصحاب هذا القرآن من قبل ؟.. لا : فقد وقع وتم ، ما هو أخطر من ذلك وأشد . . إذمضى الهجاء والإملاء العربى يوافق كتابة المصحف حينا ؛ ثم تغيرت قواعد الـكتابة العربية ، وتقرر ما يخالف رسم المصحف ، فقال الزمخشرى منذ مئات السنين : « . . . وقد اتفقت فى خط المصحف أشياء خارجة عن القياسات ، التى بنى عليها الخط والهجاء ؛ ثم ما عاد ذلك بضير ولا نقصان ؛ لاستقامة اللفظ وبقاء الحفظ ؛ وكان اتباع خط المصحف سنة لا تخالف[1] » .

بل لم يقف الأمر — كما تعرفون — عند هذا الحد ، فقد أفتوا بكتابة المصحف على قياسات الهجاء الجديد ، تيسيراً للتعليم . كل هذا ، والـكتابة ، والخط والهجاء ، غير الإعراب والضبط . لأن اختلاف الـكتابة يمنع قراءة القرآن والاتصال بالمصحف ، أما هذا الاعراب والنحو ، فالقرآن معرض فيه للغات المختلفة ، وعنه أخذنا . . فشتان بين اختلاف الـكتابة عن المصحف ، واختلاف النحو عن بعض قراءات هذا المصحف .

وكل هذا ، على فرض أننا هذبنا لغتنا بغير ما فى المصحف ، وهو ما لم تقترح منه شيئاً ، ولم يقع منه شىء الى الآن ، بل الذى عرضناه قراءات من القرآن نفسه .

---

(١) الزمخشرى : الـكشاف ١/٧٣ .

ب — حال التلاميذ :

حين يدرسون نصاً أدبيا قديما . وكل الصعوبة فى ذلك ، ان نقرا لهم النص الادبى بتلك الأوجه الميسرة ، أوالموحدة من الإعراب ، ولا شيء مطلقاً فى هذا ، فهى لن تخل بمعنى ما ، وهى — فى جملتها — لا تخل بوزن ، وإن أخلت بشيء منه ، فليبق كما هو ضرورة للشعر .. وما نسخنا هذه الضرورات ، وقراءة النص بوجه غير وجه . هو ما نعانيه فى الروايات المتعددة للنصوص فلا بدع فيه . ولا حدث . وليست فيه صعوبة تذكر حتى يوقف عندها فما طلبنا كتابته بحروف لغة أخرى

ج — المتكلمون بالعربية واختلافهم :

والمتكلمون بالعربية اليوم فى الأقطار المختلفة ، قد فرقت بينهم منذ مطلع شمس الإسلام ، عاميات مختلفة ، استبدت كل واحدة منها . بجماعة منهم ، ثم ها هم أولا يسمعون الفصحى كل حين ، فى الإذاعة مثلا ملحونة لحناً رهيبا . فهل تراهم لا يفهمونها لأنها ملحونة ؟ لا شك أن لا . . فهب أنهم لم يأخذوا بما أخذنا به فى مصر من هذه الأوجه ، فسيكون قولنا كقراءات القرآن المختلفة . أو هو على أسوأ الفروض ، كالذى يسمعونه كل حين من اللحن . وأما إن أخذوا بما أخذنا به من هذا التهذيب وهو ما تدعو حالتهم الى مثله ، بل هو ما تحتاجه أشد الاحتياج . . فسيكون من هذا الاتحاد والاتفاق لا الافتراق والاختلاف ، ثم سيكون ومن سهولة هذه الفصحى عامل جديد ، لتوثيق الصلة بينهم ، إذ تضعف بسهولة الفصحى عامياتهم المفرقة لوحدتهم .

وهذا وجه من النظر الاجتماعى ، يكفى وحده لأخذ أصحاب العروبة فى كل إقليم بهذا التهذيب ، رجاء أن يجتمعوا على فصحى يسيرة ، تهاجم العاميات فتقتلها . أو تضعف شأنها . وحبذا . . .

تلك هى الحجمات التى همس بها من سمعتهم . وإن يكن غيرها فأحبب إلى أن أسمع وأصيخ .

وختاماً :

قد عرضت بهذا أصول الحل العملى لمشكلتين معقدتين من مشكلات حياة الفصحى . هما : اضطراب الإعراب . واضطراب القواعد ، وبسطت من الامثلة ما يسهل الانتفاع

بهذا الأصل ... وعلى غراره تخرج تخفيفات كثيرة إذا ما صدقت النية فى الاستجابة لحاجة الحياة . والوفاء بمطالبها .

وإنى بعد إذ فعلت ذلك . أسأل كل من له شىء من الأمر : **أننحو هذا النحو** ؟ ؟ فان حالت دون الإجابة حوائل . من أوهامنا الاجتماعية التى لا تدعنا نأخذ سمتنا إلى الإصلاح . سألت المستقبل المرجو الناهض : **أننحو هذا النحو** ؟ ؟ تاركا للغد بعدى أن يسمع الإجابة من شفتى الزمان .

وأنتم فالسلام عليكم ؟

# آراء فى تاريخ دولة المماليك البحرية

بقلم

علي ابراهيم حسن

تستلزم دراسة تاريخ دولة المماليك من الوجهة السياسية ومن ناحية النظم الرجوع إلى المصادر التاريخية القديمة والمراجع الأوروبية الحديثة من كتب وبحوث ومقالات، كما تقتضى استيعاب طائفة من المخطوطات التى ترجع إلى عصر المماليك ومنها :

كتاب « مُفَرِّج الكروب فى تاريخ بنى أيوب » لابن واصل[1] الذى توفى سنة ٦٩٧هـ. وكان معاصراً لأواخر الدولة الأيوبية وأوائل دولة المماليك .

وكتاب « زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة » لبيبرس الدوادار[2] الذى توفى سنة ٧٢٥ هـ وهو فى أحد عشر مجلداً فُقد بعضها للأسف . وأهم أجزائه الجزء التاسع، وفيه تناول مؤلفه الكلام على عهد السلطان الظاهر بيبرس وينتهى بأوائل سلطنة الناصر محمد الثالثة أى من سنة ٦٥٨ هـ الى سنة ٧٠٩ هـ .

وكتاب « السلوك لمعرفة دول الملوك » للمقريزى الذى توفى سنة ٨٤٥هـ[3].

ومن هذه المخطوطات كتاب « المقصد الرفيع المنشا الهادى لديوان الانشا » للخالدى[4] الذى توفى سنة ٩٣٧ هـ ويشتمل على معلومات قيمة فى نظم الحكم فى الدول الاسلامية بوجه عام وفى مصر المملوكية بوجه خاص .

وقد أورد ابن حجر العسقلانى الذى توفى سنة ٨٥٣ هـ فى كتابه المخطوط « رفع

---

(١) جزءان مخطوطان بدار الكتب المصرية رقم ٥٣١٩ تاريخ .

(٢) مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول رقم ٢٤٠٢٨ .

(٣) نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة الجزءان الأول والثانى من هذا المخطوط حتى سنة ٧٤١ هـ سنة وفاة السلطان الناصر محمد .

(٤) مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول رقم ٢٤٠٤٥ .

الإصر ( أي الذنب ) عن قضاة مصر ،[1] تراجم دقيقة لبعض القضاة كشفت عن كثير من نواحي النظام القضائي في سلطنة المماليك .

أما عن النظم الحربية في ذلك العصر فإن الباحث يعتمد على مصادر خطية هامة من بينها : كتاب « السؤل والأمنية في تعليم الفروسية » لمؤلفه بكتوت الرماح[2] الذي توفى سنة ٧١١ هـ . وكتاب « غنية الطلاب في معرفة الرمي والنشاب » تأليف طيبغا الأشرفي البلقميشي اليوناني [3] الذي توفى سنة ٧٧٠ هـ . وكتاب « الفروسية برسم الجهاد » تأليف لاجين الحسامي الطرابلسي[4] المتوفى سنة ٧٨٠ هـ .

وعن العلاقات الخارجية يجدر بالباحث أن يستفيد من كتاب Egypt and Aragon [5] الذي يشتمل على طائفة من الوثائق العربية نشرها الدكتور عزيز سوريال عطية وأمكن بها إلقاء ضوء على جانب من العلاقات بين مصر وأرغونة في عصر الناصر محمد .

على أن البحث في تاريخ ذلك العصر لا يقف عند حد الاقتصار على المصادر التاريخية التي أشرت الى بعضها بل يتعداه إلى غيرها من المؤلفات التي وضعت في الفنون والتي تعد مصادر مادية للحقائق التاريخية . من ذلك « جامع الكتابات التاريخية » المعروف باسم Corpus Inscriptionum Arabicarum لمؤلفه فان برشم Van Berchem [6]. وفيه وصف المؤلف العمائر الاسلامية وما عليها من الكتابات وتضافر تلاميذه

---

(١) مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢١١٥ .

(٢) مخطوط بالمتحف البريطاني رقم ٣٦٣١ .

(٣) مخطوط بكمبردج رقم ١٧٨ — ٢٤٠ .

(٤) مخطوط بمكتبة برلين رقم ٥٨٨ .

(٥) Atiya.: Egypt and Aragon (Leipzig, 1938) : Embassies and Diplomatie Correspondence between 1300 ond 1 30 R. D,

(٦) Van Berehem : Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum ( le Caire, 1954 ) — ( Mem, I. F. A. Caire. )

وأعوانه على تحقيق رغبته فى جمع كل النصوص العربية المكتوبة على العمائر والتحف فى مختلف أنحاء العالم الاسلامى .

أضف الى ذلك ما كتب عن المسكوكات الإسلامية فى عصر المماليك، وما نشره أساتذة الآثار عن الفنون الاسلامية فى مصر، ومن أشهرها تلك التى وضعها الأساتذة كرزويل [١] وزكى محمد حسن [٢] . وكذا ما نشر عن الرنوك أى الأشعرة المملوكية [٣]. وعن طريق هذه المصادر المادية أمكن الكشف عن كثير من الحقائق التاريخية التى بينت لنا العلاقات الوثيقة بين الدراسات التاريخية والعلوم المساعدة كالكتابات والنقوش التاريخية والمسكوكات والتحف الفنية وما إلى ذلك .

وهناك مصادر أخرى مختلفة بين عربيــة وأفرنجية تمدنا بمعلومات قيمة عن هذا العصر .

* * *

يبدأ تاريخ المماليك السياسى فى مصر منذ سنة ٦٤٨ هـ ( ١٢٥٠ م ) باعتلاء السلطان أيبك أول سلاطين المماليك فى مصر العرش . استمر أيبك فى السلطنة حتى سنة ٦٥٥ هـ وقضى فترة حكمه فى القضاء على المناوئين لحكم المماليك فى مصر . ولم يستمر ابنه علىّ فى السلطنة طويلا فقد اغتصبها منه أتابكه سيف الدين قُطُز الذى امتاز حكمه بهزيمته للتتار

(١) انظر : Creswell, K. R. C. :

Early Muslim Architecture, Oxford 1923.

A Brief chronology of Muhammadan Monuments of Egypt ( B. I. F. R. O. T. XVI )

The Foundation of Cairo ( Bulletin of The Faculty of Arts, University of Egypt, Vol. 1 part 2, Dec. 1933).

(٢) زكى محمد حسن :

الفن الاسلامى فى مصر ( من مطبوعات دار الآثار العربية ) .

التصوير فى الاسلام ( من مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر ) .

فى مصر الاسلامية ( هدية المقتطف سنة ١٩٣٧ ) .

كنوز الفاطميين ( مطبوعات دار الآثار العربية سنة ١٩٣٧ ) .

(٣) انظر كتاب Saracenic Heraldry لمؤلفه Mayer أستاذ علم الآثار الاسلامية فى الجامعة العبرية بفلسطين ، كتبه مؤلفه فى علم الرنوك ومعناها ورسومها . وراجع ما كتبه الدكتور زكى حسن عن الرنوك فى تعليقاته على كتاب التصوير عند العرب لأحمد تيمور باشا

فى عين جالوت وبَيْسان فى الشام . ولكنه قتل وهو فى طريقه الى مصر وتولى قاتله الامير ركن الدين بيبرس العرش سنة ٦٥٨ هـ ( ١٢٦٠ م ) . وفى عهده نقلت الخلافة العباسية الى القاهرة سنة ٦٥٩ هـ توطيداً لسلطان المماليك فى مصر ، كما تمكن بيبرس سنة ٦٦٢ هـ من استحداث نظام ولاية العهد لأول مرة فى تاريخ المماليك وورث العرش على هذا الأساس لابنيه السعيد بَرَكة خان ثم العادل بدر الدين سلامش اللذين استخف بهما أمراء مصر الأقوياء حتى تمكن الأمير سيف الدين قلاوون سنة ٦٧٩هـ (١٢٧٩م) من أن يغتصب العرش من سُلامِش بن بيبرس ويصل إلى عرش السلطنة ويؤسس بيت قلاوون الوراثى . وظلت السلطنة فى بيته يتوارثها أبناؤه وأحفاده حتى نهاية دولة المماليك البحرية ( سنة ٧٨٤ هـ ) ، وخلفه ابنه الأشرف خليل الذى لعب معه أمراء مصر الدور الذى سبق أن لعبه أبوه قلاوون مع سلامِش والذى لعبه بيبرس مع قُطُز ، وانتهى الأمر بقتله سنة ٦٩٣ هـ ، وانتقل الملك من بعده إلى أخيه الناصر محمد ( ٦٩٣ — ٧٤١ هـ = ١٢٩٣ — ١٣٤٠ م ) .

اعتلى الناصر محمد بن قلاوون عرش مصر ثلاث مرات : استمرت الاولى عاماً واحداً أى من سنة ٦٩٣ هـ إلى سنة ٦٩٤ هـ ثم اغتصب الملك منه العادل زين الدين كتبغا فالمنصور حسام الدين لاجين . واستمرت فترة الاغتصاب هذه أربع سنوات أى من سنة ٦٩٤ هـ الى سنة ٦٩٨ هـ ، ظل الناصر خلال سنتين منها أشبه بسجين فى القلعة حتى أرسله لاجين فى سنة ٦٩٦ هـ إلى الكَرك . ولكن كل ماتخلّل عهد كل من كتبغا ولاجين من حوادث واضطرابات وفتن وما انتاب البلاد من مظاهر الضعف والانحلال فى أثناء حكمهما كان من العواملِ التى هيأت للناصر سبيل العودة الى العرش ، ومن ثم تبتدىء مرحلة سلطنته الثانية وتمتد من سنة ٦٩٨ هـ الى سنة ٧٠٨ هـ .

وأظهر ما نلاحظه عن سلطنة الناصر الثانية تضييق الخناق عليه واستخفاف الأمراء بأمره وعدم اكتراثهم لشأنه حتى اضطر الى الرحيل الى الكرك مرة ثانية وأقام فى جوٍّ بعيد عن المؤامرات والدسائس التى كان يحيكها حوله خصومه من أمراء مصر الطامحين إلى النفوذ والسلطان ، غير أن رحيله عن حاضرة ملكه سنة ٧٠٨هـ مكّن بيبرس الجاشنكير من اغتصاب العرش لنفسه .

ولكن هذا لم يصرف الناس عن الناصر أو يضعف من اعتقادهم فى أنه يستطيع وحده أن ينقذ مصر من الفوضى التى سادتها أثناء حكم بيبرس . فلاعجب إذا لم تنقطع المراسلات بين أمراء مصر من ناحية وبين الناصر محمد من ناحية أخرى يرجونه فيها العودة إلى بلاده ، فتهيأت أسباب عودته إلى مصر وعاد اليها ليبدأ سلطنته الثالثة فى سنة ٧٠٩ هـ وظل فيها حتى توفى سنة ٧٤١ هـ[١].

استمرت سلطنة الناصر محمد الثالثة اثنتين وثلاثين سنة متصلة ، انفرد فيها وحده بحكم مصر وتمكن من القضاء على الذين اغتصبوا عرشه . وعلى الذين أقاموا الفتن وأثاروا الدسائس حوله . وفى سلطنته الثالثة ازداد تعلق الشعب بالناصر لمـــا أتاه من جليل الأعمال وما تكشف لشعبه فيه من جميل الخصال . وبذلك تعتبر هذه الفترة فى الواقع عهد سلطنة الناصر الحقيقية لأنه كان قبل ذلك آلة فى أيدى الأمراء الأقوياء يجلسونه على العرش أو يصرفونه كما شاءت أهواؤهم .

يعتبر عصر الناصر محمد بن قلاوون أزهى عصور دولة المماليك البحرية ، لأن فيـه توطدت دعائم هذه الدولة ، وبدأت أساليب الحكم والإدارة فى الاستقرار بفضل التجارب التى قامت بها حكومة الناصر ، كما ازدهرت الفنون حتى عدّ المؤرخون عصره أزهى عصور الفن فى دولة المماليك خاصة وفى تاريخ مصر الإسلامية عامة . وامتد هذا العصر فترة طويلة بلغت ثمانية وأربعين عاماً ، وهـذا يجعل الباحث فيه يلم بكثير من أحوال مصر السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى عصر دولة المماليك البحرية .

---

(١) المراجع الثانوية التى تعرضت لتاريخ المماليك السياسى أربعة وهى .

1. Weil. Geschichte der Abbasiden Chalifats in Egypt. ( Stuttgart, 1860—1862 ) Vol. I pp 191—412

2. S. Lane —'Poole : Egypt in the Middle Ages, pp. 242—323.

3. Ency. Isl. art. Mamluk.

4. Wiet : Histoire de la Nation Egyptienne, T. 4 (L' Egypte Arabe) pp. 456—498.

ويعد الأول أو فى هذه المراجع الأربعة بالرغم من تقادم عهـده . وقد اعتمد مؤلفه على المخطوطات المحفوظة ببعض المكاتب الأوربية إذ أنه وقت تحرير الكتاب لم تكن المصادر العربية الأصلية قد نشرت بعد . على أنه يجب ألا نبالغ فى الاعتماد على تلك المراجع الثانوية فى بحث مثل هذا الموضوع . ولذا توجهنا إلى الأصول العربية المنشورة والمخطوطة التى سبق الاشارة إلى بعضها .

وبوفاة الناصر فى سنة ٧٤١ هـ انطلقت ألسنة الشعراء لتأبينه والاشادة بذكره، وتقدير شخصيته وتعداد مناقبه، ولا غرو فقد كان الناصر العامل الأول فى وضع أسس السياسة العامة للدولة المملوكية، والمنفذ الأكبر لقواعدها، والمثل الأعلى للسياسى المحنك إذ كان شديد البأس سديد الرأى يتولى أمور الدولة بنفسه، مطلعاً على أحوال مملكته محبوباً من رعيته، مهيباً فى أمراء دولته.

أطراه أبو المحاسن بعبارات مملوءة بالإعجاب والتقدير لمواهبه وأخلاقه ووصف ما يتحلى به من حزم وشجاعة ودهاء وكياسة فقال إنه «أطول الملوك فى الحكم زماناً[1] وأعظمهم مهابة وأحسنهم سياسة وأكثرهم دهاء وأجودهم تدبيرا وأقواهم بطشاً وشجاعة. مرت به التجارب وقاسى الخطوب وباشر الحروب وتقلّب مع الدهر ألوانا. ونشأ فى الملك والرياسة، وله فى ذلك الفخر والسعادة، خليقاً بالملك والسلطنة. فهو سلطان وابن سلطان ووالد ثمانية سلاطين من صلبه والملك فى ذريته وأحفاده وعقبه ومماليكه ومماليك ومماليكه إلى أن تنقرض الدولة التركية فهو أجل ملوك الترك وأعظمهم بلا مدافع»[2].

ووصفه ابن إياس فقال:

الناصر السلطان قد خضعت له ... كل الملوك مشارقا ومغاربا
ملك يرى تعب المكارم راحة ... ويعد راحات الفراغ متاعبا
ترجى مكارمه ويخشى بطشه ... مثل الزمان مسالما ومحاربا
فإذا سطا ملأ القلوب مهابة ... وإذا سخا ملأ العيون مواهبا[3]

واستقر على عرش مصر بعد الناصر أولاده وأحفاده يتعاقبونه واحداً بعد الآخر مدة ثلاث وأربعين سنة ( ٧٤١ — ٧٨٤ هـ = ١٣٤٠ — ١٣٨٢ م ). وبلغ عدد هؤلاء السلاطين الذين حكموا مصر من بيت الناصر: ثمانية أولاد وأربعة أحفاد، بلغ متوسط حكم السلطان الواحد منهم ثلاث سنوات ونصف سنة. ويتميز عهدهم بصغر سن السلطان، وقصر مدة حكمه لسهولة خلعه على يد أمراء مصر ولظهور نفوذ

---

(١) يقصد بالطبع أن مدة حكمه هى أطول مدة جلس فيها سلطان من سلاطين دولة المماليك على عرش مصر.

(٢) النجوم الزاهرة ( مخطوط ) جـ ٤ القسم الثانى ص ٢٧٤.

(٣) بدائع الزهور جـ ١ ص ١٧٣.

الأتابكة ظهورا واضحا واشتداد التنافس بين الأمراء على النفوذ وجعلهم السلطان ألعوبة فى أيديهم يعزلونه أو يبقونه حسب مشيئتهم . ولذلك ضعفت الدولة المملوكية بعد وفاة السلطان الناصر واضطربت أحوالها وكثرت الفتن والقلاقل فى جميع أرجائها .

وفى الواقع لم تكن هناك غير نهاية واحدة لهذه المجموعة من الدُّمى التى تبوأت عرش مصر منذ وفاة الناصر ، وقبضت على السلطة بصفة إسمية . وكان من الطبيعى أن يغتصب العرش أمير قوى كما فعل بيبرس وقلاوون من قبل . وكان هذا الأمير تلك المرة هو برقوق الذى تغلّب أولاً على منافسيه من أمراء العصر واحداً بعد واحد ، ثم خلع آخر سلاطين بنى قلاوون سنة ٧٨٤ هـ ( ١٣٨٣ م ) وأسس دولة المماليك البرجية ، وبذلك زال الملك عن بيت قلاوون بعد أن حكم مصر مائة وثلاث سنين ، قبض فيها قلاوون وأبناه الأشرف خليل والناصر محمد على زمام الأمور بأنفسهم ، بينما حكم الباقون من ذرية قلاوون حكما صورياً ، ولم يكن كل منهم أكثر من ألعوبة فى أيدى الأمراء .

* * *

والآن نذكر بعض النتائج التى أمكن الوصول اليها من دراسة عصر المماليك :

لتوضيح طرق اعتلاء السلاطين عرش السلطنة المملوكية ينبغى تحليل مبدأ الوراثة فى العصر المملوكى ، وأثر الامراء فى سير الحوادث الجارية إذ ذاك ، ومركز الخليفة العباسى فى سلطنة المماليك :

١ — كان مبدأ الوراثة غير معترف به طوال حكم الدولة المملوكية : لأن المماليك اعتقدوا أن المُـلك يجب أن يؤول إلى أقوى الأمراء وأكثرهم شجاعة فى الحروب ، واعتبروا السلطان واحداً منهم يختارونه من بينهم لأنه لا يمتاز عنهم إلا بما وهبه الله من قوة وبسالة ودهاء وسعة حيلة . وكان استقرار السلطان على العرش يتوقف على كثرة أتباعه وضخامة ثروته ومبلغ رضاء الأمراء عنه . واتخذوا من صغر سن بعض السلاطين فرصة سانحة لتحقيق مطامعهم فى الوصول إلى العرش غير

مكترثين لمبدأ الوراثة (١) .

وهذا يعلل لنا سبب وقوع حوادث الاغتصاب فى سلطنتى الناصر محمد الأولى والثانية . فإن حوادث عصر الناصر كانت تدور حول اغتصاب عرشه ومع ذلك يمكننا أن نطلق على ذلك العصر عصر الوراثة فقد تخللته فترات اغتصاب لا تكاد تظهر حتى تختفى ثم يعود صاحب العرش ليجلس على عرش أبيه . وليس غريباً أن يحدث ذلك الاغتصاب فى بيت قلاوون . لأن قلاوون نفسه مؤسس هذا البيت اغتصب العرش من العادل بدر الدين سُلامِش بن الظاهر بيبرس سنة ٦٧٨ هـ ويعتبر من الممهدين لخلع أخيه السعيد بركة خان .

٢ — أن أمراء مصر فى العصر المملوكى كان لهم أكبر الأثر فى توطيد عروش السلاطين أو تقويضها ، بما كان لهم من شدة البأس وقوة الشكيمة والعناد والقدرة على إثارة الدسائس لمن لا يردعهم ويوقرهم ويرعى حرمتهم من سلاطين مصر . فإن مقتل قطز وعزل بركة خان وسلامش ابنى الظاهر بيبرس تم على يد أمراء مصر (٢) .

ولم يكن تأييد الشعب للسلطان كفيلا بتثبيت عرشه فإن عزل الناصر كان يتم على يد أمراء الدولة الأقوياء مع وضوح حقه فى العرش ، فدفعه ذلك فى سلطنته الثالثة إلى استرضائهم وأخذ من يشك فى أمره منهم بالشدة صيانة لعرشـــه من الزوال وحفظاً لكيان ملكه من التصدع والانهيار .

ويمكن القول بوجه عام أن الناصر كان محبوباً من الشعب وأنه كان فى الوقت نفسه مؤيداً من جانب فريق من الأمراء . وهذان العاملان كانا من عوامل انتصاره على مغتصبى ملكه وتقويض عروشهم . فإن الامراء الذين اغتصبوا عروش أســـلافه من سلاطين المماليك أمثال بيبرس وقلاوون لم يمكّنوا السلاطين المعزولين من العودة الى

(١) راجع فى هذا الصدد : العينى : عقد الجمان ( مخطوط ) جـ ٣ القسم الأول ص ٤٩ . المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٧٢ .

Lane—Poole : The Art of the Saracens, pp. 17—18.

(٢) يلزم هنا أن نشير إلى الوصية التى أرسلها السلطان بيبرس إلى ابنه بركه خان من دمشق عنـد ما أحس بدنو أجله ومنها نعلم أن بيبرس لم يكن يأمن على نفسه وعلى ابنه من غدر أمراء مصر وأنه كان يعلم مدى قدرتهم على الدس وإثارة الفتن : « إنك صبى ، وهؤلاء الأمراء يرونك بعين الصبى ، فمن بلغك عنه ما يشوش عليك ملـكك وتحققت ذلك عنه ، فاضرب عنقه فى وقته ولا تعتقه ولا تستشر أحداً فى ذلك ، وافعل ما أمرتك به وإلاضاعت مصلحتك » ( ابن واصل : مفرج الـكروب جـ ٢ ص ٤٤٠ ) .

عروشهم . ولذلك يكون ذلك الحب المتبادل بين الناصر وبين شعبه عاملا مهماً فى استقرار سلطنته الثالثة ، مع ملاحظة أنه لولا تأييد عدد من الأمراء له إذ ذاك لما تمكن بمساعدة الشعب وحده من العودة إلى عرشه (١) لأنه لم يكن للرأى العام المصرى أثر كبير فى سير الحوادث فى ذلك العصر .

ومن الأمور التى تسترعى النظر وتُثْبت حب الشعب المصرى للناصر محمد بوجه خاص وأسرة قلاوون بوجه عام ، أن أمراء مصر لما عادوا الناصر — على نحو ما درجوا عليه مع من سبقه من السلاطين — وحاصروه هم وإخوانهم فى القلعة بقصد التضييق عليه واضطراره إلى اعتزال العرش ، قام عامة الشعب بمظاهرة هائلة وتكاثر عددهم واجتمعوا أمام القلعة وعلا صياحهم وأعلنوا أنهم لا يريدون أن يلى المُلك أحد من غير بيت قلاوون . وكان من هتافات العامة العظيمة الدلالة ، هتافهم : « يا ناصر يا منصور ! »(٢). فتحرج الأمر واضطربت أحوال الأمراء وزاد هلعهم إذ لم يكونوا يتوقعون أن يصل حماس الشعب فى تأييد الناصر إلى هذا الحد ، خصوصاً وأنهم لم يتعودوا أن يروا للرأى العام أثر إذا استقر رأى الشعب على أمر من الأمور . كذلك كان الأمراء كلما حاولوا التفاهم مع المتظاهرين من العامة علت هتافاتهم المدّوية : « يا ناصر يا منصور ! الله يخون الخائن ، الله يخون من يخون ابن قلاوون » .

٣ — أن الخلافة العباسية التى نقلها السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٥٩ ( ٦٦٠ هـ ) بعد أن قضى عليها التتار من بغداد سنة ٦٥٦ هـ ( ١٢٥٨ م ) ليجعل منها سنداً للسلطنة المملوكية ، جعلت مصر مقر الخلافة ، ومركز الرئاسة العامة على المسلمين ، وأظهرت سلاطين المماليك أمام العالم الاسلامى كأنهم حماة للخلافة ولأشخاص الخلفاء ، وأكسبت سلطنتهم شرعية ما كانت لتكسبها من أى مصدر آخر . ولكن على الرغم من ذلك فإن الخليفة العباسى فى القاهرة لم يكن إلا مظهراً خداعاً جهد المماليك لإيجاده ذراً للرماد فى العيون حتى يقضوا على شهرة الطامحين فى مُلْك مصر ويبددوا السحب التى كانت تحوم حول مبلغ شرعية حكمهم للبلاد .

---

(١) راجع العينى : عقد الجمان ( مخطوط ) جـ ٢٣ الجزء الأول ص ١٥٢ ، والنجوم الزاهرة لأبى المحاسن جـ ٨ ص ١٦٦ — ١٧٦ .

(٢) النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٧٣ .

على أن الخليفة العباسى فى القاهرة قد أصبح ألعوبة فى أيدى السلطان يحركها كيفما شاء [١] . وبذا فـَقـَد على توالى السنين قيمته فى نظر الشعب باعتباره حامى الدين والمسئول الأول عن شرعية السلطنة المملوكية . حقيقة إن إحياء الخلافة العباسية بمصر أصبح أمراً واقعاً وأنه كان يصحب اعتلاء كل خليفة منصبه عدة مظاهر غاية فى الأبهة والعظمة : من فحص عن نسبه وتقليد السلطان له أمر الخلافة بالديار المصرية وتولية الخليفة للسلطان أمور البلاد فى حفل يجمع الأمراء والقضاة وكبار رجال الدولة ثم حمل ذلك التقليد على رأس الوزير فى موكب علنى يطوف أرجاء مدينة القاهرة مما يدل على تلهفه وابتهاجه بحصوله على مثل ذلك التقليد الذى يجعل سلطانه فى نظر الشعب شرعياً . ولكن كل ذلك لم يعد المظاهر التى لا تنطوى على أى نفوذ فعلى فى تصريف أمور الدولة أو التعرض لشئونها .

وكان جل عمل الخليفه العباسى فى القاهرة هو إعطاء السلطان تفويضاً بالحكم . إلا أن هيبة ذلك التفويض الشرعى بدأت تزول من نفوس المماليك بعد أن رأوا إقدام كبار الامراء على اغتصاب العرش كلما واتتهم الفرصة ، وذلك رغم حصول السلطان المخلوع على تفويض الخليفة . وعلى الرغم من أن الخليفة والقضاة الأربعة كانوا هم الذين يباركون السلطان عند اعتلائه العرش ، فإن ذلك لم يكن يتم إلا بعد أن يعلن أمراء مصر موافقتهم على اختياره وارتياحهم الى توليته وبعد أن يأخذ عليهم السلطان الجديد العهود والمواثيق بأن يخلصوا له ويلتفوا حول عرشه .

وعلى ذلك فإن موافقة الأمراء وتأييدهم كانت العامل الأساسى الذى يسهل للسلطان الوصول إلى العرش والاحتفاظ به مدة تطول أو تقصر تبعاً لذلك التأييد . أما مبايعة الخليفة للسلطان وحضور القضاة الأربعة عند تلاوة البيعة والشهادة على صدورها من الخليفة ، فقد كان أمراً صوريا لا يقدم ولا يؤخر فى توطيد عرش السلطان أو زعزعته . ولكنه كان تقليداً اتبع منذ عهد بيبرس وعادة اصطلح عليها فى تلك الفترة من تاريخ مصر الاسلامية .

---

(١) راجع فى هذا الصدد أقوال :
Arnold : The Caliphate, p. 98—99.
Muir : The Caliphate, p. 593—594.

وعلى الرغم من أن السلطان منح الخليفة العباسى فى القاهرة : حق ذكر اسمه فى خطبة الجمعة، ونقشه على السكة إلى جانب اسم السلطان[١]، وإعطاء السلطان تفويضاً يجعل حكمه فى نظر الشعب شرعياً[٢] : فإن ذكر اسم الخليفة مع السلطان فى الخطبة على المنابر كان مقيداً ، وأن ظهور اسم الخليفة على السكة بجانب اسم السلطان كان أمراً صورياً محضاً ، وأن منح الخليفة عهود التفويض للسلطان لم يمنع وقوع حوادث الاغتصاب المتكررة فى عصر دولة المماليك البحرية[٣]

أما عن أساليب عزل سلاطين المماليك فيجب أن نبين أن ذلك كان يتم إما عن طريق النفى ، أو القتل ، أو تدبير الأتابك :

٤ — كان مصير بعض سلاطين المماليك الخلع ثم النفى . وكان نفيهم فى العادة إلى قوص أعظم مدن الوجه القبلى إذ ذاك ، أو إلى الكرك بالشام ، وأحياناً يقيم بعضهم بقلعة الجبل على أن يمنع من الاتصال بالناس .

على أن نفى أولاد السلاطين إلى الكرك بالشام ، كان أهم ما يتميز به عصر السلطنة المملوكية بالديار المصرية . وإليها رحل السلطان السعيد بركة خان بن بيبرس فى أواخر ربيع الأول سنة ٦٧٨ هـ ، والسلطان العادل بدر الدين سلامش بن بيبرس سنة ٦٧٩ هـ ، والسلطان الناصر محمد فى سنتى ٦٩٤ هـ و٧٠٨ هـ .

إلا أن السلطان كتبغا بعد فراره أثناء عودته من دمشق قاصداً الديار المصرية ورجوعه إلى الشام ، بعد أن تحقق أن الأمير لاجين يريد الغدر به كى يصل إلى السلطنة طلب من لاجين بعد أن وصل إلى عرش مصر مكاناً يقيم فيه بقية حياته ، فقبل السلطان الجديد أن يتوجه السلطان المخلوع إلى مدينة صرخد بالشام ، فذهب إليها معززاً

---

(١) لم ينفذ قط فى دولة المماليك فى مصر مسألة ذكر اسم الخليفة فى الخطبة ونقشه على السكة إلا أنه ثبت أن اسم الخليفة المستكفى بالله نقش سنة ٧٢٦ هـ ( ١٣٢٥ م ) فى دلهى بأمر حاكمها ابن طغلق . انظر :

Nelson Wright : The Coins and Metrology of the Sultans of Delhi, pp. 168—179.

(٢) نفذ ذلك الشرط ولكنه فقد قيمته بتوالى حوادث الاغتصاب من السلاطين المفوضين من الخليفة شرعيا .

(٣) مثل اغتصاب الأمير قلاوون عرش سلامش بن بيبرس واغتصاب كل من كتبغا ولاجين عرش الناصر محمد .

مكرماً ، ومعه أولاده ومماليكه وغلمانه وأقام بها ، وظل فيها حتى توفى ١٠ ذى الحجة سنة ٧٠٢ ﻫ ( ١٣٠٢ م ) [١] .

وهذه ظاهرة خطيرة أن يصبح السلطان السابق واليا على بلدة من أعمال دمشق . وهو أول مثل ينزل فيه سلطان فى دولة المماليك إلى أمير . وتتابعت حوادث نزول السلاطين عن عروشهم ، إلا أنهم كانوا إما يعزلون أو يقتلون أو يعتزلون فى مكان أو يقبض عليهم كأولاد الناصر .

٥ — وانتهت حياة بعض السلاطين بالقتل أمثال المظفر قطز ( ٦٥٧ — ٦٥٨ ﻫ ) الذى قتله بيبرس ، والأشرف خليل ( ٦٨٩—٦٩٣ ﻫ ) الذى قتله بدر الدين بيدرا ، وحسام الدين لاجين ( ٦٩٦ — ٦٩٨ ﻫ ) الذى قتله كل من ُطغجي وكُـرجى . وكان الاعتقاد السائد أن قاتل السلطان يجب أن يخلفه على العرش : فإن بيبرس حين سأله الأمير فارس الدين أقطاى نائب السلطنة مع بقية الأمراء عمن قتل قطز قال : « أنا قتلته » ، ورد أقطاى فى بساطة تستدعى الدهشة : « يا خوند ! اجلس فى مرتبة السلطان مكانه » [٢] .

ولما قتل السلطان خليل فى الحمامات بمديرية البحيرة اتفق الأمراء قبل أن يبرحوا مكان الجريمة على تولية قاتله بيدرا العرش ، على نحو ما فعله الأمراء حين تشاوروا فى الصالحية بعد قتل قطز . وبعد أن تم لكل من الأميرين طغجى وكرجى قتل السلطان لاچين بينما كان جالساً فى قصره يلعب الشطرنج ، عقدا بعد مقتله بيومين اجتماعاً حضره الأمراء وقام كرجى وقال : « يا أمراء ! أنا الذى قتلت السلطان ، والملك الناصر صغير ما يصلح ، ولا يكون السلطان إلا هذا — وأشار لطغجى — وأنا نائبه [٣] » .

وهنا لا تتم المشابهة بين الظاهر بيبرس وبين بيدرا وكل من طغجى وكرجى . فبينما نجد أن بيبرس قد قتل قطز وتمكن من الوصول إلى عرش السلطنة وتطول مدة سلطنته حتى يتمكن من أن يعهد بالملك لأولاده من بعده ومن تثبيت دعائم عرشه وينسى

---

(١) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٣٤ .

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٩٧ .

(٣) المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٨٦٦ .

التاريخ فعلته لما كان عليه من حميد الصفات وما أتاه لخير مصر من جليل الأعمال ، نجد أن كلا من بيدرا وطغجى وكرجى لا يستطيعون الوصول إلى شيء من ذلك كله ، وسرعان ما انهارت آمالهم وتفرق عنهم أتباعهم وقتلوا شر قتلة .

ومن ذلك نرى أن بيبرس تولى العرش بموافقة تامة ولم تقم فى وجهه أى معارضة قوية من جانب الأمراء ، اللهم جانب الأمير علم الدين سنجر نائب دمشق . ونرى أيضاً أنه لم يكن من الضرورى أن يصل قاتل السلطان إلى العرش ، فإن بيدرا قاتل السلطان خليل بعد أن بايعه بعض الأمراء بالسلطنة تبعه الآخرون وذبحوه وقدموا العرش للناصر محمد أخى السلطان خليل . كذلك لم يتمكن كل من الأميرين طغجى وكرجى قاتلى السلطان لاجين من الوصول إلى العرش . ولعل عدم وصول قتلة الأشرف خليل والمنصور لاجين إلى السلطنة ، ترجع إلى أن السلاطين من بيت قلاوون كانوا محبوبين من الشعب . واستقر الرأى فى الحالتين على إسناد العرش إلى الناصر محمد .

٦ — وقام الأتابكة بأدوار هامة فى سلطنة المماليك : فقد عُزل السلطان علىّ بن أيبك على يد أتابكه الأمير سيف الدين قطز ، وعُزل السلطان سلامش بن بيبرس على يد أتابكه الأمير سيف الدين قلاوون . وفى كلتا الحالتين اعتلى كل من قطز وقلاوون عرش مصر . كذلك اغتصب الأمير زين الدين كتبغا عرش الناصر محمد . ولم يكن لهؤلاء الأتابكة أى حق شرعى فى الملك ، اللهم ما كانوا ينتحلونه من الأعذار من اضطراب أحوال البلاد الداخلية بسبب صغر سن هؤلاء السلاطين .

ومما يجب الإشارة إليه هنا أنه لا يصح أن يفهم من ذلك أن الأتابك هو الوصى على العرش بل كان كبير القواد فى الدولة وأنه كان يوجد حتى إذا كان السلطان غير قاصر .

كذلك يجب أن يلاحظ أنه فى عهد سلطنة أولاد الناصر وأحفاده لم يفكر أحد الأتابكة فى العرش ، فقد قنعوا إذ ذاك بخلع السلطان والحجر عليه أو تدبير أمر قتله ، وذلك فى الوقت الذى كانوا يرغبون فيه فى التخلص من السلطان ، ثم يعمدون إلى تولية أحد إخوته مكانه . وكان من الغريب حقاً عدم وصول أحد الأتابكة إلى عرش السلطنة فى تلك الفترة التى اعتلى فيها العرش سلاطين لم يبلغوا سن الرشد . على أنه يظهر أن

فكرة وصول الأتابكة إلى العرش فى عصر سلطنة أولاد الناصر وأحفاده قد جالت فى أذهان بعضهم ولكنها لم تستمر طويلا ، وسرعان ما اختفت لخوف هؤلاء الأتابكة من عدم تأييد الأمراء لهم فى تنفيذ فكرتهم ، لما كان بينهم من عوامل الحقد والتنافس على السلطة والنفوذ . فلم يكونوا يرضون أن يسودهم أحدهم ، خوفا من أن يستبد بهم ، بل كانوا يفضلون كثيراً أن يكون سلطانهم ممن لا شخصية له ولا إرادة حتى يتمكنوا من أن يصلوا فى عهده إلى تحقيق كل أمانيهم . وهذه الصفات التى تطلبوها فى السلطان قد توافرت فى أولاد الناصر .

ولكن بتعيين برقوق سنة ٧٨٣ ﻫ أتابكا للسلطان الملك الصالح زين الدين حاجى ( ٧٨٣ — ٧٨٤ ﻫ = ١٣٨١ — ١٣٢٨ م ) حفيد الناصر محمد يعود عهد طموح الأتابكة إلى عرش السلطنة . وذلك على نحو ما كان متبعاً منذ قيام دولة المماليك حتى وفاة السلطان الناصر محمد . فقد عمل برقوق منذ أن أصبح أتابكا على اعتلاء العرش ولم يمنعه من تنفيذ ذلك إلا خوفه من عدم تأييد الأمراء . ولما اطمأن إلى زوال ما كان يخشاه خلع الملك الصالح حاجى من السلطنة وجلس مكانه على العرش .

أما عن مركز سلاطين المماليك فنقول :

٧ — إن مصر وصلت فى عصر المماليك عامة وعهد الناصر خاصة إلى مركز ممتاز بين دول العالم الهامة الشرقية والغربية حتى أصبح بلاطها مقصد سفراء الدول الاوروبية الذين وفدوا إلى مصر حاملين إلى سلطانها الهدايا والرسائل من ملوكهم يطلبون إليه فيها حسن معاملة المسيحيين ويعبرون عن تقديرهم اسلطان مصر واعترافهم باتساع نفوذه ويؤكدون حبهم وإخلاصهم له .

ويتبين من دراسة سفارات الدول المختلفة إلى بلاط الناصر أنه نشأت بينه وبين مغول فارس والهند والقفجاق علاقات عدائية أو ودية (١) ، وأنه أخضع أرمينيه

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٩٢٧ — ٩٤٩ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٦٥ — ١٦٨ .

Browne : Literary Hist. of Persia, Vol. 1, p 367 ; Vol. 2, p. 446 ; Vol. 3, pp. 18—20.

وراجع فى هـذا الصدد الفصل الذى كتبه الدكتور عزيز سوريال عطيه بعنوان Europe and the Tatars فى كتابه The Crusade in the Later Middle Ages, pp. 233—259 =

لسلطانه[١]، وبسط نفوذه على بلاد اليمن[٢] والحجاز[٣]، ووسّع ملكه فى أفريقيه[٤].

وظهرت فى بلاط الناصر بعوث من القبيلة الذهبية ، وإيلخانات المغول فى فارس ، ومن بنى رسول فى اليمن ، ومن نجاشى الحبشة ، ومن قِبَل الحفصيين فى تونس ، وامبراطور بيزنطة ، وقيصر بلغاريا ، ومن البابا ، وملك أرغونه ، وفيليب الرابع ملك فرنسا ، ومحمد بن طُغْلُق سلطان دهلى[٥] . وهذا أقصى ما يمكن أن تطمح اليه أمة من مكانة سامية بين الدول .

٨ — أن سلطان المماليك كان يتقلب بجملة ألقاب : فكان بيبرس يتلقب بلقب « قسيم أمير المؤمنين »[٦] و « زعيم أمراء المماليك»[٧]. وكان الناصر يتلقب « بالسلطان الملك الناصر ، السيد العالم العادل ، المظفر المنصور ، ناصر الدنيا والدين ، سلطان

---

Allan : The Cambridge Shorter History of India, pp. 226—236. =

Howorth : History of the Mongols, part III, pp. 426—427.

(١) ابو الفداء : المختصر فى أخبار البشر جـ ٤ ص ٥٣—٥٤ . ابن خلدون : العبر جـ٥ ص ٢٠ : — ٤٣٠ . القريزى : السلوك جـ٢ ص ١٤٢—١٤٤ .

Camb. Med. History, Vol 4, p. 180.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٦ ص ٤٢١—٤٢٦ Enc. Isl. art Al—Nasir.

(٣) العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٨٤ .

Van Berchem : Corpus, Egypte, I. pp. 127, 497.

Arnold : The Caliphate, p. 100.

(٤) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر جـ ٣ ص ٥٣ . المقريزى : كتاب السلوك جـ٢ ص ١٦١

Enc. Isl. art. Al Nasir.

Weil : Geschichte der Abbasiden Chalifats. I. pp. 337 et Seq.

(٥) المقريزى : كتاب السلوك جـ ٢ ص ١٦٣ — ١٦٤ ، ٢٥٩ . أبو المحاسن . المنهل الصافى ( مخطوط ) جـ ٣ ص ٢٦٠ — ٢٥٢ .

(٦) تلقب بيبرس بهذا اللقب حين وفد عليه بمصر الإمام المستنصر بالله أحمد فى رجب سنة ٦٥٩ هـ فبايع السلطان ولقبه « قسيم أمير المؤمنين » . وجاء ذكر هذا اللقب أيضا عندما بويع بيبرس سنة ٦٦١ هـ من الخليفة العباسى الحاكم بأمر الله . راجع كتاب السلوك جـ ١ ص ٤٤٧ .

(٧) وهذا الوصف « زعيم أمراء المماليك » premier des emirs يشبه ما كان حادثا فى أوروبا فى أوائل العصور الوسطى ببعض الممالك حيث كانت الملكية انتخابية ، فاعتبر الملك أول أقرانه من بين أمراء الدولة primus inter pares

الإسلام والمسلمين، محيي العدل فى العالمين، منصف المظلومين من الظالمين، وارث الملك، سلطان العرب والعجم والترك، اسكندر الزمان، صاحب القبلتين، خادم الحرمين الشريفين. سيد الملوك والسلاطين»[1].

ولا شك أن هنا يبين مدى ما بلغه السلاطين من القوة والعظمة. خصوصا إذا عرفنا أن تلك الألقاب لم تكتسب لهم عفواً، وإنما اتخذوها إثر حوادث وظروف معينة. وقد دونت تلك الالقاب وأمثالها فى الرسائل التى تبودلت بين السلاطين وبين ملوك أوربا[2]. وفى الكتابات التاريخية. وعلى السكة، والعمائر، والتحف الفنية، وفهارس دار الآثار العربية وغيرها.

أما عن الحكومة المصرية فى سلطنة المماليك فنلاحظ:

٩ — أن اختيار موظفى البلاط السلطانى الذين كان يعهد اليهم بأمر إدارة البيوت أو الإدارات السلطانية العديدة تطلب كياسة ومرونة من جانب السلطان، لأنه كان ملزماً بأن يعمل على إرضاء أتباعه الكثيرين. لذلك اتبع سياسة الإكثار من عدد الموظفين فى القصر فأدى ذلك إلى تخفيف حدة الأحقاد فى نفوس كبار المماليك على السلطة والنفوذ، وإلى إكساب بلاط السلاطين رونقاً وبهاءً وعظمة أكثر مما كانت عليه الحال قبل وصول المماليك الى عرش السلطنة.

وكانت اختصاصات بعض الموظفين مشتركة: كما كان يحدث بين القاضى، ووالى

(١) وردت هذه الألقاب كاملة فى كتاب الناصر بتاريخ ٢٠ أغسطس سنة ١٣٢٧ م ( ٧٢٨ م ) رداً على رسالة يعقوب ملك أرغونه. انظر Atiya : Egypt and Aragon, pp. 57—69.

وراجع أيضاً: القلقشندى: صبح الأعشى ج ١٠ ص ٥٩.

و Zettersteen تاريخ سلاطين المماليك ص ٢٥، ٥٣.

Van Berchem : Corpus, Egypte I, pp. 152—155, 167—160.

Mayer : Saracenic Heraldry. pp. 163—164.

ويوجد فى دار الآثار العربية كرسى من النحاس على شكل منشور ذى ستة أضلاع، مطعم بالذهب والفضة ومخرم. وسطحه وجوانبه مزينة بالزخارف الهندسية والنباتية والخطية وفيه صور بط يطير. وجد فى مارستان السلطان الناصر محمد وعليه ألقاب هذا السلطان واسم صانعه محمد بن سنقر البغدادى وتاريخ عمله ٧٢٨ هـ.

(٢) راجع Atiya : Egypt and Aragon

القاهرة ، والمحتسب . كذلك كانت سلطة الوظائف تتوقف إلى حد كبير على شخصية شاغليها فقد كان يقوى نفوذ بعض الموظفين وتظهر مواهبهم فيطغون على اختصاص غيرهم ، كما أن السلطان كان يعمل على إلغاء بعض الوظائف إذا لم يرضَ عن أصحابها ويعمد إلى إنشاء وظائف أخرى إذا أثبت أصحاب الوظائف الملغاة عجزاً عن القيام بأعبائها من جهة واستقلالا فى الرأى من جهة أخرى، كما حدث حين ألغى الناصر محمد سنة ٧٢٧ هـ منصبى الوزارة ونيابة السلطنة واستعاض عنهما بوظيفة ناظر الخاص .

ومثل هذا الاضطراب فى الوظائف واختصاصها أمر غير مستغرب فى بيئه لم تكن النظم الإدارية فيها قد وضعت على أسس وقوانين مستقرة تمام الاستقرار . وبفضل ماجاء فى المصادر العربية ، وما ورد فى الكتابات التاريخية [١] أمكن تعرُّف الألقاب الكثيرة التى تشهد بتعدد الوظائف الإدارية فى مصر فى عصر المماليك وجنسية الأشخاص الذين كان يُختار منهم موظفو الدواوين كديوان الإنشاء والخاص والأحباس والنظر ، كما أمكن تعرف قواعد الترقى والتأديب بين الموظفين .

١٠ — أن سلاطين المماليك الأقوياء أمثال بيبرس وقلاوون والناصر محمد لم يعهدوا — على ما عرف عن بعض السلاطين الضعفاء — فى الإشراف على شئون الدولة إلى كبار الأمراء بل كانوا يباشرون هذه الشئون بأنفسهم لأن كلا منهم كان يعتبر : رئيس الدولة الأعلى ، والمهيمن على شئون الأمراء الخاصة والعامة ، وصاحب الحق فى تدرجهم فى مراتب الرقى [٢] ، وتوزيع الإقطاعات على الأمراء والجنود وتحديد أنصبتهم فيها [٣]،

---

(١) Van Berchem : Corpus, Egypte, I, pp. 227—228.

Hautecoeur et Wiet : Les Mosquées du Caire, p. 57.

(٢) راجع : القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ١٥ . المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢١٥ . الخالدى : المقصد الرفيع المنشا ص ١٢٣ .

Poliak : Feudalism in the Near East, p. 3.

Demombynes : la Syrie, p. XXXVII.

حيث تجد تفصيلات عن تدرج الأمراء بأمر السلطان من أمير خمسة إلى أمير عشرة إلى أمير أربعين إلى أمير مئين .

(٣) انظر موقف السلطان لاجين والسلطان الناصر من الأمراء والأجناد حين راكا البلاد فى سنتى ٦٩٦ هـ ، ٧١٥ هـ . راجع :

المقريزى . الخطط جـ ١ ص ٨٨ — ٩١ . وكتاب السلوك جـ ١ ص ٨٤٢ — ٨٤٦ .

وتعيين كبار موظفى الدولة وعزلهم وتأديبهم ، والنظر فى المظالم [١] ، وقيادة الجيوش التى طالما خاضوا بها غمار الحروب بأنفسهم . على أنهم رغم هذا لم يكونوا مطلقى التصرف ، فإنهم كانوا إذا أرادوا البت فى مشروع من مشروعات الدولة الحيوية أو إعلان حرب أو إبرام صلح عقدوا « مجلس السلطنة » من كبار الموظفين للاستئناس بآرائهم قبل أن يقدموا على تنفيذ مشروعاتهم وخططهم [٢] .

١١ — أن اضطراب أحوال مصر وكثرة الفتن والثورات فى عهد كثير من سلاطين المماليك ، كان يرجع إلى عدم استقرار الأحوال الاقتصادية فى البلاد . إلا أن السلطان الناصر قد أدرك هذا فى سلطنته الثالثة ، فعمل على تلافى ذلك بأن نظم كل ما يتصل بالحالة المالية والاقتصادية تنظيما كفل للبلاد حياة مستقرة .

ويتضح لنا مدى هذا الاستقرار من حرصه على إرضاء الأمراء والجند بتحديد أنصبتهم فى أرض مصر فى الروك [٣] الذى أمر باجرائه سنة ٧١٥ هـ وعرف فى تاريخ دولة المماليك باسم « الروك الناصرى » نسبة إليه ، ومن ندرة المجاعات فى عصر الناصر [٤] ، ومن تلك الأموال الوفيرة التى كانت تدفع منها أرزاق موظفى الدولة وتوزع منها العطايا والمنح على الأدباء وينفق منها على وجوه الإصلاح التى كانت من أهم مظاهر عصر الناصر من كرى الانهار ، وشق الترع ، وبناء المساجد ، والمدارس ، والمنشئات الخيرية حتى تميز ذلك العصر بتلك المبانى الخالدة من قصور منيعة وقلاع شامخة ومساجد ضخمة تشهد لعصره بالقوة والثروة والجاه ، حتى يمكن القول إن الناصر كان أعظم سلاطين المماليك شغفاً بالبناء والتشييد . وإن تلك الثروة الطائلة التى تجمعت فى خزانة المماليك ساعدتهم على توجيه عنايتهم إلى الجيش . وكان لنشأة المماليك الحربية أثر بالغ فى

= ابن الجيعان : التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية ويعد أوفى مصدر فى موضوع الروك الناصرى .
Enc. Isl. art. Egypt.
Michel : L' organisation Financière de L'Egypte p. 142.
Poliak : Feudalism in the Near East, pp. 23—28.

(١) انظر هيئة السلطان عند النظر فى المظالم بدار العدل فى المقريزى . الخطط جـ ٢ ص ٢٠٦ — ٢٠٩ .

(٢) Zetterstéen • تاريخ سلاطين المماليك ص ١٤٦ .

(٣) الروك : مسح أرض الزراعة فى بلد من البلاد لتقدير الخراج المستحق عليها لبيت المال .

(٤) اقرأ كتاب « إغاثة الأمة بكشف الغمة » للمقريزى الذى نشره الدكتور زيادة .

تأسيس جيش ثابت منظم . فقد اهتم السلاطين بتدريب الجيوش المملوكية وتزويدها بالمعدات الحربية على اختلافها والعناية بصناعة السفن الحربية حتى أصبح للأسطول المصرى فى عهد بيبرس شأن عظيم .

***

هذه هى أهم النتائج التى يمكن الوصول إليها من دراسة عصر المماليك . الذى أصبحت مصر فيه امبراطورية شاسعة الأرجاء ، مترامية الأطراف . وغدت القاهرة مركز الزراعة والصناعة والتجارة ، وقبلة الأنظار ، وكعبة القصاد .

# مصـــــادر فارسية
# فى
# التـــاريخ الإسلامى

بقلم

ابراهيم أمين الشواربى

---

امتاز القرن الثامن الهجرى فى إيران بمجموعة من الموسوعات التاريخية المعاصرة ميزته مع القرن الذى يليه مباشرة بأنه عصر كتابة التاريخ فى ايران .

أما التأليفات التاريخية التى سبقت هذين القرنين فكانت قليلة متباعدة الأزمنة ، وكان أغلبها من نوع « التاريخ الخاص » أى الذى يتعلق بدويلة من الدويلات ، أو ببلدة من البلدان ، كما نجد فى الكتب التالية : -

« تاريخ اليمينى » فى الدولة الغزنوية الذى كتبه أبو نصر العتبى أصلا باللغة العربية فى القرن الخامس الهجرى ، ثم نقله أبو الشرف ناصح الجربادقانى إلى اللغة الفارسية فى أوائل القرن السابع الهجرى .

و « راحة الصدور » للراوندى فى تاريخ الدولة السلجوقية ، انتهى منه فى النصف الأخير من القرن السادس.

و « تاريخ طبرستان » لمحمد بن الحسن بن اسفنديار الذى ألفه فى أوائل القرن السابع

و « تاريخ جهان كشا » لعطا ملك الجويني ، وقد أكمل تأليفه في سنة ٦٥٨ هـ .

هذا بالإضافة إلى كثرة أخرى من التواريخ « الخاصة » أو « المحلية » التي نشأت في عصور متفاوتة والتي لدينا منها عدد كبير على نمط « تاريخ طبرستان » كتب عن اصفهان وشيراز ويزد وقم وهرات وسيستان وششتر وأغلب المدن الإيرانية الهامة . وقد نشر دورن Dorn جملة من هـــذه التواريخ ولكن كثرتها لازالت خطية تحتاج إلى النشر(١).

فإذا بدأ القرن الثامن بدأت معه كتابة التاريخ العام في إيران باللغة الفارسية ، فظهرت جملة من الموسوعات التاريخية الموثوق بها . أصبحت العماد في دراسة تاريخ إيران على الخصوص . كما أصبحت مرجعاً من أهم المراجع لدراسة التاريخ الإسلامي على وجه العموم .

وقد امتد تأليف هذه الموسوعات التاريخية أكثر من قرنين من الزمان ، أي من بداية القرن الثامن إلى نهاية القرن التاسع وبداية العاشر ، ولم تقف مع هذا كتابة التواريخ المحلية أو الخاصة ، بل ظلت تكثر وتنتشر لأن القرن الثامن في ايران كان عصر دويلات صغيرة أخذت تتنافس في تسجيل تواريخها ، فأخرجت لنا مجموعة من الرسائل التاريخية الخاصة التي استطاعت أن تحتفظ بمكانتها إلى جانب هـــذه الموسوعات الكبيرة .

وعلى هذين النوعين من كتب التاريخ يجب أن يعتمد الباحث في دراسته للتاريخ الإسلامي والإيراني ، فكتب التاريخ العام تفيده من ناحية ربطها للحوادث وتنسيقها للوقائع التاريخية ، كما أن كتب التاريخ الخاص تزوده بمعلومات وتفصيلات ربما لاتهتم بها كتب التاريخ العام لسعة نطاقها وكثرة الموضوعات التي تتناولها .

وسيشمل حديثنا فيما يلي الكلام على مجموعة من أهم الكتب التاريخية التي كتبت بالفارسية مرتبة بحسب تاريخ تأليفها كالآتي :

---

(١) انظر كتاب Literary History of Persia by E. G.Browne Vol, II. P. 480.

| اسم الكتاب | اسم المؤلف | سنة التأليف |
|---|---|---|
| ١ — تاريخ جهان كشاى . . | علاء الدين عطا ملك الجوينى | ٦٥٠—٦٥٨ هـ |
| ٢ — جامع التواريخ . . | رشيد الدين فضل الله . . | ٧١٠ هـ |
| ٣ — روضة أولى الألباب فى تواريخ الأكابر والأنساب | فخر الدين أبو سليمان البناكتى . . . . . . . | ٧١٧ هـ . . . |
| ٤ — تاريخ وصّاف . . | أبو عبدالله بن فضل الله الشيرازى | ٧٢٨ هـ |
| ٥ — تاريخ گزيده . . . | حمد الله المستوفى القزوينى | ٧٣٠ هـ |
| ٦ — ظفر نامه . . . . | » » » » | ٧٣٥ هـ |
| ٧ — مجمع الأنساب . . . | محمد بن على شبانكاره . . | ٧٣٣—٧٤٣ هـ |
| ٨ — شهنشاه نامه . . . | أحمد تبريزى . . . | ٧٣٨ هـ |
| ٩ — غازان نامه . . . | نور الدين بن شمس الدين محمد | ٧٦٣ هـ |
| ١٠ — مواهب إلهى . . . | معين الدين اليزدى . . | ٧٦٧ هـ |
| ١١ — ظفر نامه . . . . | نظام الدين شامى . . . | ٨٠٦ هـ |
| ١٢ — ظفر نامه . . . . | شرف الدين على اليزدى . | ٨٢٨ هـ |
| ١٣ — زبدة التواريخ . . . | حافظ ابرو . . . . | ٨٣٠ هـ |
| ١٤ — المجمل . . . . | فصيحى خوافى . . . | ٨٤٥ هـ |
| ١٥ — مجمع السعدين ومطلع البحرين | كمال الدين عبد الرزاق السمرقندى | ٨٧٥ هـ |
| ١٦ — روضة الجنات فى تاريخ هرات | معين الدين محمد الاسفزارى | ٨٧٥ هـ |
| ١٧ — روضة الصفا . . . | محمد بن خاوندشاه ـ ميرخواند | ٩٠٣ هـ |
| ١٨ — مآثر الملوك . . . | غياث الدين بن همام الدين خواندمير | |
| ١٩ — خلاصة الأخبار فى بيان أحوال الأخيار | » » » » » | ٩٠٥ هـ |
| ٢٠ — حبيب السير فى أخبار أفراد البشر | » » » » » | ٩٣٩ هـ |

# ١ ـ تاريخ جهان كشاى

## تأليف عطا ملك الجوينى فى سنة ٦٥٨ ﻫ

أول هذه التواريخ وأجدرها بالاعتبار ، وإن كان تأليفه سابقاً على الفترة التى حددناها فى بداية هذا البحث هو تاريخ جهان كشاى — أو فاتح العالم — لمؤلفه عطا ملك الجوينى .

وهذا الكتاب يتناول تاريخ المغول إلى سنة ٦٥٥ ﻫ ، ولكن بعض نسخه يشتمل على ملحق فيه وصف لغارة المغول على بغداد وتخريبها وتحطيم الخلافة ، وهى الحوادث التى وقعت فى سنة ٦٥٦ ﻫ ، وربما كانت هذه الزيادات من وضع مؤلف آخر غير الجوينى

والكتاب فى ثلاثة مجلدات تشتمل على الموضوعات الآتية :

الجزء الأول : عن أصل المغول وفتوح جنكيز خان .

الجزء الثانى : عن حكام خوارزم المعروفين بال « خوارزمشاه »

الجزء الثالث : عن تاريخ الاسماعيلية إلى تحطيم حصنهم فى قلعة « اَلَمُوت » على يد هولاكوخان فى سنة ٦٥٥ ﻫ .

وعلى هذا يمكن أن نعتبر الكتاب من باب الكتب المؤلفة عن شخص بعينه ، وأن نعدّه تاريخاً خاصاً لجنكيز خان ، أضاف إليه مؤلفه فصلين عن تاريخ الخوارزمشاه والاسماعيلية ، لا لشىء إلا ليفصّل بهما حروب جنكيز خان مع هاتين الجماعتين حتى استطاع فى النهاية أن يقضى عليهما .

ويعتبر تاريخ الوصاف — الذى سيأتى الحديث عنه فيما بعد — تكملة لتاريخ جهان كشاى ، ولكننا سنؤخر الكلام عنه إلى أن نعرض له حسب ترتيبه .

ومصنف « جهان كشاى » هو صاحب الديوان علاء الدين عطا ملك الجوينى ، كان من أسرة قديمة عاصرت دولة السلاجقة ودولة الخوارزمشاه ، وبلغت منزلة عالية أيام المغول فاشتغل كثير من رجالها بأعمال الديوان ، وكانوا يحملون لقب «صاحب ديوان» وهو لقب يخول لصاحبه إدارة الشئون المالية فى المملكة أو ما يقابل لقب « مستوفى الممالك » أو وزير المالية فى هذه الأيام .

وقد لقب هو وأخوه شمس الدين محمد الجويني بلقب « صاحب الديوان » لأنه مكث مدة طويلة حاكما للعراق بينما كان أخوه شمس الدين يتولى الوزارة أيام أباقاخان ابن هولاكو ، ويرجع نسب « الجويني » فيما يقولون إلى الفضل بن الربيع وزير الرشيد والأمين العباسيين ، وقد كان هذا النسب مدعاة إلى كثير من القدح الذى وجهه إلى الجوينيين خصمهم العنيد « ابن الطقطقى » صاحب كتاب الفخرى حينما أثبت فى عبارات لاذعة أن « الفضل » كان لقيطاً لا يعرف له أب وتعجب من « عطا ملك » كيف يفخر بانتسابه إليه (١)

أما والده بهاء الدين محمد بن محمد صاحب الديوان : فقد اشتغل مع كثير من حكام المغول الذين كانوا يبعثون بهم من منغوليا إلى البلاد الغربية التى فتحوها فى الفترة التى توسطت فتوحات جنكيزخان ودخول حفيده هولاكو إلى إيران ، واستطاع فى النهاية أن يصل إلى حكومة العراق من قبل أرغون ولكنه ما كاد يدخل مستقر حكومته فى أصفهان حتى أدركته المنية فى سنة ٦٥١ هـ ... ولبهاء الدين جملة من الأشعار العربية والفارسية مذكورة فى كتاب جهان كشاى وكذلك فى كتاب تاريخ الوصاف وفى كتاب « شرف إيوان البيان فى شرف بيت صاحب الديوان » للقاضى نظام الدين الأصفهانى

وقد ولد علاء الدين عطا ملك الجوينى فى سنة ٦٢٣ هـ وقد أخبرنا فى مقدمة كتابه أنه التحق بخدمة الديوان فى سن مبكرة لم يبلغ فيها العشرين من عمره ، فكان من خاصة الكتاب أيام أرغون وكثيراً ما اضطر إلى مصاحبته فى أسفاره الكثيرة إلى عاصمة المغول فى قراقورم .

والظاهر أنه فكر فى كتابة تاريخه « جهان كشاى » فى إحدى الفترات التى أقامها مع سيده فى قراقورم ما بين صفر سنة ٦٥٠ ورجب سنة ٦٥١ فقد ذكر صراحة أن جماعة من إخوانه أشاروا عليه فى تلك المدة بكتابة تاريخ جامع لأحوال جنكيزخان يسجل فيه مآثره ومفاخره ، فتردد فترة فى قبول هذا الملتمس ولكنه امتثل فى النهاية لأمرهم وبدأ يقيد ما سمعه أو شاهده بنفسه فاستغرق ذلك منه السنين الثمانى التالية (٢) .

---

(١) ابن الطقطقى فى كتابه الفخرى ص ٢٣٩ — ٢٤١ طبع درنبورغ .

(٢) تاريخ جهان كشاى ص ٢ — ٣ من الجزء الأول طبع ليدن سنة ١٩١١ ضمن سلسلة اوقاف جب التذكارية .

وقد استمر « عطا ملك » فى خدمة الأمير أرغون إلى سنة ٦٥٤ هـ. ، ثم انتظم بعد ذلك فى خدمة هولاكوخان فأصبح من خواص ملازميه وصحبه فى جميع حروبه مع « الإسماعيلية » ، وهو الذى كتب شروط التسليم التى أملاها هولاكوخان عند غلبته عليهم فى قلعة « ميمون دژ » وقد وكله مولاه فى الاطلاع على مكتبة الاسماعيلية فى حصن « الموت » فقام على مهمته خير قيام وأمر بإحراق الفاسد من كتبهم وإبقاء الصالح منها وكان من حسن الحظ أن أبقى على كتاب هام من كتبهم عن تاريخ الحسن الصباح اسمه « سرگذشت سيدنا » اختصره فى الجزء الثالث من كتابه « جهانكشاى » كما أورد عنه بعد ذلك رشيد الدين فضل الله نبذة مفصلة فى كتابه جامع التواريخ .

وقد بقى « عطا ملك » حاكما على العراق طوال حكم هولاكوخان وابنه أباقاخان إلى أن ابتلى فى أواخر أيامه بوشاية مجد الملك اليزدى ، الذى اتهمه هو وأخاه بالاتفاق مع ملك مصر الظاهر بيبرس البندقدار ( ٦٥٨ — ٦٧٦ هـ ) على تسليم العراق له .

وقد غضب أباقاخان عند سماعه هذه التهم وأمر بالقبض على أتباع شمس الدين صاحب الديوان ، ولكنه احتمى بزوجته « أولجاى خاتون » ورأى من الخير أن يرد كيد أعدائه بأن يتنازل للملك المغولى عن جميع ممتلكاته حتى يستطيع بذلك أن ينقذ نفسه وأهله وأتباعه ... فقبل أباقاخان هذا الحل وأصدر أمره فى سنة ٦٧٩ هـ بعزله وتولية مجد الملك على حكومة المغول فكان ذلك انتصاراً كبيراً له وإيذاناً بتقلص أمر الجوينيين وذهاب دولتهم .

وقد شرح علاء الدين هذه المصائب التى حلت بهم فى رسالتين نفيستين ، إحداهما مسماة بـ « تسلية الإخوان » والأخرى لا يعرف اسمها على وجه التحقيق ولكنها متممة للأولى وفى معناها[١] .

وقد استمرت المنافسة بين مجد الملك والجوينيين إلى أن تولى عرش المغول « احمد تكودار » فأمر بقتل مجد الملك فى بداية سنة ٦٨١ هـ . وبعد ذلك بقليل مات علاء الدين فلما تولى أرغون خان الملك أمر بقتل شمس الدين صاحب الديوان وقتل سائر أسرته

(١) تسلية الاخوان موجودة فى ذيل النسخة الرقيمة Suppl pers. 1556 والرسالة الثانية موجودة فى ذيل النسخة الرقيمة Suppl pers. 206 .

فى حديث طويل ليس هذا مجاله ولا موضعه[١]

* * *

إلى هذه الحياة التى ربطت عطا ملك الجوينى بحكام المغول يرجع الفضل الأكبر فى أهمية كتابه « تاريخ جهان كشاى » فهو تاريخ جامع لأحوال جنكيز خان انتقاه من مصادر شاهدها بنفسه ولمسها بنفسه فجاءت أخباره موثوقاً بها ، وأصبح كتابه من أجل ذلك المصدر الأول فى موضوعه ، والمرجع الذى رجع إليه المؤرخون اللاحقون فجعلوه وردهم وعماد نقلهم.

وقد طبع الكتاب بأجزائه الثلاثة ضمن سلسلة أوقاف جب التذكارية[٢]

## ٢ ـ جامع التواريخ

### تأليف رشيد الدين فضل الله فى سنة ٧١٠ هـ

كان المؤلف الطبيب الخاص لأبا قاخان واستمر مقرباً لدى ملوك المغول إلى أن تولى الوزارة فى أيام « غازان خان » الذى جلس على العرش فى ذى الحجة سنة أربع وتسعين وستمائة . فلما أمر « غازان » بقتل وزيره « صدر الدين الزنجانى » المعروف بـ « صدر جهـــان » أشركه فى الوزارة مع « سعد الدين الساوجى » ثم استصحبه معه سنة ٦٩٩ إلى الشام حيث كان يقاتل الملك الناصر ملك مصر .

وبقى رشيد الدين وزيراً أيام « الجايتو محمد خدابنده » ونال حظوة كبيرة لديه ، واستطاع أن يبنى فى عاصمة المغول الجديدة المعروفة بالسلطانية ، ناحية جميلة أسماها « الرشيدية » نسبة إليه ، بنى فيها مسجداً جميلا ومدرسة وداراً للشفاء وكثيراً من المنازل والأبنية العامة ، وبعد ذلك بقليل بنى ناحية أخرى جميلة بالقرب من « الغزنية » التى نشأت حول مقبرة غازان إلى شرقى تبريز .

وفى هذه الأثناء دبرت المكائد ضد شريكه فى الوزارة « سعد الدين الساوجى »

---

(١) ارجع إلى تاريخ الوصاف طبع الهند ص ١٤١ — ١٤٤ .

(٢) طبع الجزء الثالث منه على حدة أستاذى الجليل المرحوم السير دنيسون رُس Sir Denison Ross مدير معهد الدراسات الشرقية بجامعة لندن فى صورة بالفتوغرافيا عن أصله المخطوط .

وانتهى الأمر بقتله، وحل محله «على شاه» الذى أصبح بعد ذلك أكبر منافس لرشيد الدين، خلال الأيام الباقية من حكم الجاتيو وحكم خليفته السلطان أبى سعيد.

وقد اتهمه على شاه بأنه بالاشتراك مع ابنه «ابراهيم بن رشيد الدين» قد دس السم لـ«ألجايتو»، فأمر السلطان أبو سعيد بإعدامها فى ١٧ جمادى الأولى سنة ٧١٨ وأباح الغارة والنهب العام فى الحى الذى بناه رشيد الدين فى تبريز المسمى «بربع رشيدى»، كما أمر بمصادرة أمواله وأراضيه واستباحة أقاربه عبيداً لأول من يلاقيهم [١].

هذه هى النهاية المفجعة لكاتب ومؤرخ وطبيب ووزير من الطراز الأول، يرجع إليه الفضل فى تأليف تاريخ عام باللغة الفارسية اشتمل على الأجزاء التالية:

الجزء الأول: يشتمل على بابين:—

الباب الأول: يشتمل على مقدمة وأربعة فصول فى تاريخ القبائل التركية والمغولية وأصولها وأنسابها.

الباب الثانى: تاريخ جنكيز خان وأجداده وأحفاده إلى أيام غازان خان.

الجزء الثانى: يشتمل أيضاً على مقدمة وبابين:—

المقدمة: عن آدم والرسل والأنبياء.

الباب الأول: أربعة فصول عن تاريخ ملوك فارس قبل الإسلام.

الباب الثانى: تاريخ النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين وخلفاء بنى أمية وبنى العباس إلى تحطيم الخلافة على يد المغول فى سنة ٦٥٦ هـ.

وكذلك يشتمل هذا الجزء على تاريخ الدويلات الفارسية اللاحقة للاسلام كدولة «الغزنويين»، و«السلاجقة»، و«ملوك خوارزم»، و«حكام فارس»، ثم تاريخ «الاسماعيلية»، ثم تاريخ «الأتراك»، و«الصين»، و«اليهود»، و«الفرنج»، و«روما»، و«الهند». ثم ينتهى بمقالة طويلة عن الديانة البوذية ومؤسسها «ساكيامونى».

---

(١) انظر ص ٥٨٥ وما يليها من كتاب
History of the Mongols, Part III, by H. H. Howorth
وكذلك ص ١١٥، مجلد ٣، جـ ١ من «حبيب السير» لخواند أمير.

وقد نشر Quatremère الجزء المتعلق بهولاكوخان مع ترجمة إلى اللغة الفرنسية في سنة ١٨٣٦ (١) .

وفى مقالة للاستاذ براون فى مجلة (٢) الجمعية الملكية الأسيوية بلندن لشهر يناير سنة ١٩٠٨ اقترح الأستاذ « براون » ترتيباً آخر لكتاب « جامع التواريخ » يمكن من نشره فى مجموعتين من سبعة مجلدات :

١ — المجموعة الأولى تتعلق بالأتراك والمغول

المجلد الأول : أصل الأتراك إلى وفاة جنكيزخان

المجلد الثانى : من تولى أوقتاى إلى وفاة تيمور الجاتيو حفيد قبلاى خان (٣)

المجلد الثالث : من تولية هولاكو خان إلى وفاة غازان خان . ويمكن أن يضم إلى هذا القدر التاريخ المكمل لدولة الإيلخانية إلى نهاية أيام أبى سعيد الذى أمر بجمعه فيما بعد « الشاه رخ » .

٢ — المجموعة الثانية تتعلق بالتاريخ العام

المجلد الرابع : المقدمة مع تاريخ لملوك إيران قبل الإسلام إلى نهاية «آل ساسان» ثم الكلام على النبى صلعم .

المجلد الخامس : تاريخ الخلافة من أيام أبى بكر إلى أيام المستعصم .

المجلد السادس : تاريخ الدول الفارسية بعد الإسلام ويشمل الحديث على « الغزنويين » و « السلاجقة » و « ملوك خوارزم » و « أتابكة فارس » و « جماعة الاسماعيلية » .

المجلد السابع : تاريخ الصين واليهود والفرنج والهنود وبقية أجزاء الكتاب .

وقد انتهى رشيد الدين من تأليف تاريخه هذا فى سنة ٧١٠ هجرية ، ولم يستطع تقديمه برمته إلى « غازان خان » الذى توفى قبل ذلك فى سنة ٧٠٣ . فلما عرضه على « الجاتيو » أمره بأن يكمله ويهديه إلى « غازان خان » كما كان يزمع .

---

(١) جعل عنوان هذا الجزء هكذا :

Histoire des Monglos de la Perse, ecrite en Persan par Rachid-eldin

(٢) ص ١٧ — ٣٧ ، J. R. A. S. January 1988

(٣) هذا هو الجزء الذى نشره M. Blochet فى مجموعه : Gibb Nomorial Series, Vol. XVIII

ويقول « دولتشاه » فى « تذكرة الشعراء »[1] : أن المؤلف كان لا يجد متسعاً من الوقت لكتابة تاريخه غير الساعات المبكرة من الصباح ما بين صلاة الفجر ومطلع الشمس وذلك بسبب مشاغله الكثيرة بأمور الوزارة والدولة .

والظاهر أيضاً أن « اجاتيو » كان قد أمر المؤلف بكتابة جزء ثالث جغرافى وإضافته إلى الجزئين السابقين من الكتاب . ولكن هذا الجزء لم يصل إلينا على الإطلاق وربما ضاع أثناء الفاجعة التى أودت بحياة صاحبه أو ربما لم يتمكن صاحبه من إخراج فكرته إلى حيز التنفيذ .

## ٣ — روضة أولى الألباب فى تواريخ الأكابر والأنساب

### تأليف فخر الدين أبو سليمان البناكتى فى سنة ٧١٧ هـ

يعرف هذا الكتاب أيضاً باسم « تاريخ بناكتى » ، ولا شك أن مؤلفه استمد فكرته فى تأليف هذا الكتاب من « جامع التواريخ » لرشيد الدين فضل الله ، فقد خصص جزءاً كبيراً من كتابه كما فعل « رشيد الدين » للكلام على تاريخ الشعوب غير الإسلامية مثل الصين والهند واليهود والقياصرة وغيرهم .

ويشير « دولتشاه » فى « تذكرة الشعراء »[2] إلى هذه الحقيقة فيقول : « ودر أنساب سلاطين خطا وأقصاى هند وحالات يهود وقياصرة وغيرهم إطنابى ميكند . واز مؤرخان هيچ كس شرح اين حالات چون أو نداده ....... »

وهذا التاريخ يحتوى على تسعة أقسام :

القسم الأول : الأنبياء والرسل .

القسم الثانى : ملوك فارس الأقدمين .

---

(١) ص ٢١٧ طبع ليدن سنة ١٩٠٠ : « ودر خطبهٔ تاريخ باز نموده كه كتابت اين تاريخ از وقت صبح بعد أداى فريضهٔ وبعضى أوراد تا طلوع آفتاب بوده ، چون در أوقات ديگر فراغت بواسطهٔ أمور ملكى وأشغال ديوانى ميسر نبوده » .

(٢) ص ٢٢٧ من طبعة ليدن سنة ١٩٠٠ .

القسم الثالث : تاريخ النبي والخلفاء الراشدين .
القسم الرابع : الدول الفارسية المعاصرة للخلافة العباسية .
القسم الخامس : اليهود .
القسم السادس : المسيحيون والفرنج .
القسم السابع : الهنود .
القسم الثامن : الصين .
القسم التاسع : المغول .

والأخبار التي رواها « البناكتي » في الأجزاء الخمسة الأخيرة استمدها في كثير من تفاصيلها من « جامع التواريخ » ولكنه أضاف عليها بعض المعلومات التي سمعها من الأجانب الذين كانوا يرتادون قصور المغول في هذه العصور . ولعل ذلك هو السبب — كما يقول الأستاذ براون[١] — في أننا نجد بالكتاب إشارات عن حوادث تاريخية وقعت في بلاد بعيدة عن مواطن المسلمين كالبرتغال وبولندا وبوهيميا وانجلترا واسكتلنده وإرلنده وقطالونيا .

وكان « البناكتي » مؤرخا ممتازاً ، وشاعراً مقربا من سلاطين المغول وخاصة « غازان خان »[٢] .

وقد أتم تأليف تاريخه في شوال سنة ٧١٧ هـ وذكر ذلك صراحة في البيت التالي :

بسال ى ز ذ وشوال      شد أين دفتر تمام از قيل واز قال

## ٤ — تاريخ الوصاف

تأليف أبي عبد الله بن فضل الله الشيرازي في سنة ٧٢٨ هـ

التاريخ الذي وضعه مؤلفه تحت عنوان « تجزية الأمصار وتزجية الأعصار » ، عَرف فيما بعد باسم « تاريخ الوصاف » ، كما عُرف مؤلفه باسم « الوصاف » أو « وصاف الحضرة » لأنه كان يلازم ملوك المغول ويقوم بجباية الضرائب لهم .

---

(١) ص ١٠٢ من الجزء الثالث من كتاب التاريخ الأدبي لايران .
(٢) ص ٢٢٨ من « تذكرة الشعراء » طبع سنة ١٩٠٠ م .

وكان أبو عبد الله بن فضل الله الشيرازى معاصراً لرشيد الدين فضل الله الذى إليه يرجع الفضل فى تقديمه وتقديم كتابه إلى الجايتو فى مدينة « السلطانية » فى يوم الخميس الرابع والعشرين من شهر محرم سنة إثنى عشر وسبعمائة ، كما يقرر ذلك فى كتابه تحت عنوان « صفت عرض كتاب در سلطانية وشوالات سلطانى »[١] .

ويقع هذا التاريخ فى خمسة أجزاء تناول فيها المؤلف ذكر أحوال سلاطين المغول منذ نشأتهم إلى أيام السلطان أبى سعيد سنة ٧٢٨ هـ . ويعتبر فى الحقيقة متمما لكتاب تاريخ جهان كشاى الذى سبق الحديث عنه .

وذكر ريو « Rieu »[٢] فى تعليقه على هذا الكتاب أنه يتضمن معلومات تاريخية صحيحة عن فترة مهمة من فترات التاريخ ولكن أهميته تنقص قليلا لعدم ترتيبه ولأنه مكتوب بلغة تكثر فيها المحسنات اللفظية والبديعية .

والظاهر أن مؤلف الكتاب جعل موضوعاته التاريخية ميداناً يظهر فيه بلاغته وحسن عبارته وقدرته على الأساليب وبراعته بالاستشهاد بالنظم والنثر فأدخل كثيراً من المحسنات البديعية التى جعلت قراءته تمل القارىء الذى يلتمس حقائق التاريخ الخالصة وإن كانت تلذ إلى حد كبير القارىء اللغوى الذى تروقه العبارة وتعجبه الإشارة .

وقد تنبه صاحب كشف الظنون إلى هذه الحقيقة فقال [٣]

« . . . . . ولم يقصد فيه بيان التاريخ فقط بل أراد إظهار مهارته فى الإنشاء وإيراد لطايف النظم والنثر كما أشار إليه فى أوائل المجلد الثانى وهذه عبارته :

« معلوم با شد كه غرض از تسويد أين بياض مجرد تقييد أخبار وآثار نيست والا خلاصه انچه اين اوراق در موجزترين عبارتى بى شواهد وأمثال محرر شدى اما نظر بر آنست كه اين كتاب مجموعهٔ صنايع علوم وفهرست بدايع فضائل با شد ، وأخبار وأحوال كه موضوع عام تاريخست در مضامين آن بالعرض معلوم گردد چنانچه فضلاء وصاحب طبع بعد از تأمل شافى انصافى دهند كه در رشاقت لفظ وسياقت معنى وحسن مواضع تضمين برين نمط در عرب وعجم مسبوق بغيرى نيست » .

(١) ص ٥٤٤ وما يليها من « تاريخ وصاف » طبع بمباى سنة ١٢٦٩ هـ .

(٢) انظر ص ١٦٢ Cat. of Pers. MSS. in Brit. Mus.

(٣) ج ١ ، ص ١٧٦ ، طبع مصر سنة ١٢٧٤ .

ولم ينس طابع الكتاب أن يشير إلى أن المصنف نفسه اعترف بأن غرضه من تأليف الكتاب كان مقصوراً على إظهار فصاحته وبلاغته ، فأورد فى نهاية طبعته هذه العبارة [١] :

« وچنانچه مصنف خود إيراد نموده كه مقصود أصلى او نه تاريخ نويسى ووقايع نگارى بوده بلكه آنرا موضوع بدايع ترسل وعلم معانى وسخن رانى نموده وحكايات را بالعرض پيرايهٔ آنصور ساخته واز روى انصاف در سياقت‌سخن طرازى وشيوه فصاحت گسترى وحسن ابداع واختراع وتضمينات نظم ونثر وغيره مستغنى از اوصاف ، وصيت شهرت‌او جمله قاف‌تاقاف‌است ، سخن‌هر فصيحى‌در عين فصاحت اگر باوى لاف همسرى‌زند بلا خلاف همان حكايت زر دوز وبوريا بافست ، وكلام هر بليغى با كمال بلاغت اگر با او هم چشمى نمايد بدون گزاف همان حديث هماى وطريق خطا فست » .

وقد طبع هذا الكتاب طبعة جميلة على الحجر فى مدينة بمباى فى السادس عشر من شهر رجب سنة ١٢٦٩ تسع وستين ومائتين بعد الألف من الهجرة النبوية .

## ٥ — تاريخ گزيده

### تأليف حمد الله بن أبى بكر بن أحمد بن نصر المستوفى القزوينى فى سنة ٧٣٠ هـ

المعروف عن المؤلف قليل وإن كانت عبارات من كتبه تكشف لنا عن أصله بعض الشىء ، فهو ينتسب إلى أسرة قديمة فى قزوين عرفت باسم « مستوفيان » [٢] أرجعت نسبها إلى أصل عربى أوصلته إلى « حرّ بن يزيد الرياحى » . وكانت هذه الأسرة ، كما يدل عليها اسمها ، تشتغل بجمع الضرائب لملوك ايران وسلاطينها ، فكان جده « أمين الدين نصر » مستوفياً على العراق ، كما كان أخوه يشتغل مع « رشيد الدين فضل الله » الذى اليـــه يرجع الفضل فى اختيار « حمد الله » مستوفيا على « قزوين » و « أبهر » و « زنجان » ، وتقريبه اليه وتشجيعه على الدرس والتحصيل .

---

(١) ص ٦٥٧ من كتاب « وصاف الحضرة طبع الهند سنة ١٢٦٩ هـ .

(٢) جمع « مستوفى » وهو جامع الضرائب .

وقد استطاع « حمد الله » تأليف عدة من الكتب ، وصلنا منها ثلاثة هي :

ا — تاريخ گزيده ( التاريخ المنتخب ) .

ب — ظفر نامه ( كتاب الظفر ) .

ج — نزهة القلوب .

والكتاب الأخير من هذه الكتب جغرافى ، وأما الكتابان الأولان فتاريخيان ، ولذلك سأقصر الحديث عليهما :

تاريخ گزيده :

أكمل « حمد الله المستوفى » تأليف هذا الكتاب فى سنة ٧٣٠ ﻫ أى بعد سنتين من « تاريخ الوصاف » .

ويقول الأستاذ براون فى مقدمته الفارسية التى ألحقها بنسخة الكتاب المطبوعة فى لندن سنة ١٩١٠ « أن كتاب تاريخ گزيده أقل فى المرتبة من الكتب الثلاثة السالفة الذكر — أى « تاريخ جهان كشاى » و « جامع التواريخ » و « تاريخ الوصاف » ، وهو تقليد وتلخيص لكتاب جامع التواريخ « لرشيد الدين فضل الله » الذى يشير اليه دائماً « حمد الله المستوفى » بعبارة « المخدوم السعيد الشهيد » [1] .

وقد أهدى حمد الله المستوفى كتابه هذا لابن رشيد الدين المعروف بـ « خواجه غياث الدين محمد » الذى تولى الوزارة لأبى سعيد بعد مقتل « ركن الدين صاين » ، وهو الذى أهديت اليه جملة كتب لها شهرتها بين الكتب العربية والفارسية ، مثل « كتاب المواقف » لعضد الدين الايجى » والشمسية « لقطب الدين الرازى . و « جام جم لأوحدى المراغى ( منظومة بالفارسية ) و « هما وهمايون » لخواجه كرمانى محمد بن على مرشدى ( منظومة بالفارسية ) .

وتاريخ گزيده من نوع التاريخ العام يتناول بالبحث جميع ما عرف عن إيران منذ

---

(١) الأصل الفارسى لهذه العبارة هو ما يلى :

« تاريخ گزيده اگرچه فقط دو سال بعد از تاريخ وصاف يعنى در سنة ٧٣٠ تأليف شده است ، ولى از حيث رتبه وشأن از سه كتاب سابق الذكر پائين تر است . وفقط تقليد وتلخيص مانندى است از كتاب جامع التواريخ رشيد الدين فضل الله كه ازو غالبا در أثناء كتاب به مخدوم سعيد شهيد تعبير مى نمايد » .

الأنبياء والصديقين إلى سنة ٧٣٠ هجرية . وقد أشار مؤلف الكتاب نفسه إلى ذلك حيث يقول :(١)

« واين كتاب را گزيده نام كرده ، مبنى گردانيده بر ذكر أنبيا وأوليا وپادشاهان ووزراء إيران وآثارى كه از ايشان باز مانده از عهد آدم عليه السلام تا زمان تأليف اين مختصر كه در سنة ثلثين وسبعمائة هجرى مصطفويست » .

محتويات الكتاب

يقع كتاب تاريخ گزيده فى ٨٥٢ صحيفة من الصفحات المتوسطة الحجم وقد نشره الأستاذ براون فى لندن سنة ١٩١٠ م — فى طبعة بالفوتوغراف لمخطوط يرجع تاريخه إلى سنة ٨٥٧ هـ — ثم اشترك معه الأستاذ نيكلسون فى سنة ١٩١٣ فأخرجا ترجمة مختصرة إلى الانجليزية لهذا الكتاب مع الفهارس اللازمة له . ووضع هذان المجلدان ضمن المجموعة التذكارية لأوقاف (٢) جب تحت رقم ١٤

ويشتمل الكتاب على خطبة ثم فاتحة ثم ستة أبواب ، كل منها يضم بضع فصول على النحو الآتى :

الباب الأول : فى ذكر الأنبياء والحكماء الذين كانوا قبل الاسلام : فى فصلين

الفصل الأول : فى ذكر الأنبياء والرسل وأولى الحزم

الفصل الثانى : فى ذكر الحكماء

الباب الثانى : فى ذكر الملوك الذين عاشوا قبل الاسلام : فى أربعة فصول

الفصل الأول : البيشداديون — الفصل الثالث : ملوك الطوائف

الفصل الثانى : الكيانيون — الفصل الرابع : الساسانيون

الباب الثالث : فى ذكر محمد المصطفى صلعم وخلفائه أولاده وأصحابه وأحفاده ويشتمل على مقدمة وستة فصول .

مقدمة : فى شرح نسب النبى

الفصل الأول : فى شرح أحواله وغزواته وأزواجه وكتابه وأقربائه ومواليه ومخلفاته .

الفصل الثانى : فى الخلفاء الراشدين — الفصل الخامس : ملوك بنى أمية

الفصل الثالث : بقية الأئمة الاثنى عشر — الفصل السادس : خلفاء بنى العباس

الفصل الرابع : بعض الصحابة والتابعين

(١) ص ٨ من النسخة التى طبعها الأستاذ براون فى لندن سنة ١٩١٠م .

(٢) E. J. W. Gibb Memorial Series, Vol. XIV. 1 & 2 ...

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| الباب الرابع : | في ذكر الملوك الذين حكموا ايران بعد الاسلام : في ١٢ فصلا | | | |
| الفصل الأول : | الصفاريون | الفصل السابع | : | ملوك خوارزم |
| الفصل الثاني : | السامانيون | الفصل الثامن | : | الأتابكة ( حكام الشام وحكام فارس ) |
| الفصل الثالث : | الغزنويون | الفصل التاسع | : | الاسماعيلية |
| الفصل الرابع : | الغوريون | الفصل العاشر | : | قراختائيان |
| الفصل الخامس : | الديالمة أو آل بويه | الفصل الحادي عشر : | | أتابكة لورستان |
| الفصل السادس : | السلاجقة | الفصل الثاني عشر : | | ملوك المغول الإيلخانيين |
| باب ملحق : | عن آل المظفر ألحقه أحد الناسخين بنهاية الباب الرابع من هذه النسخة ولا وجود له في النسخ الأخرى | | | |
| الباب الخامس : | في ذكر الأئمة والمشايخ وعلماء الاسلام : في ستة فصول . | | | |
| الفصل الأول : | الأئمة والمجتهدون | الفصل الرابع : | | المشايخ |
| الفصل الثاني : | القراء | الفصل الخامس : | | العلماء |
| الفصل الثالث : | المحدثون | الفصل السادس : | | شعراء العرب والعجم |
| الباب السادس : | في ذكر مدينة « قزوين » مولد المؤلف ومنشأه : في سبعة فصول . | | | |
| الفصل الأول : | في تسمية قزوين . | | | |
| الفصل الثاني : | عمارات وأبنية قزوين . | | | |
| الفصل الثالث : | فتح قزوين وإسلام أهلها . | | | |
| الفصل الرابع : | نواحي قزوين وأنهارها وقنواتها ومساجدها ومقابرها . | | | |
| الفصل الخامس : | الصحابة والتابعون والأئمة والخلفاء والمشايخ والعلماء والملوك الذين زاروا « قزوين » | | | |
| الفصل السادس : | حكام قزوين . | | | |
| الفصل السابع : | القبائل والأسر القديمة في « قزوين » . | | | |

وقد نشر « ژول كانتن » الباب الرابع من هذا الكتاب باستثناء الفصل الثاني عشر مع ترجمة فرنسية له في باريس سنة ١٩٠٣ .

كما نشر « باربيه دومنار » ترجمة فرنسية للباب الأخير من « تاريخ گزيده » في « المجلة الاسيوية » Journal Asia tque, 1857, Series V, Tome 10.

كما نشر الأستاذ براون ترجمة انجليزية لشعراء العجم الذين ذكرهم المستوفى في الفصل السادس من الباب الخامس من كتابه (١) .

## ٦ — كتاب ظفر نامه

### تأليف حمد الله المستوفى فى سنة ٧٣٥ هـ

الكتاب التاريخي الآخر الذى ألفه حمد الله المستوفى هو « ظفر نامه » وهو عبارة

(١) J. R. A.S.October 1900 & January 1901..

عن منظومة كبيرة الحجم تحتوى على ٧٥,٠٠٠ بيت . نظمها المستوفى على نمط « الشاهنامه » فى البحر المتقارب وقصد بها أن تكون تكملة لمنظومة الفردوسى تشتمل على تاريخ العرب والعجم والمغول منذ بداية الاسلام إلى سنة ٧٣٢هجرية .

وهذه المنظومة هى أول ما اشتغل المستوفى بتأليفه من كتبه وهو يذكر ذلك فى مقدمة تاريخ گزيده [1] فيقول أنه كتب من منظومته ٥٠,٠٠٠ بيت وأنه يأمل أن يوصلها إلى ٧٥,٠٠٠ بيت ويقدمها إلى السلطان « أبى سعيد » ولكنه رأى أن يتعجل بكتابة التاريخ المنثور — أى تاريخ گزيده :

وچون أحيانا شعرى شكسته بسته اتفاق مى افتد درين علم هوس نظمى مى شود كه از أول عهد مصطفى صلى الله عليه وسلم تا اين زمان مبارك تاريخ منظوم مرتب گرداند . واز آن پنجاه وچند هزار بيت گفته شد . اگر توفيق رفيق گردد بهفتاد وپنج هزار خواهد رسانيد وبألقاب همايون مخدوم ومخدوم زاده جهانيان لا زال قصر عمره عامراً وعمر خصمه قاصراً موشح گرداند . أما چون آن منظوم هنوز از صورت سواد بكسوت بياض منقول نگشته عجالة الوقت را موجزى منثور كه بالحقيقة مجمل اين فنست ترتيب داده مطرز گردانيدم .

وقد بدأ المؤلف تأليف منظومته فى الأربعين من عمره واستغرق تأليفها خمسة عشر عاما فأتمها فى سنة ٧٣٥ هجرية أى بعد « تاريخ گزيده » بخمس سنوات ثم اشتغل بعد ذلك بتأليف كتابه الجغرافى « نزهة القلوب » فأتمه فى سنة ٧٤٠ هـ . وقد خصص المؤلف فى منظومته ٢٥,٠٠٠ بيت للعرب و ٢٠,٠٠٠ بيت للعجم و ٢٠,٠٠٠ بيت للمغول .

وهناك نسخة وحيدة لهذا المؤلف القيم موجودة فى المتحف البريطانى تحت رقم Or 2825 وهى منسوخة فى شيراز سنة ٨٠٧ هجرية وتحتوى على ٧٧٩ ورقة .

ويقرر « ريو Rieu » فى تعليقه على هذه النسخة « أن أهمية « ظفر نامه » كبيرة ولا يجب أن نتغاضى عنها فمؤلفها دقيق فيما أورد من حوادث وتواريخ وخاصة فيما يتعلق بالجزء الثالث المخصص لتاريخ المغول . فبالنظر مثلا إلى الورقة ٥١٢ حيث يصف

(١) ٥ ص « تاريخ گزيده » طبع لندن سنة ١٩١٠ .

المذبحة التى قام بها المغول فى بلدته قزوين ، يمكننا أن نعلم أنه استقى معلوماته الصحيحة من جده « أمين نصر المستوفى » الذى بلغ من العمر الثالثة والتسعين »

## ٧ — مجمع الأنســـــاب

تأليف محمد بن على شبانكاره سنة ٧٣٣ أو ٧٤٣ هـ .

كان المؤلف شاعراً ومؤرخاً مثـل « فخر الدين البنا كتى » والظاهر أنه كتب « مجمع الانساب » مرتين ، كانت الأولى منهما فى سنة ٧٣٣ .

وكتابه عبارة عن مجمل لتاريخ عام للخليقة منذ بداية الزمن إلى موت أبى سعيد فى سنة ٧٣٦ هـ .

ويقول Ethé [١] أن النسخة الأصلية من هذا الكتاب قد ضاعت أثناء النهب العام الذى أصاب منزل غياث الدين محمد بن رشيد الدين ، وأن المؤلف اضطر عقب ذلك لكتابة نسخة أخرى من تاريخه اعتمد فيها على الذاكرة فأتمها فى سنة ٧٤٣ هـ .

والكتاب مقسم إلى أقسام وطبقات وگروه وطوائف ومحتوياته كما يلى :

المقدمة : العناصر الأربعة وخلق الإنسان والحديث عن العالم وطبقاته السبع وأقسام البشر .

القسم الأول : آدم .

القسم الثانى : الطبقة الأولى ، أولاد شيث .

الطبقة الثانية : فى أربعة كروهات .

١ — أعقاب الاسكندر . البطالسة . القياصرة . ملوك العرب والعراق واليمن .

٢ — الساسانيون .

٣ — الديالمة . السلاجقة والملاحد . وملوك خوارزم والغوريون .

٤ — حكام شبانكاره . حكام فارس . ملوك كرمان . ملوك شيراز . ملوك هرمز والمغول فى طائفتين .

---

(١) انظر : Rieu : Pers. Cat. pp. 83—4
وكذلك Ethé : India Office Pers. Cat. Cols. 10—11, No 21 & 22.

الطائفه الأولى : جنكيز خان وأحفاده فى الصين .
الطائفة الثانية : هولا كوخان وأحفاده فى ايران إلى موت أبى سعيد .
ويسمى هذا الكتاب فى بعض النسخ بجامع الأنساب أو بحر الأنساب .

## ٩ ـــ شهنشاه نامه

### تأليف أحمد تبريزى فى سنة ٧٣٨ ﻫ

عبارة عن منظومة فى البحر المتقارب تحتوى على ١٨,٠٠٠ بيت تتعلق بتاريخ المغول من جنكيز خان إلى سنة ٧٣٧ ﻫ ، وقد أهداها مؤلفها إلى السلطان أبى سعيد . وتعرف أحياناً باسم جنكيز نامه .

ويمكن معرفة عنوان المنظومة ولمن أهديت ، من هذه الأبيات التالية التى توجد فى مقدمتها[١]

شهنشاه نامه نهم نام اين
بنام شهنشاه روى زمين
خداوند گيتى وديهيم وگاه
جهان جهان آفرين را پناه
جوانبخت وفرمان روا بو سعيد
جهان آفرينش ز جان آفريد

ويظهر أن المؤلف قام بتأليف «شهنشاه نامه» بأمر أبى سعيد فأتمها فى ثمانية سنوات سنة ٧٣٨ ﻫ أى بعد موت أبى سعيد بسنتين فهو يقول فى النهاية هذين البيتين :

درين گفت وگوشد مرا هشت سال
گر احمـــد بنالد كى گويد منـال
چو از سال شد هفصد وسى وهشت
ستم ديده اين نامه را در نوشت

(١) انظر تعليقات Rieu عن هذا الكتاب فى Pers. Suppl. Cat. No 201, P. 135

## ٩ ــ غازان نامه

### تأليف نور الدين بن شمس الدين محمد فى سنة ٧٦٣ هـ [١]

هذا الكتاب أيضاً عبارة عن منظومة فى البحر المتقارب على نمط الشاهنامه لأبى القاسم الفردوسى . وتحتوى على ما يقرب من عشرة آلاف بيت . ولكنها وسقتها، كما يقرر براون فى كتابه عن "تاريخ الأدب لايران، لا يمتازان بشيء من الناحية التاريخية أو الشعرية ولو أن بعض المعلومات الهامة يمكن استخراجها منهما بشيء من العناية والمثابرة على الدرس .

وقد أورد صاحب كشف الظنون العبارة التالية عن هذا الكتاب :

« تاريخ غازان خان : نظم فارسى لشمس الدين محمد الكاشى المتوفى فى زمن السلطان أبو سعيد الجنكيزى فى حدود سنة ٧٣٠ ثلاثين وسبعمائة تقريباً [٢] » .

## ١٠ ــ مواهب إلهى أو تاريخ آل المظفر

### تأليف معين الدين اليزدى في سنة ٧٦٧ هـ

كل ما يعرف عن المؤلف هو ما ذكره Rieu فى تعليقه على إحدى النسخ الخطية المحفوظة بالمتحف البريطانى تحت رقم ADD 7632 .

وكتابه المعروف باسم « مواهب إلهى » عبارة عن رسالة تاريخية عن آل المظفر منذ بداية أمرهم سنة ٧١٨ هـ إلى موقعة « شيراز » التى وقعت بين الشاه شجاع وأخيه الشاه محمود فى سنة ٧٦٧ هـ [٣].

---

(١) Literary History of Persia, Vol. III, P. 103

(٢) كشف الظنون ، طبع مصر سنة ١٢٧٤ ، جـ ١ ص ١٧٠ .

(٣) أنظر تفصيل هذه الحوادث فى كتابنا عن « حافظ الشيرازى » طبع مطبعة المعارف سنة ١٩٤٤ ص ١٣٤ — ١٤٦ .

و « مولانا معين الدين » يعرف أيضاً باسم آخر هو « معلم يزدى » نسبة إلى مدينة « يزد » الموطن الأول لـ « آل المظفر » .

ويذكره مواطنه « محمد مفيد المستوفى » فى كتابه « جامع مفيدى »[١] فيقرر أنه : « كان أكبر علماء عصره ، وأن دروسه كان يحضرها كثير من الطلاب ، وكان الشاه شجاع من بين من يحضرون عليه أحياناً » .

وكتابه المسمى بـ « مواهب إلهى » أو « تاريخ معينى مظفرى » أو « تاريخ آل المظفر » يوصف بأنه مثل فى البلاغة ملىء بالمحسنات اللفظية والبديعية ومكتوب على نمط « تاريخ الوصاف » وأسلوبه ، وقد قرر ذلك أيضاً « حاجى خليفة » فى كتابه « كشف الظنون »[٢] حيث قال :

« تاريخ آل المظفر : فارسى لمعين الدين اليزدى ، ألفه فى سنة ٧٥٧ سبع وخمسين وسبعمائة وسماه « مواهب إلهى » قصد فيه الإنشاء كالوصاف »

ويمدح المؤلف فى مقدمة كتابه الملك المعروف « جلال الدين شاه شجاع » ثم يقول أنه : « لما كان يحظى برعاية أمراء آل المظفر فإنه كثيراً ما فكر فى كتابة سجل لأعمالهم يعترف فيه بأفضالهم ، ففى سنة ٧٥٧ هـ عند ما وصل إلى إصفهان مع الشاه شجاع وجيشه ، سمح له بالدخول على « مبارز الدين » فوجد الفرصة مواتية ليقرأ عليه وعلى ابنه الشاه شجاع جزءاً من تاريخه هذا ، فصادف منهما القبول وشجعاه على المضى فى كتابته فأتمه فى سنة واحدة » .

ولكن المعروف أن « معين الدين اليزدى » أكمل كتابه إلى تاريخ أبعد مما ذكره فى هذه المقدمة لأن الكتاب ينتهى بوصف المعركة الهامة التى حاربها الشاه شجاع مع أخيه ومنافسه فى الملك الشاه محمود الذى انهزم فى معركة شيراز واضطر إلى تسليمها فى سنة ٧٦٧ هـ . ويكون تأليف الكتاب بناء على ذلك قد استغرق عشرة سنوات .

وقد عثرت على نسخة مخطوطة من كتاب « تاريخ آل المظفر » حكام شيراز فى

---

(١) Cat. Pers. MSS, OR. 210 fol, 252..

(٢) كشف الظنون ، طبع مصر سنة ١٢٧٤هـ ، جـ ١ ص ١٧٠ .

مكتبة الجامعة تحت رقم ٦٩٩ فارسي عدد أوراقها ٢٠٨ وطول صحيفتها ٩,٢٥ بوصة وعرضها ٦,٢٥ بوصه .

وما كنت أمضي في فحصي لهذه النسخة حتى تبينت أن عدداً من أوراقها قد سقط وضاع وأنها أصبحت بذلك مضطربة سقيمة لا تمكن الاعتماد عليها بحال .

ولكني لحسن الحظ عثرت على مقال قيم عن آل المظفر اعتمد فيه كاتبه إلى حد كبير على ما كتبه « معين الدين اليزدى » وجعله بابا ملحقا بتاريخ گزيده كما سبقت الإشارة إلى ذلك [١] .

وكاتب هذا المقال هو « محمود الكتبي » الذى حدثنا فى مقدمة كتابه عن السبب الذى حداه إلى الحاق هذا الباب بتاريخ گزيده فقال ما ترجمته [٢] :

« وقد ألف السيد الفاضل « مولانا معين الملة والدين اليزدى » رحمه الله رحمة واسعة رسالة عن تاريخ آل المظفر ، ولكنه باستعماله للاستعارات الغريبة والعبارات العجيبة وما ساقه من مدح مطرد لملوكهم ، وإغراق فى الثناء على كل واحد منهم ، قد أخفى عروس المقصود ، فى ستر الاحتجاب والامتناع .

ففى سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة أسعدنى الشرف أنا الفقير الحقير محمود الكتبي — ألحقه الله بعباده الصالحين — فقرأت كتاب « تاريخ گزيده » الذى صنفه « حمد الله المستوفى » فكان تاريخاً جامعاً لم يكتب ما هو أضبط وأكثر فائدة منه ... فألهمنى العقل وهدانى التفكير إلى أنه يجب أن يدخل فى هذه النسخة (من كتاب تاريخ گزيده) تاريخ آل المظفر منذ قيام دولتهم إلى انطفاء شعلتهم على يد تيمور...

ولما كنت أبا عن جد فى خدمتهم وكنت منذ ولادتى وتفتح بصرى إلى يومنا هذا قد شاهدت بعض حكاياتهم وعاينتها بنفسى كما استمعت لبعضها الآخر من الأكابر والمشايخ المعروفين بصحة القول ، فقد لبيت نداء هذا الإلهام السعيد بالسمع والطاعة وأطعت أمره رغم قلة بضاعتى فى الفضل وكثرة موانعى فى الوقت . . . »

ومحتويات هذا المقال تتشابه فى تفاصيلها مع محتويات كتاب « مواهب إلهى » —

---

(١) انظر ص ١٠٤ من هذا المقال

(٢) ص ٦١٣ — ٦١٥ من تاريخ گزيده ، طبع لندن سنة ١٩١٠ م

كما وصفها ريو فى « كتالوج المخطوطات الموجودة بالمتحف البريطانى » — وكذلك مع محتويات النسخة المخطوطة الموجودة منه فى مكتبة الجامعة ، وإن كانت تختلف عن هاتين الأخيرتين فى أنها تمضى بتاريخ آل المظفر إلى آخر دولتهم فى سنة خمس وتسعين وسبعمائة .

## ١١ — ظفر نامه

### تأليف مولانا نظام الدين شامى فى سنة ٨٠٦ هـ

اشتهر « نظام الدين شامى » بأنه المؤرخ الوحيد الذى كتب عن تيمور أثناء حياته كما اشتهر كتابه « ظفر نامه » بأنه أول تاريخ كتب عن دولة التيموريين ويقال أن تيمور هو الذى اختار تسمية هذا الكتاب .

وكتاب « مولانا نظام الدين شامى » نادر الوجود ، وله نسخة مخطوطة بالمتحف البريطانى تحت رقم ADD 23, 980 ربما كانت النسخة الوحيدة الموجودة منه.

وقد لخص Rieu ما يعرف عن هذا الكتاب فيما يلى :(١)

« كان المؤلف يعيش فى بغداد عند ما فتحها تيمور فى سنة ٧٩٥ هـ ( ١٣٩٢ م ) وكان من من اوائل من خرجوا من البلدة للقاء الفاتح وتقديم خضوعهم .

وفى سنة ٨٠٣ هـ ( ١٤٠٠ م ) سُجن فى مدينة حلب .

وفى سنة ٨٠٤ هـ ( ١٤٠١ م ) استدعاه تيمور ، كما يذكر ذلك المؤلف فى مقدمته وأمره أن يكتب تاريخاً عن حكمه وغزواته . ووضع تحت تصرفه كثيراً من المستندات التاريخية والأوراق الرسمية وأمره أن يكتب تاريخه بلغة خالية من التصنع والمحسنات البديعية ليتمكن العامة من قراءتها وفهمها .

وفى سنة ٨٠٦ هـ ( ١٤٠٣ م ) خطب خطبة عيد الفطر أمام تيمور فى معسكره بالقرب من « اردبيل » .

---

(١) انظر : Rieu : Pers. Cat. pp, 170—2 and 1081

وبعد ذلك بقليل رجع تيمور إلى « سمرقند » وسمح لنظام الدين شامى بالرجوع إلى موطنه الذى كان على ما يظهر فى « تبريز » ، وزوده بخطابات لحفيده « عمر بهادر » ابن « ميرانشاه » الذى نصب فى ذلك الوقت حاكما على فارس وبقى يشغل منصبه إلى سنة ٨٠٨ هـ ( ١٤٠٥ م ) حينما خلعه أخوه « أبو بكر » .

ويظهر أن كتاب « ظفر نامه » انتهى بذكر سنة ٨٠٦ هـ عندما رجع تيمور إلى عاصمته « سمرقند » ، ثم خرج منها بعد قليل ليقوم بفتوحاته فى الصين — ولكنه لم يكملها بسبب موته فى السنة التالية .

وعلى ذلك فكتاب « ظفر نامه » لنظام الدين شامى لا يذكر لنا السنة الأخيرة من سنى تيمور — وإن كانت هذه السنة مذكورة فى الكتاب الآخر الذى يحمل هذه التسمية والذى ألفه « شرف الدين على اليزدى » فى سنة ٨٢٨ هـ (١٤٢٤ م) كما سنفصل الكلام على ذلك مباشرة .

## ١٢ — ظفر نامه

### تأليف شرف الدين على اليزدى فى سنة ٨٢٨ هـ

يذكر دولتشاه فى « تذكرة الشعراء »[١] أن شرف الدين على اليزدى كان شاعراً من أهل الفضل والعلم وأنه برز فى سائر العلوم وخاصة فى الألغاز والمعميات .

وبعد ما أورد لنا مثالا من شعره ذكر أنه كان مرجع الفضلاء فى العراق وفارس على عهد « ابراهيم سلطان بن شاه رخ بهادر » الذى كان يقربه ويغدق عليه من نعمه وهو الذى طلب إليه أن يكتب كتابه التاريخى المعروف بـ « ظفر نامه »[٢] ليكون تاريخا لتيمور من مولده إلى وفاته :

« واز مولانا التماس نمود تا تاريخ ومقامات صاحب قرانى تيمورى را بقيد

---

(١) ص ٣٧٨ من « تذكرة الشعراء » ، طبع ليدن سنة ١٩٠٠ م .

(٢) انظر : W. H. Morley : Descriptive Cat. of Historcial MSS.
Rieu :Cat. Pers. MSS, pp. 173—5

عبارات در آورد ، ومولانا شرف بوقت پیری بالتماس شاهزاده آن کتاب را تالیف نمود ، وبظفر نامه موسوم ساخت . . . . »

وهذا الكتاب على عكس سميّه الذى ألفه « مولانا نظام الدين شامى » ملىء بالمحسنات البديعية التى تدعو القارىء أحيانا إلى الملل والسأم . وبالإضافة إلى ذلك فإن الحقائق التاريخية التى ذكرها هذا المؤلف ليست من تصنيفه ، وإنما الجزء الأكبر منها قد استعاره من نظام الدين شامى الذى سبق الحديث عنه .

ومع ذلك فكتاب « شرف الدين على اليزدى » هو الذى فاز بالشهرة على كتاب « نظام الدين شامى » .

ويروى « دولتشاه » أن « شرف الدين » أكمل كتابه فى أربع سنوات :
« گويند كه در مدت چهار سال مولانا روزگار صرف نمود تا آن تاريخ باتمام پيوست (١) » .

وروى صاحب « حبيب السير » أنه فرغ من تأليفه سنة ٨٢٨ ﻫ ، كما تدل على ذلك عبارة « صنف فى شيراز » بحساب الجمل .

ويذكر « أمين أحمد رازى » فى كتابه « هفت اقليم » أن « شرف الدين » له بالإضافة إلى كتابه التاريخى . كتاب فى « المعميات والألغاز » وشرح بالفارسية لقصيدة البردة للبوصيرى ، وكتاب عن الأعداد اسمه « كنه المراد در علم وفق اعداد » وقدر لا بأس به من الرباعيات والمثنويات .

وقد طبع كتابه « ظفر نامه » فى مجلدين فى مدينة كلكتا (٢) وترجمه إلى الفرنسية Petit de la Croix فى سنة ١٧٢٢ كما ترجمه من الفرنسية إلى الانجليزية J. Darby فى سنة ١٧٢٣ .

وقد توفى « شرف الدين » فى مدينة « تفت » فى سنة ٨٥٨ ﻫ ودفن فى مدرسة بناها هناك ، كانت تعرف بالشرفية .

---

(١) تذكرة الشعراء لدولتشاه ، ٣٢٧ .

(٢) ضمن مجموعة Bibliotheca Indica Series

# ١٣ ـ زبدة التواريخ

## تأليف حافظ ابرو فى سنة ٨٢٩ أو ٨٣٠ ﻫ

ولد « خواجه نور الدين لطف الله ، المعروف بـ « حافظ ابرو » فى مدينة هراة [١] وتلقى دروسه فى مدينة همدان والتحق بخدمة تيمور ثم ابنه « شاه رخ » وحفيده « بايسنقر » الذى أهدى اليه كتابه المعروف « زبدة التواريخ » .

وهذا الكتاب له تسمية أخرى كما يظهر من قول « فصيحى » صاحب « المجمل » فإنه أسماه هناك بـ « مجمع التواريخ السلطانى » وذكر أنه فرغ منه فى سنة ٨٢٩ أو سنة ٨٣٠ ﻫ [٢] أى قبل وفاة المؤلف بثلاث سنين أو أربع .

وكان الكتاب يشتمل على أربعة مجلدات ، ضاع منها المجلدان الثالث والرابع اللذان كانا يتعلقان بتاريخ الدول التى نشأت فى فارس بعد الاسلام [٣] وبقيت نسخ مخطوطة من المجلدين الأولين فى مكتبات روسيا وفى المتحف البريطانى .

وقد ألف « حافظ ابرو » بناء على طلب « شاه رخ » كتابا آخر فى الجغرافيا وصل الينا منه الجزء الأول المحفوظ بالمتحف البريطانى تحت رقم or. 1577 وقد استطاع « ريو » أن يجمع منه كثيراً من الحقائق عن حياة المؤلف نختصرها فيما يلى : [٤]

أولا ـ أن المؤلف كتب هذا الكتاب الجغرافى ما بين سنة ٨٢٠ ، وسنة ٨٢٣ ﻫ .

ثانياً ـ أنه كان كثير الرحلة وقد صاحب تيمور فى كثير من معاركه وكان حاضراً معه عند ما استولى على حلب ودمشق فى سنه ٨٠٣ ﻫ .

ثالثاً ـ أنه أقام فى مدينة « هراة » أثناء تولى « شاه رخ » وأخذ هناك فى الكتابة والدرس والتصنيف .

---

(١) يقول « فصيحى » فى كتابه « المجمل » أنه ولد فى بلدة « خواف » من بلاد خراسان .

(٢) Rieu : Pers. Cat, P. 4229 ...

(٣) Baron Victor Rosen : Collections Scientifiques (Manuscrits pers.) Vol III p. 52—111

(٤) Rieu : Pers. Cat, P. 422 ...

رابعاً — أنه مات فى « زنجان » أثناء رجوعه من آذربيجان ، ودفن هناك .

وقد ذكر « فصيحى » فى كتابه « المجمل » أنه مات فى سنة ٨٣٣ ﻫ .

وكان كتاب « زبدة التواريخ » العماد الذى اعتمد عليه « عبد الرزاق السمرقندى » فى تأليف كتابه « مطلع السعدين » الذى سيأتى الحديث عنه بعد قليل .

## ١٤ — المجمـــل

### تأليف فصيحى خوافى فى سنة ٨٤٥ ﻫ

كتب الأستاذ براون (١) أن الموجود من هذا الكتاب هو ثلاث نسخ مخطوطة كان يمتلك هو نفسه واحدة منها بينما يمتلك الثانية معهد الدراسات الشرقية بروسيا (٢)، والثالثة أصبحت ملكا « لأوقاف جب التذكارية » (٣) .

ويقول أنه كتب مقالا مفصلا عن هذا الكتاب فى عدد الـ Muséon الذى أصدره الأساتذة البلجيكيون أثناء وجودهم فى كمبردج سنة ١٩١٥ .

ويستفاد من هذا المقال أن « المجمل » يشتمل على مقدمة ومقالتين وخاتمة .

فأما المقدمة ففيها خلاصة لتاريخ العالم منذ بداية الخليقة إلى ولادة النبى محمد عليه السلام .

وأما المقالة الأولى ففيها سيرة النبى إلى وقت هجرته إلى المدينة .

وأما المقالة الثانية فتبدأ بتاريخ السنة الأولى من الهجرة وتنتهى بسنة ٨٤٥ ﻫ .

وأما الخاتمة ، فمفقودة من جميع النسخ الخطية وتشتمل على وصف لمدينة هراة التى ولد فيها المؤلف .

والمؤلف لا ذكر له فى سائر الكتب وانما يؤخذ مما ذكره فى كتابه أنه كان يشتغل فى سنة ٨٠٨ بتحصيل الماليات مع ثلاثة آخرين ، وأنه ذهب فى سنة ٨١٨ مع

---

(١) Lit. Hist. of Persia, Vol III. p· 426 ...,

(٢) Institut des Langues Orientales du Ministère des Affaires Etrangères de St. Petersbourg.

(٣) Gibb Memorial Series.

الشاه رخ إلى شيراز حينما توجه لمحاربة الأمير « بايقرا » ، وأنه ذهب إلى كرمان فى سنة ٨٢٥ لأمور تتعلق بالماليات ، وأنه رجع إلى « بادغيس » فى سنة ٨٢٧ وأنه التحق بخدمة الأمير بايسنقر فى سنة ٨٢٨ هـ ثم ذكر أنهم حبسوه فى سنة ٨٤٣ ثم فى سنة ٨٤٥ . لاغضابه لـ « جواهر شاد آقا » ، وينتهى كتابه بذكر الأحداث التى وقعت فى هذه السنة .

ويمتاز كتابه المجمل بأمرين :

١ — سهولة الأسلوب وبساطته وخلوه من آثار الصنعة .

٢ — اهتمام المؤلف بذكر شىء عن الأدباء والكتاب الذين عاشوا فى العصور المختلفة وخاصة الذين أقاموا فى خراسان وما وراء النهر .

ولا شك أن « فصيحى » استمد معلوماته عن هؤلاء من مصادر متقدمه لم يستطع الرجوع اليها أصحاب كتب التراجم المتأخرة ؛ فكانت أهمية كتابه كبيرة من هذه الناحية .

## ١٥ — مجمع السعدين ومطلع البحرين

### تأليف كمال الدين عبد الرزاق بن جلال الدين اسحق السمرقندى

### فى سنة ٨٧٥ هـ

ولد مؤلف هذا الكتاب فى ١٢ شعبان سنة ٨٢٦ هـ [1] فى مدينة هراة ، ولكنه نسب إلى سمرقند لأن أباه جلال الدين اسحق كان من هذه المدينة الأخيرة يتولى القضاء والإمامة فيها أيام شاه رخ .

وتوفى أبوه فى سنة ٨٤١ وله من العمر خمسة وعشرون سنة فألحقه « شاه رخ » بخدمته مكان أبيه ، وقد ألف فى هذه السنة شرحاً على رسالة للقاضى عضد الدين الأيجى فى معنى الحرف وإسم الإشارة . وفى سنة ٨٤٥ أرسله هذا الملك إلى أحد حكام الهند المسمى بيجانكر فى رسالة استغرقت ثلاث سنين أورد لنا تفاصيلها فى بداية كتابه « مطلع السعدين » .

(١) « حبيب السير » المجلد الثالث ، الجزء الثالث ، ص ٣٣٥ .

وفى سنة ٨٥٠ أرسله شاه رخ فى بعثة إلى « گيلان » فما كاد يتمها حتى طلب إليه أن يسافر إلى مصر ، ولكن الشاه رخ توفى فى هذه السنة فكان موته سبباً فى عدم قيامه بهذه الرحلة والتحق بعـــد ذلك بخدمة الأمراء التيموريين « ميرزا عبد اللطيف » و « ميرزا عبد الله » و « أبى القاسم بابر » و « أبى سعيد » .

وفى سنة ٨٦٧ هجرية رجع إلى بلدته « هراة » واختار حياة العزلة والسكون فقبل أن يكون شيخاً للخانقاه التى أسسها « شاه رخ » فى هذه البلدة واستمر فى هذا المنصب إلى حين وفاته سنة ٨٨٧ هـ[1] :

« فى جمادى الأولى سنة سبعة وستين وثمانمائة به منصب شيخى خانقاه ميرزا شاه رخ منصوب گشت . وتا آخر أيام حيات بدان امر اشتغال داشت . وفاتش در ماه جمادى الأخرى سنة سبع وثمانين وثمانمائة روى نمود . واز آثار اقلام بدايع ارقامش كتاب افادت آيات « مطلع السعدين » در ميان مردم متداول ومشهور است . ودر آن تاريخ شريف معظم وقايع معموره ربع مسكون از زمان سلطان أبو سعيد بهادر خان تا وقت شهادات ميرزا سلطان أبو سعيد كوركان مسطور والله أعلم بحقايق الأحوال والأمور[2] » .

وكتاب مطلع السعدين كما يستفاد من هذه الفقرة عبارة عن تاريخ للفترة التى توسطت حكم السلطان أبى سعيد بهادر الإيلخانى وحكم السلطان أبى سعيد التيمورى أى بين سنة ٧٠٤ إلى سنة ٨٧٥ هـ تقريباً .

ولعل تحديد هذه الفترة وابتداءها بأبى سعيد الإيلخانى ، واختتامها بأبى سعيد التيمورى[3] ، هو السبب الذى حدا المؤلف إلى تسمية كتابه بمطلع السعدين .

ويقع هذا الكتاب فى جزئين :

---

(١) أرجع إلى تاريخ حياته فى الكتب التالية : Rieu's Cat. Pers. MSS, pp. 181 — 3
Quatremère Notices et Extraits des Manuscrits de la Bibl. Nationale, Vol. XIV.
Morley's Descriptive Cat.

(٢) « حبيب السير » مجلد ٣ ، جزء ٣ ص ٣٣٥ .

(٣) قتل أبو سعيد التيمورى على يد « اوزون حسن » فى سنة ٨٧٣ ولكن « مطلع السعدين » يذكر حوادث السنتين التاليتين بعد ذلك .

الجزء الأول : من مولد أبى سعيد بن الجايتو محمد خدابنده إلى موت تيمور فى سنة ٨٠٧ هـ
وقد لاحظ المؤلف أن أبا سعيد توفى فى نفس السنة التى ولد فيها تيمور
الجزء الثانى : أعقاب تيمور منذ تولى « شاه رخ » فى سنة ٨٠٧ إلى السلطان حسين ميرزا فى سنة ٨٧٥ هـ [1]

وقد اعتمد المؤلف الى حد كبير فى تأليف هذا الكتاب على كتاب «زبدة التواريخ» لـ « حافظ ابرو » ولكن هذا لم يقلل من أهمية كتابه لأنه أورد به كثيراً من التفصيلات والحوادث التى وقعت فى هذه الفترة الهامة من تاريخ ايران . ولا شك أن المؤلف استقى كثيراً من أخباره من السجلات الحكومية التى استطاع الاطلاع عليها بحكم مركزه واتصاله بالأمراء والحكام[2]

## ١٦ — روضة الجنات فى تاريخ مدينة هرات

### تأليف معين الدين الاسفزارى فى سنة ٨٧٥ هـ

كان المؤلف على قول صاحب « حبيب السير » [3] عمدة المترسلين فى زمانه وكان ينظم الشعر أيضاً كما كان من الخطاطين الماهرين المعروفين بحسن الخط والولع بتعليم قواعده .

وذكر أيضاً أن له كتابين ، الأول «تاريخ مدينة هراة» والثانى كتاب مرسل يشتمل على بعض المنشورات والمكتوبات :

« از جملة مؤلفاتش تاريخ بلده هرات وترسلى مشتمل بر منشآت مناشير ومكتوبات در ميان مردمان مشهور است »

وقد قسم كتابه عن مدينة هراة إلى ٢٦ قسما أو « روضة » :

الروضة الأولى إلى السادسة : عن وصف لمدينة هراة وضواحيها وموقعها وحكامها بعد دخول الإسلام .

---

(١) أنظر : W. H. Morley : Descriptive Cat.

(٢) فى « دار الكتب الملكية » بالقاهرة نسخة من هذا الكتاب تحت رقم ن ع ٩٢١٦ ، انظر ص ٥٠٨ من فهرست الكتب الفارسية المحفوظة بالكتبخانة الخديوية المصرية .

(٣) مجلد ٣ ، جـ ٣ ، ص ٣٤٢ .

والروضتان السابعة والثامنة : عن آل كرت إلى انتهاء دولتهم على يد تيمور .
وبقية الروضـــات : عن تيمور وأعقابه الى تولى السلطان حسين أبى الغازى عرش أجداده للمرة الثانية .

وقد كتب M. Barbier de Meynard مقالا مفصلا عن الكتاب نشره فى مجلة الجمعية الأسيوية وبين فيه موضوعاته وأهميته(١) .

وقد ذكر المؤلف أنه اعتمد فى تأليف كتابه على ما كتبه من قبل « أبو اسحق احمد ابن ياسين » و « الشيخ عبد الرحمن فامى » و « سيفى الهروى » و « ربيعى البوشنجى » الذى ألف « كرت نامه » وكذلك « كمال الدين عبد الرزاق » صاحب مطلع السعدين الذى سبق الحديث عنه .

## ١٧ — روضة الصفا

### تأليف محمد بن خاوند شاه بن محمود المعروف بـ « ميرخواند »

### المتوفى فى سنـــة ٩٠٣ هـ

« روضة الصفا » هى أكثر الموسوعات التاريخية ذيوعاً فى إيران وقد طبعت فى بمباى مرتين احداهما فى سنة ١٢٦٦ والثانية فى سنة ١٢٣١ وطبعت فى طهران سنة ١٢٧٠ ونشرت ترجمتها الى اللغة التركية فى مدينة استانبول سنة ١٢٥٨ هـ . وترجمت أجزاء منها إلى اللغات الأوربية فى فترات مختلفة . ويعتبرونها فى إيران مصدراً من أهم مصادرهم التاريخية وقد يبالغون أحياناً فيعتبرونها المصدر الأول والوحيد للعصور التى تحدثت عنها . وقد بالغ فى قيمتها « رضا قلى خان » الملقب بهدايت ، فكتب لها ملحقاً تاريخياً أضافه اليها ، جمع فيه حوادث السنين التالية لتأليف « روضة الصفا » الى أيامه التى عاش فيها — أى الى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى(٢) .

والمعروف عن مؤلف « روضة الصفا » قليل ، وما نقله عنه حفيده « خواند أمير »

(١) ... Journal Asiatique, 5eth. serie, Vol. XVI, pp. 461—520

(٢) « متمم روضة الصفا » يقع فى ثلاثة أجزاء وبذلك تكون روضة الصفا ومتممها فى عشرة أجزاء .

فى كتابه « حبيب السير »[١] لا يفيدنا إلا فى معرفة تاريخ وفاته

ويستفاد مما قاله أن مؤلف « روضة الصفا » مات فى ذى القعدة سنة ٩٠٣ هـ وأنه بلغ من العمر ستاً وستين سنة .

فإذا صح هذا النص تكون ولادته فى سنة ٨٣٧ هـ .

وكان أبوه «سيد برهان الدين» من أهل «بخارى» هاجر إلى « بلخ » ومات بها . ثم انتقل « ميراخواند » إلى هراة والتحق بخدمة الأمير «عليشير نوائى» واستمر هناك إلى أن أدركته الوفاة .

وتقع « روضة الصفا » فى سبعة أجزاء بالتفصيل الآتى :

الجزء الأول : فى بيان أول المخلوقات وذكر قصص الأنبياء وذكر ملوك العجم والحكماء الأسبقين .

الجزء الثانى : فى بيان نسب الرسول خاتم الأنبياء ، والخلفاء الراشدين

الجزء الثالث : فى ذكر الأئمة وأحوال بنى أمية وبنى العباس

الجزء الرابع : فى ذكر الدول الإسلامية التى نشأت فى فارس إلى تيمور .

الجزء الخامس : فى ذكر المغول الإيلخانيين

الجزء السادس : فى ذكر تيمور وأعقابه إلى سنة ٨٧٣ هـ

الجزء السابع : ويظهر أن الذى أكمله شخص آخر ، مخصص بأجمعه لذكر أحوال الخاقان السعيد السلطان حسين ميرزا بايقرا الذى توفى فى سنة ٩١٢ هـ أى بعد تسع سنوات من وفاة « ميرخواند » .

ولا شك أن الجزئين الأخيرين من « روضة الصفا » يشتملان على كثير من الحوادث التى شاهدها المؤلف بنفسه وتنحصر فيهما أهمية الكتاب لمن أراد أن يكتب عن التيموريين خاصة .

---

(١) مجلد ٣ ، ج ٣ ، ص ٣٢٩ .

# ١٨ — مآثر الملوك

# ١٩ — خلاصة الأخبار

# ٢٠ — حبيب السير

تاليف غياث الدين بن همام الدين المعروف بـ « خواندامير »

المتوفى سنة ٩٤١ هـ

مؤلف هذه الكتب الثلاثة ، تربطه صلة القرابة بمؤلف « روضة الصفا » الذى كان جده لأمه ، كما حكى لنا فى كتابه « حبيب السير » .

وقد ولد « غياث الدين » الملقب بـ « خواند امير » فى مدينة هراة فى سنة ٨٧٩ أو فى السنة التالية والتحق كجده بخدمة الأمير « عليشير نوائى » الذى كان قصره محطاً لرجال العلم والأدب .

والمعروف أن « عليشير » هو الذى طلب إليه تأليف كتابيه « مآثر الملوك » و « خلاصة الأخبار » .

أما « حبيب السير » فيذكر لنا المؤلف فى مقدمته أنه جمعه بناء على طلب مخدومه « السيد غياث الدين محمد بن يوسف الحسينى » الذى كان يتولى التدريس فى مدرسة من مدارس هراة ، والذى كان مقرباً من السلطان حسين وأعقابه ثم أصبح قاضيا لخراسان زمن الشاه اسماعيل الصفوى .

ويقول « خواند امير » أنه بدأ كتابة الجزء الأول من « حبيب السير » عند مقتل مخدومه « غياث الدين » وكانت مدينة هراة فى ذلك الوقت تسودها الفتن والقلاقل بحيث خشى ألا يستطيع إكماله . ولكن الشاه اسماعيل أرسل حاكما جديداً لخراسان أعاد إليها الأمن هو « دورميش خان » الذى سلم لـ « كريم الدين خواجه حبيب الله » أزمة الأمور وكان معروفاً بعلمه وأدبه وحبه للتاريخ وسائر العلوم .

وحبيب الله هـذا هو الذى شجع « خواندامير » على تكملة كتابه « حبيب السير » ويقال أن المؤلف اختار لكتابه هذه التسمية تخليداً لذكره .

ويظهر من نهاية الجزء الرابع من المجلد الثالث من « حبيب السير » أن المؤلف

انتهى فى كتابه بذكر حوادث شهر ربيع الأول سنة ٩٣٠ ه أى قبل وفاة الشاه اسماعيل الصفوى ببضعة أشهر .

وقد ذهب « خواندامير » بعد ذلك إلى الهند فى سنة ٩٣٤ حيث قربه « بابر » وابنه « همايون » فبقى هناك حتى مات فى « كجرات » فى سنة ٩٤١ ه .

أما مؤلفاته الثلاث فإليك وصفاً موجزاً لها :

**مآثر الملوك :**

يظن Rieu أن هذا الكتاب[١] كان أول مؤلفات « خواند أمير » فهو لا يشير فيه إلى مؤلفيه الآخرين .

ويذكر « خواند أمير » فى مقدمة كتابه هذا أن الذى شجعه على تأليفه هو « الأمير عليشير نوائى » .

ويشتمل هذا الكتاب على الأقوال المأثورة للملوك والحكماء السابقين ، ويقع فى ستة أبواب :

الباب الأول : ذكر شيء من آثار ملوك العجم .

الباب الثانى : أقوال الحكماء من بداية آدم إلى بزرجمهر .

الباب الثالث : أقوال النبى والأئمة .

الباب الرابع : أقوال ملوك بنى أمية .

الباب الخامس : أقوال خلفاء بنى العباس وملوك الطاهريين والسامانين والغزنويين إلى آل كرت .

**خلاصة الأخبار فى بيان أحوال الأخيار :**

بالمتحف البريطانى نسخة مخطوطة من هذا الكتاب تحت رقم[٢] Or 1292 وكذلك تحتفظ « الجمعية الأسيوية الملكية بلندن » بنسخة أخرى منه[٣] .

---

(١) بالمتحف البريطانى نسختان من هذا الكتاب تحت رقم Or. 2928 & 2643.

(٢) Rieu : Cat. Pers. MSS, p. 96 ...

(٣) W. H. Morley : A Descriptive Cat. of the Historical MSS, preserved in the Library of the Royal Asiatic Society.

ويقول المؤلف فى مقدمة كتابه هذا أن الأمير عليشير كلفه بتأليفه فى سنة[1] ٩٠٤ ووضع تحت تصرفه كل الكتب التاريخية التى كانت فى مكتبته فأخذ يلخصها ويرتبها حتى أخرج هذه « الخلاصة » التى قدمها لسيده والتى قال فى خاتمتها أنه فرغ منها بعد ستة أشهر من اشتغاله بها .

وتعتبر « خلاصة الأخبار » تلخيصاً لكتاب « روضة الصفا » الذى سبق الحديث عنه ، وتشتمل على مقدمة وعشر مقالات وخاتمة :

مقدمة : فى خلق العالم والإنس والجن.

المقالة الأولى : الأنبياء والرسل .

المقالة الثانية : حكماء الفرس واليونان .

المقالة الثالثة : ملوك فارس الأقدمين وملوك العرب واللخميين والغساسنة والحميريين

المقالة الرابعة : سيرة النبى وغزواته .

المقالة الخامسة : الخلفاء الراشدين والأئمة الاثنا عشر .

المقالة السادسة : بنو أمية .

المقالة السابعة : بنو العباس .

المقالة الثامنة : الطاهريون ، الصفاريون ، السامانيون ، آل بويه ، الغزنويون ، الإسماعيلية، السلاجقة ، حكام خوارزم ، أتابكة الموصل وآذربيجان وفارس ولورستان ، القراختاى ، آل المظفر ، السربدار ، الغوريون ، ملوك سيستان ، آل كرت .

المقالة التاسعة : جنكيز خان وأحفاده .

المقالة العاشرة : تيمور وأعقابه إلى سنة ٨٧٥ هـ .

الخاتمة : وصف هراة وذكر بعض المعاصرين من العلماء .

**حبيب السير فى أخبار أفراد البشر :**

يقع هذا الكتاب فى ثلاثة مجلدات كل منها يشتمل على أربعة أجزاء . والمؤلف ينقل فى أماكن كثيرة عن « روضة الصفا » ، ولكنه مع ذلك يفيض القول فى أماكن أخرى ، فيتحدث عن الدول الصغيرة التى أهملتها « روضة الصفا » كما يتحدث عن

---

(١) يذكر حاجى خليفة أن هذا الكتاب تم تأليفه سنة ٩٠٠ هـ . كشف الظنون جـ ٣ ص ١٦٣

رجالات العلم والأدب الذين ظهروا فى مختلف العصور مما يجعل كتابه سجلا تاريخياً أدبياً كبير القيمة . هذا بالاضافة إلى وضوح أسلوبه وخلوه من الحشو والزوائد .

ومحتويات الكتاب على النحو الآتى :

المجلد الأول : مقدمة وأربعة أجزاء .

المقدمة : فى تاريخ الخليقة .

الجزء الأول : الأنبياء والرسل والحكماء .

الجزء الثانى : ملوك العجم والعرب الأقدمين .

الجزء الثالث : سيرة النبي وغزواته .

الجزء الرابع : تاريخ الخلفاء الراشدين .

المجلد الثانى : فى أربعة أجزاء .

الجزء الأول : تاريخ الأئمة الاثنى عشر .

الجزء الثانى : بنو أمية .

الجزء الثالث : بنو العباس .

الجزء الرابع : تاريخ الدول الفارسية المعاصرة للخلافة العباسية وتاريخ الاسماعيلية .

المجلد الثالث : فى أربعة أجزاء .

الجزء الأول : تاريخ المغول الايلخانية .

الجزء الثانى : تاريخ الدول المعاصرة لدولة المغول الايلخانية .

الجزء الثالث : تاريخ تيمور وأعقابه .

الجزء الرابع : تاريخ الشاه اسماعيل الصفوى إلى سنة ٩٣٠ هـ .

الخاتمة فى ذكر بدائع الربع المسكون وغرائبه ووقائع العالم وعجائبه .

* * *

هذه مجموعة من المصادر الفارسية التى لو تهيأ لها أن تنقل إلى لغتنا العربية لأغنت ثروتنا التاريخية ، وجعلتنا فى غنى عن الرجوع إلى تراجمها الانجليزية أو الفرنسية أو الألمانية كلما جد بنا الدرس واحتجنا إلى البيان والتفصيل ؛ ولعل كلية الآداب ومعهد اللغات الشرقية بجامعة فؤاد الاول يستطيعان أن يهيئا الفرصة المساعدة لنقل هذا التراث التاريخى الخالد إلى اللغة العربية حتى يستطيع القارىء العربى أن يحصل على ثروته الموروثة كاملة غير منقوصة .

ابراهيم أمين

# بعض مشكلات تخطيط
## الحدود السياسية و نتائجها

بقـــلم
الدكتور محمد عبد المنعم الشرقاوى

---

قد تطور الاهتمام بتعيين الحدود السياسية تبعاً لتطور العناية بما تمثله هذه الخطوط الفاصلة فى معناها ومبناها ، ذلك أنها فى الماضى البعيد كانت عبارة عن الصور التى جاء بها هؤلاء الذين تولوا شئون الحكم والإدارة فى الوحدات المختلفة وبالتالى كانت تنطبق مع نهايات مجهوداتهم فى التوسع أو الانكماش تبعاً للظروف المختلفة التى توصى بمثل هذه الحالة أو تلك ؛ (١) وليس من شك أن مبلغ العناية بالحدود السياسية فى ذلك العهد لم يكن قوامه تعلق الشعب بصفة عامة بخط معين أو بمظهر جغرافى واضح يجد مصيره مرتبطاً به ، بل كانت الحدود السياسية عبارة عن الأبعاد العظمى أو الصغرى لرقعة القطر فى عهود حكامه المختلفين بدون اشتراك فعلى فى تعيينها (٢) .

ثم تطور أمر الحدود السياسية بعد أن شاعت عمليات التوسع والفتح وتكوين أمبراطوريات فسيحة عظيمة تضم الكثير من الجماعات والشعوب المتشابهة أو المتنافرة وتشمل اللغات واللهجات والأديان المتعددة ، وتظهر بين ثناياها الحضارات المتقاربة أو المتباعدة ، وتنتظم فى رقعها المظاهر التضاريسية المعقدة ، كل هذا الخليط أصبح يكوّن وحدة سياسية ذات حدود معينة قد يطول العهد ببقائها على هذه الصورة ، وقد يحدث التئام بين أجزائها المتناثرة ، وقد يظهر نوع من الرابطة ، وقد تتكون من مجموعها وحدة كبيرة قوية فى مظهرها ، أو قد تكون ضعيفة فى قواعدها وأركانها ، حتى إذا ما جاءت نهايتها ، وحل دور تفككها وانحلالها ، طفقت أجزاؤها المختلفة تبحث عن حدودها التى ترتضيها لنفسها ، وهكذا تنشأ حدود جديدة وتتضاعف خطوط الاحتكاك والاضطراب

من جراء عمليات تخطيط الحدود الفاصلة ، ومن خير الأمثلة حالة الحدود السياسية فى أمريكا الجنوبية والوسطى إذ جمهورياتها المختلفة هى وريثة الامبراطوريتين الاستعماريتين الأسبانية والبرتغالية . فلما جاء دور كفاحها من أجل استقلالها لم تكن هناك خطوط ظاهرة مقبولة يمكن اعتبارها الحدود السياسية الفاصلة بينها (٣) ولذا كان الكفاح من أجل تعيين هذه الحدود السياسية مريراً قاسياً واستمر مدة أطول بكثير من تلك التى اقتضاها النجاح فى الحصول على الاستقلال ، وما زالت حروب التحديد السياسى تتجدد آونة بعد أخرى بين كثير من هذه الجمهوريات مثل براجواى وبوليفيا وبيرو وشيلى (٤) والبرازيل واكوادور وكولومبيا وفنزويلا .

على أن الهجرات البشرية المختلفة التى حملت الحضارات المتباينة وجاءت بالجماعات المتنافرة . قد ساعدت على تعقيد مشكلات تعيين الحدود . وقد توالى وصول هذه الهجرات من الأم الكبرى آسيا (٥) . وترتب على ذلك اضطراب الأمر فى القارات الأخرى المتصلة بها . ويضيق المقام عن تتبع الدوافع والأسباب التى جعلت آسيا ترسل جموعها وأفواجها العظيمة فى الاتجاهات المختلفة (٦) . ولكن يكفى أن نذكر أن وصول هذه الهجرات كان نذير الارتباك السياسى فى الجهات التى وصلت إليها : إذ كان على السكان الأصليين أن يهاجروا أو يخضعوا أو يندمجوا أو ينزووا فى مناطق العزلة والالتجاء ، وكانت الحدود السياسية تبعاً لذلك كثيرة التغيير والتبديل ، ويظهر ذلك بوضوح على طول امتداد الطرق الرئيسية التى سلكتها هذه الهجرات البشرية أو التى جاءت عن طريقها جيوش الغزاة وجحافل الفاتحين ، رعاة كانوا أو مستقرين .

وإذا كانت قارة إفريقية قد تأثرت فى جزئها الشمالى بصفة خاصة نتيجة لهذا الارتباط منذ أقدم العصور فان الصحراء الكبرى — التى تمتد عبر نصفها الشمالى ما بين سواحل المحيط الأطلسى غرباً وسواحل البحر الأحمر والمحيط الهندى شرقاً — قد وقفت حجر عثرة فى سبيل توغل المؤثرات الأسيوية بصفة عامة إلى باقى القارة ، فان شمال إفريقية المطل على البحر الأبيض المتوسط قد لمس بدوره التغيير السريع فى الحدود السياسية بين وحداته المختلفة ، ورأى إلى جانب ذلك الإمبراطوريات الكبيرة الفسيحة إبان عظمتها وفى أدوار ضعفها وتفككها .

أما باقى إفريقية — وهو منطقة الزنوج بجدارة — فلم يتأثر كثيراً ، إذ أن درجة الحضارة التى وصلت اليها جماعاته المختلفة لم تكن من الرقى بحيث تظهر الاهتمام بالتحديد أياً كان نوعه ، لا سيا وأن حياتها الكثيرة الحركة من شأنها ألا تدع مجالا للتفكير فى الوقوف عند خط معين ، بل أنها تفضل أن تجوب وتمرح بدون تقييد لحركاتها أو تضييق على حرية انتقالاتها [٧] ؛ ولما جاءها الاستعمار الحديث وضع لها المستعمرون حدوداً أقرب ما تكون إلى الخطوط المستقيمة ، تتبع خطوط الطول والعرض لدرجة عظيمة ، ولا يمكن تعليلها أو شرح الدوافع التى بعثت بها سوى أنها تمثل صورة ما وصل اليه المستعمرون فيما بينهم . وقد وضعت هذه الخطوط فى المؤتمرات التى وكل اليها تنظيم أجزاء أفريقية وتوزيعها بين هؤلاء الذين يهمهم الأمر ، ومن الطبيعى أن تحصل الدول العظمى الأوربية على نصيب الأسد ، وأن تكون الحدود السياسية محققة لهذا الغرض . ومن خير الأمثلة الحدود السياسية التى تفصل بين المستعمرات المختلفة فى شرق إفريقيه وعلى طول امتداد ساحل غانة [٨] .

ومثل ذلك يقال عن استراليا ، تلك الجزيرة الكبيرة ، فانها لم تهتم كثيراً بالحدود السياسية بين أجزائها لأنها تمثل وحدة كبيرة متشابهة فى الجنس والحضارة واللغة وتتعلق أجزاؤها فى حياتها السياسية برباط واحد هو اشتراكها فى مجموعة الأمم البريطانية ، وكل ما هنالك من خطوط للفصل بين أجزائها قد اقتضاه أمر تنظيم الحكم والإدارة فيها ، وليس الدافع إليه وجود حاجة ماسة أو رغبات متعارضة كما هى الحال فى القارات الأخرى .

كذلك ساعد الحظ أمريكا الشمالية لأنها انتهت من فترة اضطرابها بسبب المنافسات الاستعمارية فيها منذ عهد بعيد ، وشاء حسن طالعها أن تنقسم إلى وحدتين كبيرتين هما كندا والولايات المتحدة ، استقرت إحداهما فى الجزء الشمالى على حين وضعت الثانية يدها على معظم القسم الأوسط والجنوبى . وبعد أن انتهت الولايات المتحدة من مرحلة الحصول على استقلالها وتكوينها على صورتها الحالية كان حسن الجوار كفيلا بقبول وضع خط سياسى فاصل بين الاثنين ويتبع فى جملته درجة عرضية محدودة [٩] .

أما فى الشمال الغربى فإن الحدود بين ألسكا وكندا ، كان من السهل الوصول إلى

اتفاق بشأنها بسبب قلة السكان من جهة ، وضآلة جاذبيتها وقسوة ظروفها الطبيعية من جهة أخرى .

أما آسيا ، وفيها نشأ الإنسان الأول وبزغت حضاراته ، ومنها خرجت الهجرات التى عمرت الأقاليم المتاخمة لها . فإن حالتها تختلف عن شقيقاتها من القارات الأخرى ؛ إذ أن اتساع رقعتها ووجود مظاهر تضاريسية بارزة كان له أكبر الأثر فى تيسير وجود خطوط فاصلة بين أجزائها الكبيرة ، بدليل أن الكتلة المغولية يكاد ينتظم أمرها خلف الحاجز الجبلى العظيم الذى تمثله هضبة التبت من جهة وخط مرتفعات : بامير — ثيان شان — التاى — يابلنوى — ستانوفوى من جهة أخرى ، ويرتكز فى قاعدته على ساحلها الشرقى . ومثل ذلك يقال عن الكتلة الهندية ، إذ لعبت الهملايا دورها كاملا غير منقوص فى الفصل بينها وبين باقى القارة ؛ كذلك كانت حدودها الشمالية والغربية تمثلها خطوط مرتفعات بامير — سليمان وامتداداتها . وهكذا كانت الهند فى رقعتها وكأنها شبه منعزلة عن قارة آسيا ، ولم ترتبط مع جيرانها إلا قليلا طول تاريخها البشرى الطويل ، بل أن هذا الاتصال المحدود قد رسمته الطبيعة وحددت وسائله ممثلة فى المنافذ والممرات التى وهبتها الطبيعة ، ولهذا كله كان تعيين حدودها السياسية ميسوراً ، وقد رسمتها الطبيعة بشكل ظاهر واضح ؛ على حين نجد أن أواسط آسيا وسهولها الغربية الفسيحة المترامية تمثل حالة مختلفة تمام الاختلاف : إذ أن سطحها المنبسط الذى يكاد يخلو من المظاهر التضاريسية البارزة قد جعل منها محيطاً واسع الأرجاء تنتقل فيه الجماعات وفق نظم حياتها ، ومن ثم كان نهباً مشاعا لا تستقر فيه خطوط ، ولقد رأى هذا القسم من آسيا الأمبراطوريات الرعوية القوية التى أرسلت جيوشها الحربية وهجراتها السلمية فى مختلف العصور هنا وهناك[١٠] ، وتركت هذه الغزوات وتلك الهجرات آثارها واضحة فى الجهات المتاخمة لها فى آسيا وإفريقية وأوربا ، بل يمكن القول إن هذه الحركات البشرية التى انبعثت من قلب آسيا الرعوى هى التى وضعت تاريخ الجهات المجاورة بصفة عامة ، وعلى أساسها قام تركيبها الجنسى وكان تكوينها الحضارى .

ولقد اختصت أوربا بقسط كبير من هذه الهجرات وتلك المؤثرات ، وتوالت

عليها المؤثرات الجنسية والحضارية ، وتركت هـذه أثراً واضحاً فى أجزائها الشرقية، والوسطى ، والجنوبية الشرقية بصفة خاصة ، كما تأثرت بها الأجزاء الباقية فى الشمال والغرب والجنوب بصفة عامة ؛ وليس من شك أن هذا يرجع إلى جغرافيتها الطبيعية : فجبالها وسهولها تكاد تمتد بلا انقطاع فى شقيقتها آسيا المجاورة ، والحد الطبيعى السياسى الذى يفصل بينها هى جبال أورال ، ومع ذلك فهذه لا تمتد من الشمال إلى الجنوب حتى شواطىء بحر قزوين ، فتكون بذلك حاجزاً طبيعياً يعرقل الاتصال بين القارتين ، بل هى تنتهى قبل أن تصل إلى شواطىء هـذا البحر تاركة بينها وبينه أرضاً سهلة منبسطة ، وهى تمثل حلقة مهمة من حلقات اتصال الجهتين . وعلاوة على هذا فإن جبال أورال نفسها ليست بالحاجز الطبيعى الذى يصعب اختراقه ، وفيها كثير من الممرات التى تحدد ارتباط الجهات الواقعة على جانبيها .

لهذا كله كان ارتباط أوربا بآسيا من الوجهة البشرية وثيقاً للغاية ، إذ أنها تدين لآسيا بسكانها ، ولا يزال عدد كبير حتى الوقت الحاضر يمكن اعتباره أسيوياً فى معيشته وفى دياناته ولغاته ومدنيته ، ولم يفقد هذا الارتباط قوته فى عصر من العصور التاريخية ؛ فقديماً أغار سكان آسيا على أوربا واستوطنوا جهاتها المختلفة ، وقد استمر سيلهم يتدفق حتى كان عهد آخرهم ، وهم الأتراك العثمانيون .

على أن أوربا قد بدأت بدورها تغير على جارتها : فقد خرج منها الاسكندر الأكبر وغزا غربيها وأخضعه حتى وصل إلى الهند ، كذلك فعل الرومان من بعده ؛ ثم بدأت غزوات البرتغاليين بعد كشفهم طريق رأس الرجاء الصالح ، وتبعهم الفرنسيون والإنجليز والهولنديون .

وفى القرنين الماضيين خرج الروس من سهولهم فى أوربا واتجهوا نحو الشرق ، فامتد سلطانهم فى سيبريا ، وما زالوا فى زحفهم حتى وصلوا إلى شواطىء المحيط الهادى . على أن عصر الغزوات والفتوحات قد زال وأعقبه عصر الارتباطات التجارية والاستعمارية بين القارتين ، وهكذا تطورت العلاقة بين التابع والمتبوع ، فبعد أن كانت أوربا تتلقى الغزو والفتح من آسيا ، أصبحت تنشر سلطانها وتهيمن لدرجة كبيرة على مساحة كبيرة فى آسيا ؛ غير أن أوربا لم تتخلص بعد من نتائج هـذا الارتباط

الوثيق وذلك الاتصال العظيم ، فأجزاؤها الشرقية والوسطى والجنوبية الشرقية قد تأثرت في تركيبها الجنسي وتكوينها الحضاري ، وتنظيمها اللغوي . وترتيبها الديني بسبب ما نالها من جراء هذه التبعية ، وكان من الطبيعي أن تنعكس هذه الصورة في الحياة السياسية لهذه الأجزاء حيث الكفاح الجنسي واللغوي والديني والسياسي والاقتصادي قد بلغ أشده . وحيث أصبحت الحدود السياسية تبعاً لهذه القاعدة سريعة الظهور . وسريعة الاختفاء في الوقت ذاته . وليس من شك أن تأخير ظهور روح القومية في هذه الأجزاء من القارة الأوربية عن نظائرها في الغرب أو الشمال الغربي إنما يرجع إلى آثار هذا الارتباط وإلى نتائج هذه الهجرات والغزوات ، ويضيق المقام عن تتبع العوامل الجغرافية التي أدت إلى هذا التأخير أو التي ساعدت على هذا التكبير بالنسبة لظهور روح القومية في أجزاء القارة المختلفة(١١) .

وقد توالت الحركات السياسية وتتابعت الثورات الحربية نتيجة لهذه الظروف المتنافرة ، وترتب على ذلك تغيير خريطة أوربا السياسية بسرعة فائقة ، وضاعف هذا الكفاح دخول العوامل الاقتصادية بعد أن نهضت القارة نهضتها الاقتصادية الصناعية العظيمة ، وهكذا دفعت القارة ثمنا باهظاً ،سداه اضطراباتها المتكررة ، ولحمته حروبها المتعددة . وقد تعددت طرق الكفاح وتنوعت أساليب الضرب والنزال ، وتجمعت وسائل التخريب والدمار حتى شملت مجموع نواحي النشاط البشري في أرقى جهاتها بصفة خاصة ، ويكفي أن نذكر أن تاريخ القارة الحديث يمثل سلسلة متصلة الحلقات من الحروب والثورات ، كما كثرت المؤتمرات والمعاهدات والاتفاقات ، وكلها ترسم خرائط جديدة تبقى مدة ثم تختفي ليحل محلها غيرها .

ومما يزيد الطين بله أن هذا التغيير والتبديل لا يقتصر أمره على القارة فحسب بل يتعداها إلى جهات كثيرة أخرى على سطح الكرة الأرضية ، وهذه تتأثر بها عن طريق غير مباشر ، بدليل أن الحروب المتجددة بين الفرنسيين والبريطانيين في أوربا كانت تنعكس صورتها في ممتلكاتهما فيما وراء البحار ، كذلك شأن التغييرات التي كانت تترتب على اختفاء نفوذ دولة ما مثل هولند أو البرتغال . فقد كان صدى ذلك الاختفاء يتردد في أمبراطوريتها الاستعمارية في جهات العالم الأخرى ، ومن خير الأمثلة الكفاح بين

مناطق النفوذ الأوربى فى الهند ، ذلك الكفاح الذى قرر فى النهاية شكل الاستعمار غير البريطانى فى الهند فى صورته الحالية .

وإذا جاز لنا أن نقرر أن العوامل الاقتصادية قد أصبحت تقوم بالنصيب الأكبر فى دفع أوربا إلى هذه الحروب والكوارث آناً بعد آخر[١٢] ، فإنها فى الوقت ذاته تظل تلعب دورها وتنفث سمومها ، وتنصب شباكها حتى يكاد يخيل للناظر ، بعد انتهاء حرب وبدء فترة سلم ، أن الحالة لم تتغير كثيراً ، وأن السكون الذى أعقب الانفجار لم يكن سوى المنظر التالى من مناظر هذه المأساة التى تمثل على مسارح السياسة الأوربية والعالمية حتى الوقت الحاضر ؛ وفى كل حالة قد خاب ظن هؤلاء الذين كانوا يعللون النفس بأن مجرد ظهور فجر السلم سوف يبدد ظلمة الحرب ، وأن ضوء السلم سوف ينير الطريق للعمل على إنهاض القارة من كبوتها وإقالتها من عثرتها ، وفى النهاية إلى تلطيف حدة شقائها ، وتضميد جروحها[١٣] .

ولقد خرجت أوربا من الحرب العظمى الماضية بعد أن أصابها العطب والتلف وشملها الدمار والخراب فى أجزاء كثيرة منها ، ولذلك كانت مجهودات إنهاض أوربا من كبوتها بطيئة : إذ أن عملية الإنقاذ كانت متشعبة ومعقدة ولذا كانت خطواتها ثقيلة غير مطردة . ولقد تركت الحرب العظمى الماضية مساحات عظيمة من قارة أوربا قاعا صفصفاً ، ولم تبق فيها ولم تذر ، حتى أصبحت القارة وكأنها على شفا جرف هار ، وكانت المجاعات تجتاح كثيراً من جهاتها ، على حين كان العوز والفقر يسودان جل ربوعها . ولقد ترتب على انتشار الجوع والفقر فى ربوع القارة ، التى أصابت منها الحرب مقتلا ، تمهيد الطريق لظهور الاضطراب والارتباك ، وغدت دول كثيرة قاب قوسين أو أدنى من الانهيار والاضمحلال ، وأنشبت الفوضى أظافرها فى دول وسط أوربا وشرقيها . ولقد ضاعف خطورة الحالة اضطراب الأفكار بسبب الانقلابات السياسية التى أعقبت الانتهاء من تلك الحرب نتيجة تصفية ثلاث امبراطوريات أعلن إفلاسها بعد خروجها مقهورة[١٤] ، وبدأت عناصر السكان المختلفة فى كل من ألمانيا والنمسا وتركيا تأخذ القانون فى يدها وتعمل بما تسوله لها إرادتها ورغبتها ، وأدى ذلك بطبيعة الحال إلى التطاحن الدموى بين العناصر الجنسية التى تتألف منها هذه القوميات ؛ ووقعت جهات كثيرة

من أوربا الوسطى والشرقية والجنوبية الشرقية فريسة للحرب الداخلية وسفك الدماء، وكأن القارة لم يكفها أن تخسر الملايين من المحاربين . وأن تفقد بلايين الجنيهات من المتاع بسبب هذه الجزرة العظمى التى ظلت سنوات تلتهم الأخضر واليابس، وتأتى على كل ما وصلت اليه يدها من نتائج النشاط البشرى ومعالم الحضارة الراقية التى أقامها سكان هذه الأقاليم بعد مجهودات جبارة مدى قرون عديدة[١٥] . وهكذا انفرط عقد الأمن والطمأنينة واضطرب حبل السلم وتعذرت سبل الإنقاذ بسبب الاضطراب العام الذى ساد جميع نواحى النشاط الاقتصادى القومى ، وكسدت التجارة وتعذرت المبادلة بعد أن تدهورت قيم العملة المتداولة وأصيبت أقطار متعددة من أوربا بما يشبه الشلل فى نواحى حياتها المختلفة[١٦] .

ومن الطبيعى أن يؤدى العمل على إعادة بناء صرح أوربا من جديد إلى ظهور مشكلات التحديد بوضوح ، وفى الحق أن كثيراً من هذه المشكلات كان كامناً متأهباً للوثوب متى حانت الفرصة ، فمثلا كانت العناصر الجنسية المختلفة فى أواسط القارة وشرقيها دائمة المطالبة بوجوب إنقاذها ، كما كانت العناصر المحكومة فى الامبراطوريات الثلاث التى تقرر تصفيتها وتسوية حسابها تئن وتشكو من أجل إطلاق سراحها ؛ ولكن إذا كان من المسلم به إجابتها لما تطلب فإلى أين تذهب هذه العناصر ، وفى أى اتجاه ؛ وهل يسمح له أن تبقى وتعيش لنفسها أو هل تضم إلى بعض جيرانها ؟ وهل يكتفى بمنحها شبه استقلال أو هل يسمح لها بنظام سياسى خاص بها ؟ وفى النهاية هل تكون النتيجة إخضاعها تحت علم جديد ؟ ويلوح أن لورد برايس Bryce قد أصاب حين قال « قد كانت رغبات العناصر الجنسية التى تكره حكامها السابقين وتطلب الاستقلال أو الانضمام إلى بنى جنسها أو أقرب الناس إليها ، أعقد مشاكل التحديد[١٧] » ; ولكن يظهر أن تحقيق هذه الرغبات كان بعيد المنال ولم تجىء الحدود السياسية الموضوعة بما كانت تجيش به الخواطر من الأمانى : إذ أن العقبات التى واجهتها والسياسات الأوربية المتعارضة التى صورتها وشكلتها ، أبعدتها فى النهاية عن مقصدها ، وأخرجتها عن جميع القواعد والمبادىء التى ظن أنها جاءت لخدمتها وصيانتها[١٨] .

ويمكن الباحث أن يتعقب أسباب هذا الفشل على الرغم من كونها كثيرة ومتعددة

ومختلفة، وتأتى فى مقدمة هذه الأسباب مشكلات الجنس واللغة وتوزيع موارد الثروة وطريقة تطبيق مبدأ تقرير المصير، الذى ولو أنه ربما كان من أهم ماتوحى به الديمقراطية، إلا أنه فى الواقع كان سبباً فى التقسيم والتجزئة وترتب عليه ظهور كثير من الصعوبات فى طريق التفاهم السياسى والتعاون الثقافى والاقتصادى(١٩)، وقد كان تطبيقه فى حالة وسط أوربا (٢٠) وشرقيها كفيلا بخلق متاعب وإثارة مشكلات كان يمكن تسويتها ومعالجتها بطرق أخرى أكثر ملاءمة لظروف القارة وملابساتها (٢١). وإذا عرفنا أنه يقل أن توجد قومية واحدة متماسكة قوية وغير مختلطة(٢٢) بل يغلب على الكثير من القوميات أن يشمل ضمن نطاق حدوده أقليات أجنبية هامة ترجع أصلا إلى قوميات أخرى، أصبح ممكنا الحكم بان كثيراً من عمليات التخطيط السياسى — بسبب تطبيق هذا المبدأ — قد أضرت أوربا بدلا من إفادتها : إذ اتخاذ الجنس أو اللغة أساسا فى بناء القوميات الجديدة المستقلة لا يمكن التسليم بصوابه ويتعذر تنفيذه بما يطابق العدالة، وكثيراً ما يترتب عليه فقط تغيير الحالة بانصاف فريق كان مظلوما فى الماضى وظلم فريق فى الوقت الحاضر (٢٣).

كذلك كانت مشكلة الحدود الخاصة بالدويلات الجديدة التى خلقت لخدمة غرض خاص، فقد ترتب عليها ظهور كثير من التسويات الأرضية التى يشوبها النقص ويبرز فيها الخطأ الواضح (٢٤).

ومما يزيد فى خطورة مشكلات التحديد السياسى عدم ترك الباب مفتوحا لإصلاح ما قد يظهر من الخطأ فى التحديد، والواجب يقضى باعتبار الحدود السياسية الجديدة مجرد إجراءات مؤقتة وغير دائمة، وأن مصيرها يتوقف على الظروف والملابسات الاقتصادية والاجتماعية بدلا من اعتبارها أمورا مقررة، ووضع القيود والصعوبات فى طريق تنقيحها ومراجعتها حتى تصبح كل محاولة لتعديلها اختياريا عملية متعذرة أو شبه مستحيلة. وليس من العسير مناقشة مثل هذا الخطأ الظاهر، ويكفى الناقد أن يذكر أن الحدود القومية السياسية لم يمكن ولن يمكن الاعتراف بأنها يجب أن تظل ثابتة وباقية : إذ لم تكن مثل هذه الحدود يوما ما غير قابلة للتحوير والتغيير، وإن تاريخ وسط أوربا وشرقيها وجنوبها الشرقى يعطى الباحث أمثلة عديدة لحدود القوميات المضطربة، وكيف تغيرت وتعدلت

فى مختلف العصور وفق الحوادث التاريخية الهامة التى أثرت فيها ، وحتى فى حالة غرب أوربا كانت حدود فرنسا أيام ملكية لويس الرابع عشر مثلا تختلف عنها أيام الثورة أو فى عهد الامبراطورية الأولى ، أو عقب مؤتمر فينا ، أو بعد حرب السبعين . وهكذا يؤدى التعلق بالحدود الموضوعة فى فترة ما إلى انتشار موجة الاضطراب وعدم الاستقرار بسبب الجشع الطبيعى ، وهنا تظهر النفوس البشرية على حقيقتها وتتكشف غريزتها التى جبلت على حب الملكية سواء فى ذلك حقها أو ما ليس من حقها ، حتى أصبح تملك الأرض من أهم ما شغل الفكر البشرى منذ أقدم العصور .

وليس من شك أن تقرير الحدود السياسية الجديدة يجب أن يسير وفق القواعد الأساسية التى يتحتم العمل بمقتضاها أثناء تخطيط حدود القوميات المختلفة . ونخص بالذكر عامل الأرض وعامل السكان وكلاهما لا يقل فى الأهمية عن الآخر(٥). والواقع أن المثل الأعلى للحد الطبيعى يجب أن يكون فى الوقت نفسه جغرافيا فى مظهره وكاملا من حيث كونه فاصلا جنسيا ، ولكن لسوء الحظ يندر وجود مثل هذه الحدود ويحدث أن تتشكل الحدود وتتعقد بسبب العوامل الجغرافية والاعتبارات القومية والقيمة النسبية والميول البشرية والأهمية الحربية والرغبة الجنسية والفروق اللغوية ودرجة التقدم الحضارى وغير ذلك من المتناقضات(٢٦).

وعلى هذا الأساس كانت خرائط أوربا السياسية المتعاقبة وهى عبارة عن خليط من الحدود الجيدة والرديئة . أما الحدود الجيدة وهى أقلية ضئيلة فقد وضعتها الطبيعة بنفسها ولم يتدخل الإنسان فى رسمها وتقريرها ، على حين كانت الأغلبية الساحقة من النوع الردىء الذى صنعه الانسان ولم يتقن صنعه لغرض فى نفسه : فمثلا فى حالة شبه جزيرة أيبريا وإيطاليا والجزائر البريطانية وشبه جزيرة اسكندناوه قامت الجغرافية بمهمتها وأعطت خطوطاً من التضاريس الصالحة لقيام حدود طبيعية لدرجة عظيمة ، ولقد أقام التاريخ البرهان على أنها حدود قوية منيعة .

على أنه يظهر العكس فى جميع الحالات التى لا تتوافر فيها هذه الحدود الطبيعية ، وخير مثال لذلك الحدود بين فرنسا وألمانيا ، وحدود بلجيكا وهولندا وحدود دول أواسط أوربا وشرقيها وفى النهاية حدود الدول البلقانية . فى جميع هذه الحالات

السابقة لم تتدخل العوامل الجغرافية الطبيعية فى تقرير مواضع خطوط الحدود ، بل قامت الحدود الجديدة على أسس صناعية واعتمدت فى حالات كثيرة على قواعد تاريخية بحتة ترجع الى عصور خاصة فى تاريخها منذ عدة قرون (٢٧). وقد أثبتت التجارب فيما يتعلق بأوربا أن أفضل الحدود الطبيعية بعد البحر هى الجبال العالية ولهذا كانت البرانس حداً طبيعيا مانعا ، ومثل هذا يقال عن الكربات والألب إذ أن الجبال بسبب ارتفاعها تكون حاجزاً مانعا يقسم الناس الى شطرين وتحولهم الى جهتين متضادتين على الرغم من التقدم العلمى الحديث ، كما أثبتت الجبال بما لا يترك مجالا للشك قيمتها الحربية .

هذا ويرى الباحث فى خريطة أوربا بطريقة خاصة شيوع ظاهرة استخدام الأنهار فى تخطيط الحدود . وهنا موضع الخطأ إذ الأنهار بطبيعتها تدعو الى الربط والوصل ويقل أن تنجح فى الفصل (٢٨) . وليس معنى هذا أنها لا تصلح بتاتا لهذا الغرض ، إذ كيف تنكر أهميتها الحربية ؟ ويلوح أن هذا هو سبب استعمال الطونة والرين وغيرهما من الأنهار فى تخطيط الحدود السياسية ، ويضاف الى ذلك أن نسبة عالية من الحدود السياسية ، لا تقوم على الجبال أو الأنهار وإنما تعتمد على بعض مظاهر التضاريس القليلة الأهمية أو يكون أساسها اعتبار نقط الدفاع أو طرق المواصلات . وقد لعبت طرق المواصلات دوراً هاما فى تعديل الحدود وتشكيلها ، وكثيراً ما وضعت الحدود لخدمة غرض خاص بتوفير سبل الاتصال بالبحار سواء كان ذلك بطريق مباشر أو غير مباشر . كما أن ظاهرة دولية الأنهار وحرية الموانى ترجع أصلا إلى مشكلة طرق المواصلات وخاصة فى حياة وسط أوربا (٢٩). وقد ظلم واضعوا الحدود السياسة الجديدة أنفسهم كثيراً وحملوا خريطة أوربا السياسية عبئا ثقيلا حين أوجدوا الدول الجديدة بحدودها التى رسموها . وفى كثير من الأحيان تقطع هذه الحدود السياسية الصناعية الخطوط الحديدية والبرية التى تجرى فى الطرق الجغرافية الطبيعية ، والأمثلة على ذلك كثيرة ومتعددة ، وتظهر بصفة خاصة فى حالة حدود دول وسط أوربا وشبه جزيرة البلقان .

ويضاف الى هذا كله عامل التدخل فى شئون بعض العوامل الجغرافية الهامة مثل موارد الثروة الطبيعية فى الأقاليم المختلفة والاجتهاد فى توزيعها لخدمة أغراض خاصة . والواقع أن تقسيم الأرض الخصبة وغير الخصبة وتوزيع موارد الثروة المعدنية بقصد

إرضاء مطالب الدول الجديدة لا يمكن تبريره تبريرا عادلا مقبولا . وليس من شك أن مسائل الفحم والحديد كانت بصفة خاصة عاملا عظيم الأثر فى تخطيط حدود أوربا الجديدة ، وقد ظهر ذلك بوضوح فى حالة تخطيط حدود مناطق الفحم فى سيليزيا العليا وتشن Teschen ولمبنج والسار ومناطق الحديد فى برى Briey ومناطق البوتاس فى الألزاس العليا ومناطق الزئبق فى كارنيولا . ويلوح أن التاريخ هنا يعيد نفسه ولكن على نطاق أوسع ، وبصورة أعم وأكبر . ذلك لأن حدود أوربا الجديدة ، عقب انتهاء الحرب العظمى الماضية ، تمثل نفس الأخطاء التى ظهرت فى الحدود التى جاءت نتيجة مؤتمر فينا ١٨١٤ — ١٨١٥ وكذلك تلك التى جاءت عقب حرب السبعين ، لأنها تتشابه فى تأثرها الشديد باعتبارات توزيع موارد الثروة الطبيعية الهامة ، ولكن يلوح أن حدوث خطأ فى الماضى لا يبرر ارتكاب خطأ مثله فى الوقت الحاضر . وقد برهنت الحوادث على ضرر مثل هذا العمل لأنه يحمل بين ثناياه بذور الاضطراب وعدم الاستقرار ، ويؤدى فى النهاية الى الشجار والكفاح عند ما تسنح أول فرصة مناسبة ، وعلى ذلك يجب الاتعاظ بنتائج الماضى حتى لا تتكرر المأساة ويعيد تاريخ أوربا المضطرب نفسه [٣٠].

هكذا خرجت خريطة أوربا الجديدة بحدودها الصناعية للفصل بين دولها القديمة وقومياتها المبعوثة الحديثة نتيجة تطبيق مبدأ تقرير المصير أو اتخاذ أساس لغوى أو جنسى حجة لمنحها كيانها واستقلالها . ومن الطبيعى أن يؤدى خلق مثل هذه القوميات المستقلة الى ظهور كثير من المشكلات وخاصة فى وسط أوربا حيث تختلط الأجناس واللغات والحضارات ويتعذر أو يستحيل العزل بينها . وقد زاد فى هذه الصعوبات ، وساعد على تعقد الحالة لدرجة عظيمة ، أن القوميات التى نشأت عن طريق تطبيق هذا المبدأ ، ورسمت حدودها تبعا للاعتبارات السالف ذكرها ، أصبحت بحالتها الراهنة وفى ظل حدودها الموضوعة الحديثة تضم عدداً من الأقليات على كل حد من حدودها [٣١] ، الأمر الذى يجعل استقلالها مهدداً دائماً . وقد أظهرت الأيام القريبة الماضية صدق هذا القول وتغيرت معالم الخريطة الجديدة فى أجزاء من وسط القارة وشرقيها بعد أن نجحت بعض الدول فى ضم أقلياتها المجاورة اليها .

هذا ويلحظ أن الاحصاءات التى اتخذت أساساً فى تحديد مواطن القوميات

المختلفة ، كانت فى كثير من الأحيان قابلة للمناقشة كما كان بعضها مشكوكا فى صحته ، فمثلا فى بعض الحالات كان الاعتماد على احصاءات قديمة نسبياً كما كان الحال فى تخطيط حدود دول امبراطورية النمسا والمجر ، وفى حالات أخرى وضعت الحدود على أساس إحصاءات أوائل هذا القرن أو أواخر القرن الماضى . وفى حالة بولندا وتشيكوسلوفاكيا كان الاعتماد على مزاعم تاريخية ترجع إلى عصور خاصة فى تاريخها منذ عدة قرون .
ولما كانت هذه الاحصاءات فى جملتها تعنى بتوضيح تعداد التوزيع اللغوى ، فقد ترتب على ذلك أن أصبح الأساس اللغوى أهم القواعد بعد أن استحال اتخاذ التوزيع الجنسى أساساً لخريطة أوربا الجديدة[٣٢] . ويمكن الاعتراض بسهولة على مثل هذا العمل ، لأن التوزيع اللغوى كثيراً ما يختلف مع العاطفة القومية أو السياسية كما ظهر ذلك فى استفتاء النشتين ومرينفردر على حدود بروسيا الشرقية ، على عكس ما كان ينتظره البولنديون[٣٣] . ومثل ذلك يقال عن تصويت عناصر بولندية للبقاء فى سيليزيا العليا الألمانية . وقد لجأ واضعو الحدود فى بعض الحالات إلى تقرير مبدأ الاستفتاء ، ولكن مع الاعتراف بصواب هذا العمل من الناحية القانونية والديمقراطية ، إلا أنه من الناحية الشكلية الواقعية ، لم يأت بالنتيجة العادلة المنتظرة ، وكثيراً ما حدث الاستفتاء تحت الضغط والتهديد واستعملت فيه وسائل غير مشروعة ، وفى حالات متعددة لم تحترم نتائج الاستفتاء كما حدث فى سيليزيا العليا وشلزفج ووضعت الحدود الجديدة على أساس اعتبارات أخرى مغايرة لما جاء به الاستفتاء ونخص بالذكر الاعتبارات الاقتصادية والحربية[٣٤] .

هذه حالة خريطة أوربا السياسية التى جاءت بها معاهدة فرساى وليس من شك أن إضافة عدد من الدول الجديدة الناشئة التى لم يكن لها وجود قبل الحرب العظمى الماضية كان معناه ازدياد أطوال الحدود ، وكلما تضاعفت أطوال الحدود السياسية كثرت فرص الاحتكاك وعظم احتمال ظهور المشكلات ، التى قد يترتب عليها تعكير صفو السلم . ويزيد فى خطورة هذا الوضع كون نسبة كبيرة من الحدود السياسية الأوربية غير طبيعى بل ولا يمكن اعتبارها بحق حدوداً واضحة فاصلة مانعة وجلها من عمل الإنسان وتعتمد على مظاهر غير ثابتة وغير مقررة أو مقبولة .

أما فيما يتعلق بتفضيل حد سياسى خاص على آخر فأمر قد اختلف بشأنه الباحثون وكثر النقاش حوله وتعارضت الآراء بصدده ، فمثلا يذهب هولدتش إلى تفضيل الحد السياسى الذى يمثل ظاهرة جغرافية طبيعية ، ويعتبر أن أفضل الحدود السياسية ما كان يمثل منطقة قليلة السكان أو شبه خالية من السكان ، ويضرب مثلا لذلك الأقاليم الجبلية المرتفعة التى ثبت بالتجربة أنها تعطى حدوداً سياسية جيدة كما هى حالة الحد الفاصل بين السويد والنرويج ، ويكفى دليلا على جودته أن أقل من ٥ ٪ من تجارة الجارتين يعبر هذا الطريق الوعر (٣٥) . كذلك حالة الصحراوات الجرداء التى تكون فى العادة خالية أو شبه خالية من السكان ، فهذه بسبب فقرها وقلة جاذبيتها وتعذر اختراقها وصعوبة الحياة فى ربوعها يمكن أن تعطى نوعاً من الحدود السياسية الجيدة فى جميع الجهات التى تمثل فيها . ويكاد يتفق الباحثون على أن مناطق الجبال العالية الوعرة ، حيث تقف صعوبة التضاريس حائلا دون تيسير عبورها ويؤثر مناخها البارد فى تقليل مجهود الإنسان بصفة عامة وتحديد فترة إمكان عبورها بصفة خاصة ، تمثل أكثر الحدود السياسية مناعة وأفضلها للقيام بالغرض المقصود منها .

أما مناطق المستنقعات الفسيحة فقد كثر اتخاذها فى الماضى للفصل بين الوحدات السياسية ولكن يلوح أن شأنها قد فقد الكثير من أهميته لأن الانسان قد نجح فى كثير من مناطقها فى تجفيفها وبالتالى قد أمكنه التغلب على مبررات استعمالها ، ونقصد صعوبة عبورها ، وقلة سكانها ، وعدم جاذبيتها ، ومن ثم أصبحت صلاحيتها للاستعمال فى هذا السبيل محدودة للغاية . ولم تمنع مستنقعات بريت وبنكس الاتصال والاحتكاك بين روسيا وبولندا على الرغم من عظم مساحتها واتساع نطاقها .

وإذا كانت المستنقعات قد لعبت دوراً عظيما فى تاريخ الماضى ، إذ كان يرهبها الانسان فيباعد بينه وبينها ، كما حدث لقدماء المصريين الذين أدى بهم وجلهم من مستنقعات شمال الدلتا إلى الابتعاد عن شواطىء البحر الأبيض المتوسط ، وحرمانهم من أن يألفوا هذا البحر أو يتعلقوا بركوبه ، وأن يتأثروا فى حياتهم بوقوعهم عليه ، بدليل إن إنشاء الاسكندرية مثلا قد جاء على يد أقوام وفدوا إلى مصر من الخارج . ومع ذلك فإن المصريين القدماء قد نجحوا بالتدريج فى تذليل هذه العقبة عن طريق تقدم حضارتهم

وتطور مقدرتهم ، وبدأت صلتهم بسواحلهم الشمالية تقوى وتعظم تبعاً لذلك . كذلك حال إفريقية المدارية والاستوائية التى عملت مستنقعاتها الساحلية على حجبها عن الأنظار وحمايتها من الرواد مدة طويلة ، غير أنها خضعت فى النهاية حين نجح الانسان فى التغلب عليها بتجفيف بعضها أو كلها ليسهل عليه اختراقها وساعده تقدمه العلمى على أن يعيش فى كنفها أو بالقرب منها دون أن تقضى عليه أخطارها أو تودى به أوبئتها وأمراضها المتوطنة فيها .

وقد كانت الغابات الطبيعية شائعة الاستعمال فى التحديد السياسى ، وكان الانسان فى هجراته المتعاقبة وانتقالاته المستمرة يبتعد عنها ويفضل عليها الأرض المكشوفة ، غير أن تقدم حضاراته قد عمل على تسهيل مهمة اختراقها وبذلك فقدت صلاحيتها لهذا الغرض، ولو أنها ما زالت من الناحية الحربية تمثل عقبة ذات قيمة لا تنكر . ولما كانت الغابات فى العادة تمثل جهات قليلة السكان ، فقد كان هذا العامل من أهم ما كان يبرر صلاحيتها لأن تقوم كحد سياسى . ولكن التقدم العظيم فى سبل المواصلات الحديثة وخاصة فى ناحيتى السكك الحديدية والطرق المعبدة قلل كثيراً من درجة صلاحيتها ، اللهم إلا فى حالات محدودة ، فمثلا مازالت الغابات التى يسكنها ذباب تسى تسى فى أواسط أفريقية قادرة على منع غزوات الرعاة ، وقائمة بوظيفتها على الوجه المرضى . وليس من شك أن أهميتها ترجع فى الواقع إلى وجود هذا الذباب، وهو عدو الحيوان أولا والإنسان ثانياً، أكثر منها إلى أى عامل يتصل بحياتها ، وأشجارها ، وكثافتها ، وظلتها أو وحشتها ، كما كان حالها فى الماضى .

ولقد كان شأن المحيطات العظيمة والبحار الفسيحة كبيراً فى هذه الناحية بدليل أن المحيط الأطلسى قد نجح فى حجب العالم الجديد عن أنظار العالم القديم مدة طويلة ، كما نجحت البحار الشمالية الباردة والمتجمدة فى حجب معالم مناطقها بسبب صعوبة ملاحتها وقسوة مناخها، ولكن التقدم العلمى قد قلل من أهميتها بعد أن ذلّل صعابها ويسر ركوبها .

أما ليد Lyde فيذهب فى تفضيل مجارى الأنهار كحدود سياسية فاصلة إلى أبعد حد (٣٦). غير أن هذا الرأى لم يلق قبولا كثيراً ، ذلك لأن النهر لا يصلح بطبيعته للقيام بهذه المهمة إذ وظيفته الرئيسية وصل المناطق بعضها بالبعض الآخر والعمل على إيجاد

مصلحة مشتركة بين أجزاء حوضه . ويضاف إلى ذلك أن أودية الأنهار تجتذب إليها عادة قدرا كبيراً من السكان بسبب انبساط السطح وخصوبة التربة وإمكان قيام الزراعة والانتفاع بالنهر كطريق للمواصلات ، وكل هذه العوامل تجعل من النهر أداة للوصل أكثر منه حاجزا للفصل . وتجمل الاشارة إلى أن مجارى بعض الأنهار قد استخدمت بنجاح فى عملية التحديد السياسى ، كما هى الحال فى منطقة خانق كلورادو حيث يصبح مجرى النهر حداً سياسياً منيعاً لمسافة تزيد على ٥٠٠ كيلو متر بين الولايات المتحدة والمكسيك ، وكذلك حال خانق برهمبترا ، بيد أن الفضل فى هذه الأهمية لا يرجع أصلا إلى مجـــرى النهر ذاته بل إلى طبيعة تضاريس هذه المنطقة ومميزات سطحها الوعر (٣٧).

ويمكن القول بصفة عامة إن اتخاذ الأنهار فى التحديد السياسى لا يمكن أن يؤدى إلى النتيجة المرجوة ، ويؤيد ذلك ما جاء على لسان نابليون حين سئل عن أفضل الحـدود السياسية الطبيعية ، وكان الجواب أنه يفضل أولا المتسع المائى العظيم ثم الصحراء الجرداء الشاسعة ثم الجبال العالية الوعرة ثم الأنهار وهكذا يجىء ذكر النهر فى نهاية القائمة . وفى الحق توجد أنهار قليلة جدا فى العالم جميعه تفصل بنجاح بين مواطن اللغات أو الديانات أو الحضارات بصفة عامة ، بل إن المنافع التى يمكن الحصول عليها من النهر قد تكون من أقوى الدوافع لظهور المشكلات وإثارة الحزازات والشكايات . وإذا أضفنا إلى هذا كله أن كثيرا من الأنهار لا يستقر مجراه على حالة واحدة ، ونخص بالذكر الأنهار التى وصلت إلى مرحلة الشيخوخة فى مجراها جميعه أو فى أجزاء منه ، ولهذا تكثر من الانحناء والانثناء والتعرج وكثيرا ما يهجر النهر مجراه مفضلا عليه مجرى جديدا .

وهناك أمثلة عديدة نذكر منها على سبيل المثال تغيير مجرى هونج هو الأدنى فى الصين الشمالية والتغييرات الكثيرة المستمرة فى المجارى السفلى للرين والطونة والنيجر والنيل والكنج والمسيسبي ومرى ودارلنج وغيرها على الرغم من المجهودات العظيمة التى تبذل للاشراف عليها والتحكم فى نظام جريانها .

هذه الصعوبات جعلت مشكلة التحديد السياسى خطيرة ومعقدة ويزيد فى هـذا التعقيد ظهور عوامل جديدة ناشئة عن تطبيق مبـــدأ تقرير المصير وحق الشعوب

والقوميات فى أن تحيا الحياة التى تختارها لنفسها . ولكن السبيل إلى الفصل بينها مازال شائكا والوصول بمشكلات التحديد السياسى إلى حل يقبله الجميع ما زال فى كفة القدر . غير أن بادرة ناجحة قد ظهرت فى الأفق ونقصد بذلك تجربة تبادل السكان التى أدى استخدامها فيما بين تركيا واليونان، عقب معاهدة لوزان [٣٨] سنة ١٩٢٣ ، إلى نتيجة خير ما توصف به أنها مرضـــية لأنها أوجدت تقليداً جديدا واتجهت توجهاً حديثاً بين الدولتين وأقامت جواً من الاتفاق والتفاهم يفضل بكثير أعظم الحدود السياسية مناعة وأجلها خطرا وشأنا .

## المراجع


1. Fawcett. C.B. "Frontiers, a Study", Oxford 1918. pp 92—93.
2. Lord Curson "Frontiers" 2nd ed. Oxford pp 2—8 etc.
3. Sir T.H. Holditch "Frontiers etc" Geog. Journal Feb. 1916.
4. Jones. C.F. "South America" London 1931 pp 163—136 & 704 etc.
5. Huntington E. "The Pulse of Asia, 1908" pp 380—384.
6. Haddon, A.C. "The Wanderings of Peoples" Cambridge u. Press. 1927 pp 2—10 & 14—16.
7. Sir H. Johnston "The opening up of Africa" London pp 81—37 & 120—124 etc.
8. Alexander B. "From the Niger to the Nile" London pp. 3—9 etc.
9. Lord Curson Ibid pp 50—52.
10. Semple "The influences of geographic environment" Lond on 1911 pp 481—483 etc.
11. Ripley W. Z. "The races of Europe ' 1900 pp 12—34 etc.
12. Pringle W.H. "Economic problems in Europe today" 1928 pp 4—8 & 17 etc.
13. (a) Chisholm "The healing of nations" London 1925 pp. 14—30 etc.
    (b) Zimmern "Europe in convalescence" 1922 pp 3—10 & 14—16 etc.
14. (a) Alexander H.G. "The revival of Europe etc." 1924 pp 5—9 etc.
    (b) Dalton H. "Toward the peace of nations etc." 1928 pp 13—21 etc.
15. Maurice Sir F. "How the war was fought & won". Eventful Years yol. I p 268.
16. Bowman I. "The New Word" 1926 pp 3 & 189 & 224 & 394.
17. Haskins & Lord "Problems of the peace Conference" 1921 pp 2—6 etc.
18. Lansing "Peace negotiations" pp 217—218 & 234—237 & 278 etc.
19. Haskins & Lord "Ibid" pp 3—9 etc.
20. Butler "The fontiers of Central Europe & their defence" Geog. Teacher 1912 pp 251—253.
21. Czaplica "Problems of Easterm Europe" Geog. J. 1919 vol. II pp 249—257.
22. Hinks A. R. "Boundary delimitation in the Versailles treaty" Geog. J. 1919 vole II. p. 103 etc.
23. Nevil Forbes "Language & Nationality in Europe". Geog. J. 1917 vol. I. pp 448—453.
24. Hinks A.R. "Ibid" pp 103—105.
25. Brigham "Principles in the delimitation of frontiers" Geog. R. 1919. pp 8—17.

26. (a) Haskins & Lord "Ibid" pp 6—15.
(b) Dominian "Frontiers of language & nationality" New Yark 1917 pp 8—16 etc.
(c) New Begin "Race & Nationality" Geog. J. 1917. vol. L pp 313—317.
27. (a) Dyboski "The deliverence & reunion of Poland" Eventful years vol. II p 200.
(b) Eisenmann "La nouvelle Hongrie" Annales de Geog. 1920 pp 321—333.
(c) Hinks A.R. "The boundaries of Czechoslovakia" Geog. 1919 vol. II p 185.
28. Levanville Jacques "The economic function of the Rhine" Geog. R. 1926 vol. 16 pp 242—250.
29. Lyde L.W. "The international rivers of Europe" Geog. J. 1919 vol II. pp. 303—306.
30. (a) Sarolea C. "Europe & the League of Nations" London 1919 pp 102—103.
(b) Fisher H. "A History of Europe" London 1930 pp 1169—1170.
31. (a) Wallis P.C. "Distribution of nationalities in Hungary" Geog. J. 1916.
(b) Keynes J.H. "The new Statesman" 26 march, 1938.
32. Meillet A. "Les langues dans l'Europe Nouvelle" Paris 1918 pp 2—13 etc.
33. (a) Dauson "Germany undertreaty" London 1931 p 378.
(b) Boswell "Poland & the Poles" London pp 73—87.
34. (a) Jones L. "Plebiscites" in Grotius Society 1927 vol. B. pp 165—186.
(b) Keynes "Economic consequences of the peace" London pp 264—266.
35. Fawcett C.B. Ibid. pp 32—33,
36. Lyde "Some frontiers of tomorrow, an aspiration for Europe". 1915. pp 6—14 etc
37. New Begin "The geographical treatment of rivers" Scottish Geog magazine Feb 1916.
38. Morgenthau "An international drama" London pp 269—278.

محمد عبد المنعم الشرقاوى

# الخزف الفاطمى ذو البريق المعدنى
## فى مجموعة الدكتور على ابراهيم باشا

بقلم

جمال محمد محرز

يقتنى الدكتور على ابراهيم باشا مجموعة ثمينة من التحف الأثرية الأسلامية قل أن تنافسها مجموعة أخرى فى العالم . ولا ريب فى أن كثيراً من المتاحف تغبطه على هذه المجموعة الرائعة لاسيما ما تضمه من سجاد نادر وخزف إيرانى جميل .

على أن الذى يعنينا هنا من تلك المجموعة إنما هو ما تضمه من الأوانى الخزفية ذات البريق المعدنى التى « لايكاد ينافسه فى الفخر بمثلها إلا بعض المتاحف الأوربية والايرانية وبعض الغربيين وتجار العاديات الشرقية من الارمن والمقيمين فى أوربا وأمريكا ممن انصرفوا الى جمع هذه التحف الثمينة منذ زمان طويل » [1]

ولقد تفضل معاليه فأهدى إلى متحف معهد الآثار الأسلامية بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول مجموعة عظيمة من التحف الاسلامية بينها قطع كثيرة من الخزف ذى البريق المعدنى [2] .

والمعروف ان مجموعة على باشا ابراهيم تضم عدداً وافراً من الأوانى الخزفية التى صنعت بمصر فى العصر الفاطمى والتى تشهد بما أصابه الخزفيون فى ذلك العصر من توفيق فى انتاج الخزف ذى البريق المعدنى .

ويعتبر هذا الضرب من الخزف من مفاخر صناعة الخزف الاسلامية، لاسيما وأن الصين الذائعة الصيت فى صناعة الخزف لم تعرف هذه الصناعة ، وأن صناع الخزف الغربيين لم يفلحوا فى تقليد الخزف ذى البريق المعدنى إلا فى القرن ١٨ م [3]

ومما هو جدير بالذكر أن العثور على هذا الخزف فى أى بلد من البلدان الأوربية

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن : الدكتور على باشا ابراهيم وهواية الآثار الإسلامية ( مجلة الثقافة عدد ٩٤ ص ٢٣ ) .

(٢) تقرير كلية الآداب عن العامين الدراسيين ١٩٤٢—١٩٤٣،١٩٤٣ — ١٩٤٤ص ١٣و٣٥

(٣) A Survey of Persian Art جـ ٢ ص ١٤٩٠ .

دليل على أن العلاقات كانت قائمة بينها وبين الاقطار الاسلامية [١]

ويظن ان المسلمين كانوا يتخذون الخزف ذا البريق المعدنى بدلا من الأوانى الذهبية التى حرم الاسلام استعمالها [٢] لما له من بريق يعادل بريق الأوانى الذهبية ، وتكتسب القطعة الخزفية هذا البريق المعدنى باستخدام أملاح معدنية كالنحاس والحديد مثلا [٣] لرسم الموضوعات الزخرفية فوق الطبقة الزجاجية التى يطلى بها الفخار لتمنعه من امتصاص الألوان ولهذا تدخل القطعة الخزفية الفرن ثلاث مرات [٤] : الأولى لاكساب الطمى صلابة والثانية لتثبيت الزجاج فوق الفخار والثالثة لتثبيت المعدن اذأن الأملاح تتحول باتحادها بالدخان المتصاعد من النار إلى طبقة رقيقة من المعدن [٥] فوق الطبقة الزجاجية التى يغلب عليها اللون الابيض [٦] والتى تكون معتمة فى أكثر الأحيان نتيجة اضافة القصدير الى المادة الزجاجية كما قد تكون شفافة اذا ما أضيف الرصاص .

ويكاد يكون اللون الذهبي هو الشائع والمشترك بين الأقطار المختلفة مع تفاوت فى

---

(١) Riefstahl : The Parish—Watson Collection of Mohammedan Potteries pIX.

(٢) الدكتور زكى محمد حسن : الفنون الايرانية ص ١٦٩ . وانظر أيضا صحيح البخارى ومسلم باب تحريم استعمال أوانى الذهب والفضة فى الشرب وغيره على الرجال والنساء .

(٣) يضيف الأستاذ هوبسون Hobson الفضة إلى مجموعة المعادن التى تستخدم فى الحصول على البريق المعدنى (ص١٦٩٨ من A Survey of Persian Art ) فى حين أن الأستاذ بوب لايرى أثراً للفضة (ص١٤٨٨ من المرجع السابق ) ، وتوجد إشارة أخرى إلى استعمال الفضة بين هذه المعادن فى Aly Bey Bahgat et Felix Massoul : La Céramique Musulmane de L'Egypte. ص ١٩ .

(٤) الدكتور زكى محمد حسن : الفنون الايرانية ص ١٧٠ — ١٧١ ويذكر الأستاذان بوپ وديماند أن عملية البريق المعدنى تحتاج الى عمليتى احراق الأولى خاصة بتثبيت الطبقة الزجاجية والثانية لتثبيت الأملاح المعدنية وهذا لا يتعارض مع ما ذكر إذ أن القطعة تحرق قبل طلائها بالزجاج ، انظر A Survey of Persian Art ج ٢ ص ١٤٨٨ ، ١٦٩٨ ؛ Dimand: Loan Exihibition of Ceramic Art of the Near East ص XIV

(٥) ديماند : المصدر السابق ص XIV.

(٦) يوجد أيضا لون أبيض ضارب الى الزرقة ولون أبيض ضارب إلى الخضرة . انظر الدكتور زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ١٥١ ؛ Dimand: A Handbook of Mohammedan Decorative Arst ص ١٦٩ .

الدرجة [١] ونجده أحيانا أصفراً ضارباً الى الخضرة وأحياناً أخرى أحمرا نحاسيا كما نجد ألوانا أخرى كالأسمر والزيتونى والقرمزى. ولكل قطر ألوانه المحببة اليه، ففى إيران نجـد الذهبى والقرمزى والأحمر والأصفر والأسمر والزيتونى [٢] وفى مصر فى العصر الطولونى الأصفر والزيتونى[٣] وفى العهد الفاطمى الذهبى والأحمر والأسمر[٤]. وللخزف الأندلسى المتأخر ( ١٤ - ١٦ م ) بريقه الذهبى الذى لاتخطئه العين. وقد يكون البريق المعدنى فى التحفة من لون واحد أو متعدد الألوان.

ولقد انتشر الخزف ذو البريق المعدنى فى أنحاء العالم الاسلامى إذ عثر فى الحفائر على تحف منه فى إيران والعراق ومصر وأسبانيا [٥]. وأدى هذا الانتشار إلى انقسام علماء الآثار الاسلامية فيما بينهم بخصوص مهد هذا الأسلوب الصناعى؛ فيرى بعضهم ولاسيما علماء المدرسة الفرنسية من مؤرخى الفنون الاسلامية أن إيران هى المهد[٦] ومنها انتشر إلى باقى أجزاء الأمبراطورية الاسلامية وقد تبعهم أخيرا فى هذا الرأى القائمون على إخراج موسوعة الفن الايرانى[٧] (A Survey of Persian Art). بينما يذهب علماء الآثار الاسلامية من الألمان إلى أن العراق هى الموطن الأصلى، ولو أن هناك اختلافا بين الدكتور كونل ( Kühnel ) والدكتور زره (Sarre) حول مركز هذه الصناعة فيعتقد الأول أن بغداد هى المركز الفنى بينما يقول الثانى أن ذلك المركز كان سامرا. ويتفق كثير من علماء

---

(١) انظر اللوحات الملونة للخزف الاسـلامى المنشورة فى Kœchlin & Migeon : Islamische Kunstwerke ولا سيما لوحة ٦٢١ للايرانى ولوحة ٣ لطرازسامرا ولوحة ٧ للفاطمى ولوحة ٥٠ — ٥٢ للاندلسى .

(٢) A Survey of Persian Art جـ ٢ ص ١٤٨٨، الدكتور زكى محمد حسن : الفنون الايرانية ص ١٧٠ .

(٣) الدكتور زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ص ١٠٢ .

(٤) الدكتور زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ١٥١؛ Dimand : A Handbook of Mohammedan Decorative Arts ص ١٦٩ .

(٥) Riefstahl : المصدر السابق ص XI ؛ Pézard. La Céramique Archaïque de l'Islam et Ses Origines ص ١٣٦ .

(٦) Pézard : المصدر السابق ص ١٣٥ .

(٧) A Survey of Persian Art جـ ٢ ص ١٤٩٣ — ١٤٩٤ .

الآثار الاسلامية فى الوقت الحاضر مع الدكتور كونل ويقرونه على رأيه [١]

أما عن مصر فلا يوافق علماء الآثار الدكتور بتلر فيما ذهب اليه من أن مصر قد أخذت هذه الصناعة عن الأقباط [٢]، وذلك لعدم وجود أدلة تؤيد نظريته ولأن الخزف الذى عثر عليه فى أطلال الفسطاط لا يرجع إلى عصر سابق عن القرن ٩ الميلادى [٣] بل ان ما عثر عليه شديد الصلة جدا بطراز سامرا [٤] وليس من شك فى أن كثيرا من هذه القطع قد استورد من العراق . ولكن الثابت أن مصر صنعت نوعا مماثلا من هذا الخزف فى بريقه وأسلوب صناعته وتلوينه ، فقد عثر على بعض القطع التى تدل عجينتها على أنها صناعة مصرية [٥]

أما فى العصر الفاطمى فقد كانت صناعة الخزف ذى البريق المعدنى قائمة موطدة الأركان ولم يعد هناك ما يدعو إلى الشك فى أن الخزف الفاطمى ذا البريق المعدنى من صناعة مصر على يد صناع مصريين بعد أن وصلت الينا قطع عليها إمضاء صانعها واسم المدينة التى صنعت فيها ، مثال ذلك الصحن المذكور عليه أنه من « عمل إبراهيم بمصر » [٦] والموجود فى مجموعة الدكتور على باشا ابراهيم وقطع أخرى فى نفس المجموعة

وإلى القارئ وصف القطع الرئيسية من الخزف المصرى ذى البريق المعدنى فى هذه المجموعة التى تمتاز بوجود أكثر من ٢٠ طبقا تكاد تكون كاملة :

---

(١) انظر ما كتبه الدكتور زكى محمد حسن عن هذه الآراء فى كتابه : « الفن الاسلامى فى مصر » ص ١٠٢ — ١٠٥ وراجع A Survey of Persian Art جـ ٢ ص ١٤٩٠ حاشية ١ .

(٢) Butler: Islamic Pottery ص ٤٠ وما بعدها .

(٣) الدكتور زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ص ١٠١ ؛ Dimand : A Handbook of Mohammedan Decorative Arts ص ١٦٩ ؛ Hobson ; A Guide to the Islamic Pottery of the Near East ص XV .

(٤) الدكتور زكى محمد حسن : دليل موجز لمعروضات دار الآثار العربية ص ٤٥ .

(٥) الدكتور زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ص ١٠٣ ، كنوز الفاطميين ص ١٤٩ ، ديماند : المصدر السابق ص ١٦٢ حيث ذكر أن إحدى هذه القطع محفوظة فى متحف المتروبوليتان بنيويورك .

(٦) Wiet : Deux Pièces de Céramique Egyptiennes ( Ars Islamica vol III : 2) ص ١٧٦ ش ٣ والدكتور زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ١٥٣ ، ١٥٤ وشكلى ٢٥ ، ٢٦ .

رقم ٥٢ من المجموعة :

صحن ذو جدار سميك . والرسوم من بريق معدنى ذى لون أصفر زيتونى فوق طبقة زجاجية معتمة بيضاء اللون تغطى السطح الداخلى والخارجى للاناء المزخرف أيضا

ويزخرف السطح الداخلى فيل ضخم الجثة مرسوم باتقان ويحتل مساحة السطح كلها تاركا فراغا بسيطا مزينا بأوراق نباتية من ثلاثة فصوص يشبه فصها العلوى الحربة تقريبا وللفيل ذنب طويل وهو مرسوم فى حالة السير مقدما اليد اليسرى إلى الأمام وخافضا رأسه إلى أسفل . وقد رسمت بعض خطوط بيضاء لتساعد على توضيح أجزاء جسم الحيوان كما نرى فى رسم اليد اليمنى ومفصلها وكذلك فى رسم الأقدام ، وحول أسفل سيقان الحيوان الأربع عصابة قريبة الشبه بالعقد أو الخلخال وقد زينت حافة الصحن بقطاعات من دائرة .

أما السطح الخارجى فزين بأربع دوائر كل منها عبارة عن دائرتين متحدتى المركز بداخل الصغرى عدة نقط نرى مثيلا لها تملأ المساحة بين الدوائر الأربع وباحدى هذه الدوائر نجد بالخط المستدير « عمل إبراهيم بمصر » كما نجد بوسط القاعدة كلمة « صح »

وأبعاد هذا الصحن : قطر ٢٨,٥ سم . ارتفاع ٦,٥ سم . قطر القاعدة ١٣ سم . ارتفاع القاعدة ١ سم

وترجع هذه القطعة إلى القرن ١٠ - ١١ م

ومما يلاحظ أن اتخاذ الفيل عنصرا زخرفيا أمر نادر وخاصة فى العصور الإسلامية الأولى . وما يعرف من التحف المزينة برسوم فيلة قليل وقد ذكرها الاستاذ ڤييت فى مقاله المنشور فى مجلة Ars Islamica ( المجلد ٣ الجزء الثانى ) عند دراسة هذه التحفة كما ذكر بعضها الدكتور زكى محمد حسن فى كتاب تراث الاسلام (ص٦٥ حاشية ٢) ونستطيع أن نضيف إلى ما ذكر بعض شبابيك القلل من صناعة مصر [١] ونجمة من القاشانى من

---

(١) Aly Bey Bahgat et Felix Massoul : La Céramique Musulmane de l' Egypte
لوحة LVIII والدكتور زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين لوحة ٣٧ .

صناعة إيران فى القرن ١٣م[١] وأربع سلطانيات اثنتان من صناعـة مدينة الرى فى القرن الثالث عشر الميلادى [٢] ، والثالثة من صناعة مدينة ساوه فى القرن ١٣ م [٣] والرابعة من صناعة قاشان فى القرن ١٣ م [٤] وطبقا خزفيا من صناعة إيران أيضا حوالى سنة ١٧٠٠ م [٥] وسلطانية أخرى فى مجموعة الدكتور على باشا إبراهيم (رقم ١١٥) من صناعة سلطان آباد فى القرن ١٣ م

مراجع : Wiet : Deux Pièces de Céramique Egyptienne :(Ars Islamica : Vol III Part 2) ص ١٧٢ - ١٧٨ ، الدكتور زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ١٥٣ - ١٥٤

رقم ١٥٨ ( شكل ١ )

صحن ذو جدار سميك ولون البريق ذهبى على أرضية بيضاء معتمة .

ويزين هذا الصحن طاووس رافع ذيله إلى أعلا فملأ معظم مساحة الفراغ العلوى ويتدلى من منقاره فرع قصير لولبى الشكل وقد رسم التاج على شكل حرف واو مقلوب تخرج منه ورقـة نباتية . ويزين أرضية الصحن أفرع نباتية متداخلة يتصل بها أوراق نباتية مختلفة الأشكال بعضها ثلاثى وبعضها يشبه نصف المروحة النخيلية (پالمت) ويزين حافة الصحن إطار من قطاعات من دوائر غير منتظمة الشكل بعضها كبير وبعضها صغير .

والسطح الخارجى مزخرف بأشكال لولبية أو حلزونية .

أما أبعاده فهى : قطر ١٩,٢ سم . ارتفاع ٦سم . قطر القاعدة ٧,٥سم . ارتفاع ١ سم ويؤرخ من القرن ٥ هـ — ١١ م

والطاووس من الطيور التى اتخذت عنصرا زخرفيا . ونجد كثيرا من القطع المزخرفة بهذا الطائر ، منها تحفة خزفية فى متحف فيكتوريا والبرت ذات بريق معدنى من القرن ١٠ — ١١ م [٦] ومنها قطع محفوظة بدار الآثار العربية من نفس

---

(١) Céramique Orientale لوحة ٣٨ .

(٢) A Survey of Persian Art pl 663 fig A et B.

(٣) المصدر السابق لوحة ٦٩٢ أ

(٤) المصدر السابق لوحة ٦٧٥

(٥) ش ٨٠ من Hobson : a Guide to the Islamic Pottery of the Near East

(٦) Butler : Islamic Pottery لوحة ١٠ شكل ١

العصر [1] وعلى بعض قطع إيرانية من نفس العصر أيضا [2] كما استخدم رسم الطاووس في زخرفة شبابيك القلل [3]

رقم ١٥٩ :
سلطانية ذات حافة . وأسلوب صناعتها من النوع السابق شرحه فى القطعتين السابقتين غير ان اللون أصفر ليمونى .
ونجد هنا زخرفة خاصة بقاع الأناء وأخرى بجداره أما الأولى فعبارة عن طائر داخل دائرة بمساحة القاع تقريبا وقد زخرفت الأرضية بأفرع نباتية ملتوية تنتهى بأوراق نباتية بعضها على شكل قلب والبعض من ثلاثة فصوص ويتدلى من منقار الطائر فرع نباتى تخرج منه أفرع أخرى صغيرة تلتوى على نفسها
وجدار السلطانية مقسم إلى بحرين بواسطة دائرتين تزين كل واحدة منهما ورقة نباتية بها شكل بيضاوى أبيض اللون فى وسطها وأطرافها السفلى على شكل حرف واو والبحور أو المناطق مزخرفة بالخط الكوفى المزهر .
ويزين حافة السلطانية أربع قطاعات من دائرة على أبعاد متساوية تقريبا يربط بينها شريط
والأبعاد هى : قطر ٢٥ سم ارتفاع ٧,٥ سم . عرض الحافة ١,٨ سم . قطر القاعدة ١١ سم . ارتفاع القاعدة ١ سم .
وهذه القطعة من القرن ٥ هـ - ١١ م
مراجع : أحمد تيمور باشا والدكتور زكى محمد حسن : التصوير عند العرب شكل ٢٩ لوحة ٩ وص ٢٥٥
رقم ١٦٠ ( شكل ٢ ) :
صحن لون بريقه المعدنى ذهبى ضارب إلى الخضرة . ومصنوع بنفس الأسلوب

---

(١) على بك بهجت وفليكس ماسول : المصدر السابق لوحة ١٠ ش ٧ ، لوحة ١٨ ش ٦ .
(٢) الدكتور زكى محمد حسن : الفنون الايرانية لوحة ٢٢ ش ٧٧ A Survey of Persian Art لوحة ٦٣٥ .
(٣) على بك بهجت وفليكس ماسول : المصدر السابق لوحة ٥٩ ش ١٣ ، مجلة المقتطف مايو ١٩٣٧ ؛ الخزف الفاطمى للدكتور لام ترجمة وتعليق [ البكباشى ] عبد الرحمن زكى .

السابق شرحه أى له جدار سميك وغطاء زجاجى أبيض معتم يغطى السطح الداخلى والخارجى.
وثمت دائرة قوامها الجزء المتوسط الغائر من قاع الاناء . وداخل هذه الدائرة نجد رسم طائر صغير يتدلى من منقاره ورقة نباتية وتطير من رأسه عصابة . والطائر ذو جسم أبيض منقط وفى جناحه شكل بيضاوى داخله نقطة أما زخرفة الجدار فعبارة عن أربعة طيور تسير متتابعة ينشر طائر منها كلا جناحيه والباقون ينشر كل منهم جناحا واحداً ويتدلى من منقار الطائر الأول والطائر المقابل له ورقة نباتية من ثلاثة فصوص أما الطائران الآخران فيتدلى من منقاريهما فرع نباتى قصير ينتهى بأنصاف مراوح نخيلية أو أنصاف أوراق نباتية من ثلاثة فصوص

ويزين السطح الخارجى للاناء أربع دوائر تتكون كل واحدة من دائرتين متحدتى المركز ويزين الداخلية نقط سميكة تملأ المساحة كما نجد نقطا أخرى تملأ الفراغ المحصور بين الدوائر الأربع .

وباحدى هذه الدوائر الأربع نجد مكتوبا بالخط الكوفى البسيط « عمل الطبيب » وأبعاد هذا الصحن هى : قطر ٢٣ سم . ارتفاع ٧,٢ سم . قطر القاعدة ٩,٤ سم . ارتفاع القاعدة ١ سم

ويؤرخ هذا الصحن من القرن ٥ هـ - ١١ م .

ونجد هذا الموضوع الزخرفى فى طبق فى مجموعة الدكتور فوكيه وقاعه مزين بطائر تطير من رأسه عصابة وسبعة طيور متتابعة تزين جدار الطبق وأسلوب الزخرفة الحفر أو التحزيز وينسبه دليل تلك المجموعة إلى القرن ٧ م[1] من صناعة مصر . مما يدل على أن هذا الاسلوب الزخرفى كان موجودا فى أوائل العصر الاسلامى بل العصر القبطى

والمعروف أن الفرع النباتى المتدلى من منقار الطائر وكذلك تلك العصابة الطائرة من الزخارف التى أخذها المسلمون عن الفن الساسانى ونجدها مستعملة بكثرة فى مختلف ميادين الفن الاسلامى [2]

---

(١) Collection du Docteur Fouquet du Caire لوحة ١١ نمرة ٢٦١ .

(٢) على بك بهجت وفليكس ماسول : المصدر السابق لوحة ١٢ الملونة ، لوحة ٤٥ من La Céramique Egyptienne لقطعة حزفية من العصر الطولونى ؛ وديماند : المصدر السابق ش ١٢٤ . قطعة منسوجات من القرن ١٠ — ١١ م ؛ الدكتور زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين لوح ٢٢ — ٤٤ ، ٣١ ؛ التصوير عند العرب لوحة ٦ ش ١٨ ، ١٠ ، لوحة ٧ شكل ٢٤ لنقوش سامرا الحائطية .

ونجد طبقا آخر فى مجموعة ديموت Demotte مزخرفا بنفس الأسلوب الا أن الفراغ المحصور بين الطيور قد زين بدوائر صغيرة داخلها نقط على نمط أسلوب سامرا وهذا الطبق من صناعة سمرقند فى القرن الثامن أو التاسع الميلادى (١)

رقم ١٦١ ( شكل ٣ ) :

سلطانية ذات بريق معدنى ذهبي اللون . والطبقة الزجاجية البيضاء اللون المعتمة تغطى السلطانية من الداخل والخارج .

ويزين هذه السلطانية طائر ( غراب ) كبير الحجم مرسوم داخل دائرة واسعة تملأ السلطانية كلها تقريباً ولا تترك الا شريطاً ضيقا للحافة المزينة بقطاعات من دوائر أقرب ما تكون إلى أسنان المنشار .

ويزين الأرضية أفرع نباتية ملتوية تكون أشكالا حلزونية ونجد مجموعتين منها ، مجموعة فى الفراغ العلوى والثانية فى الفراغ السفلى وتتصلان بفرع نباتى يسير خلف رأس الطائر وتنتهى هذه الملفات بأوراق نباتية قريبة الشبه بالكمثرى . ويدل على جناح الطائر عدة خطوط بيضاء رفيعة تتصل جميعها بشكل يشبه الكاية وهو فى الواقع مقدم الجناح.

والأبعاد : قطر ١٦,٧ سم . ارتفاع ٣ ر ٦ سم . قطر القاعدة ٤ ر ٧ سم . ارتفاع القاعدة ٨ ملم وهذه السلطانية من القرن ٥ هـ — ١١ م

وهذا الموضوع الزخرفى هو الشائع فى الفن الفاطمى حيث يكون الطائر أو الحيوان هو الموضوع الاساسى والأفرع النباتية والأوراق ثانوية (٢) .

مراجع : احمد تيمور باشا والدكتور زكى محمد حسن : التصوير عند العرب لوحة ٩ ش ٢٨ ، ص ٢٥٥ وقد ذكر أن رقم هذه القطعة فى المجموعة هو ١٥٨

رقم ١٦٢ ( شكل ٤ ) :

سلطانية ذات حافة ، ولون البريق المعدنى أخضر ذهبي والطبقة الزجاجية بيضاء معتمة. نجد هنا دائرة مرسومة بقدر مساحة القاع وشريطا دائريا يزين الجدار ويفصل بينه

---

(١) بيزار : المصدر السابق جـ ٢ لوحة XCI شكل ا .

(٢) الدكتور زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ١٥٧ ، ص ١٦١ .

وبين محيط الدائرة خط أبيض وقد قسمت الدائرة إلى أربعة أقسام يزخرف كل قسم ورقة نباتية على شكل قلب ذات أطراف مسننة وبداخلها عدة نقط سوداء. والواقع أن شكل القلب هو مايحيط بالورقة وليست الورقة نفسها وهى شائعة جداً فى الخزف الفاطمى[1].

أما الكتابة الكوفية فهى عبارة عن تمنيات فنجد « نعمة شاملة وبركة كاملة » مع ملاحظة الخطأ الموجود فى كلمة كاملة . ويملأ الفراغ المحصور بين الأحرف وبين الكلمات عدة أشكال متعددة الاضلاع تملأ مساحتها خطوط ملتوية ( لولبية ) داخلها نقط

والحافة مزخرفة بقطاعات من دائرة يقرب بعضها من شكل أسنان المنشار

ويزين الجدار الخارجى ٦ دوائر كل منها مكون من دائرتين متحدتى المركز بداخل الصغرى عدة خطوط قصيرة يوجد ما يماثلها مالئا الفراغ المحصور بين الدوائر

والابعاد هى : قطر ٦ ر ٢٤ سم. ارتفاع ٣ ز ٧ سم. عرض الحافة ٥ ر ١ سم. قطر القاعدة ٢ سم . ارتفاع القاعدة ١ سم .

وتؤرخ هذه السلطانية من القرن ٥ هـ — ١١ م

. مراجع : الدكتور زكى محمد حسن : الدكتور على باشا ابراهيم وهواية الآثار الاسلامية ( مجلة الثقافة عدد ٩٤ )

رقم ١٦٣ :

سلطانية . ولون البريق المعدنى رمادى والطبقة الزجاجية بيضاء معتمة وتغطى السلطانية من الداخل والخارج وجدار السلطانية سميك كباقى الأوانى

ويزين قاع السلطانية دائرة ، يقسمها قطران إلى أربعة أقسام تكاد تكون متساوية ، كل قطر عبارة عن خطين رمادى اللون يحصران بينهما خطا أبيض والأجزاء الأربعة مزخرفة بورقة نباتية ثلاثية الفصوص بفصها العلوى شكل بيضاوى صغير أبيض اللون كما أن طرفى الفصين يلتويان فى اتجاه العنق على شكل حرف « واو »

ويحيط بالدائرة خط أبيض بأسفل جدار السلطانية يليه خط من البريق المعدنى

---

(١) La Céramique Musulmane لوحة ٧ .

هو فى الواقع الحد الأسفل لشريط دائرى مزين بكتابة كوفية . ويحد هذا الشريط من أعلا خط دائرى آخر من البريق المعدنى يليه خط دائرى أبيض فشريط من البريق المعدنى تخرج منه خطوط عمودية عليه تصل إلى الحافة

ولقد ملىء الفراغ بين أحرف الكلمات الكوفية بالأفرع الملتوية المنتهية بأوراق نباتية

وأبعاد السلطانية : قطر ٢٠ سم . ارتفاع ٦ سم . قطر القاعدة ٨ سم . ارتفاع القاعدة ٦ ملم

وتنسب هذه القطعة الى القرن ٥ هـ — ١١ م

رقم ١٦٤ ( شكل ٥ ) :

سلطانية ذات حافة ولون البريق المعدنى ذهبى فوق طبقة زجاجية معتمة بيضاء اللون

وزخرفة هذه السلطانية عبارة عن طاووس يتدلى من منقاره فرع نباتى طويل تخرج منه أفرع أخرى تكون أشكالا حلزونية تنتهى بأوراق نباتية والغرض من هذه الأفرع هو ملء الفراغ . والطائر متقن الرسم ورشيق الحركة وذيله مرفوع إلى أعلا وقد نشره الطائر فظهرت شعراته المختلفة وأرجله كأنها أقواس أحسن بكثير من الطاووس السابق شرحه فى القطعة رقم ١٥٨ . وتاج الطاووس عبارة عن ثلاث دوائر صغيرة متماسة داخلها نقط صغيرة ويصل هذه الدوائر برأس الطائر خطان قصيران .

وحافة السلطانية مزينة بقطاعات من دائرة .

أما السطح الخارجى للاناء فمزين بتلك الدوائر التى سبق شرحها فى القطع السالفة الذكر ونجد إمضاء « مسلم » بالخط الكوفى على قاعدة الاناء .

وأبعاد هذه السلطانية هى قطر ٢٤ سم . ارتفاع ٧ سم . عرض الحافة ١,٥ سم . قطر القاعدة ١١ سم . ارتفاع القاعدة ١,٥ سم . وهذه القطعة من القرن ٥ هـ - ١١ م

وهذا الأسلوب الزخرفى هو الأسلوب المحبب الى نفس مسلم ومدرسته (١)

رقم ١٦٥ :

طبق مسطح ذو قاع عريض يوجد بينه وبين الجدار البالغ عرضه ٤,٨ سم . جزء غائر

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ١٥٦ وما بعدها . أنظر على بك بهجت وفليكس ماسول : المصدر السابق ، اللوحات رقم ١٤ ، ١٥ ، ١٧ حيث توجد قطع عليها إمضاء « مسلم » .

قليلا عن مستواهما . ولون البريق المعدنى ذهبى ضارب إلى الخضرة .

ويزين هذا الطبق سيدة جالسة على مقعد مرتفع كما يظهر من رجله الخلفية وهى تعزف على آلة موسيقية (قيثارة) . وقد رسم جذع السيدة ووجهها مواجهين لنا ولكن الوجه لا يظهر منه إلا ثلاثة أرباعه : بينما الساق والقدم جانبيتين وتتجهان نحو حافة الاناء وذلك لأن الكرسى جانبى أيضا . ويتدلى شعر السيدة حتى يصل إلى الكتف وتوجد منه خصلتان أمام الأذن . وحول رأسها فوق جبهتها عقد من حبات مستديرة نرى مثيلا له حول عنقها متبعا فتحه الرداء الواسع الأكمام والمزين بأفرع وأوراق نباتية .

وعلى يمين السيدة ابريق كروى الجسم ذو رقبة طويلة رفيعة وتصل اليد من الجسم حتى الفوهة التى يخرج منها فرع نباتى يتفرع إلى فرعين أحدهما قصير ينتهى بورقة والآخر يكون شكلا حلزونيا ينتهى بورقة نباتية ثلاثية الفصوص . ونجد أسفل الابريق فرعا آخر ينتهى بورقتين إحداهما من خمسة فصوص والثانية على شكل قلب .

وقد زين باقى الفراغ باشكال هندسية مختلفة ملأت بتلك الأشكال اللوبية الصغيرة المنقطة .

وبالسطح الخارجى دائرة وعدة خطوط من نفس الأسلوب الذى وجدناه خارج الأوانى السابق وصفها .

والأبعاد هى : قطر ٢٨ سم . ارتفاع ٧ سم . قطر القاعدة ١١,٥ سم . ارتفاع القاعدة ١ سم ويمكن تاريخ هذا الطبق من القرن ٥ هـ - ١١ م .

ومما يجب ملاحظته أن موضوع العازف على القيثار كثير الظهور فى الفن الاسلامى[١] ونجده فى مصر فى العصر الطولونى[٢] أيضا كما نجد قطعا أخرى من الفن الايرانى مزخرفة بنفس الأسلوب منها واحدة فى مجموعة الدكتور على باشا ابراهيم[٣] رقم ١٦٦ :

طبق ذو حافة عريضة . ولون البريق المعدنى ذهبى والطبقة الزجاجية بيضاء معتمة .

(١) La Céramique Egyptienne لوح ٤٥ ، ٥١ ، ٥٦ : على بك بهجت وماسول : المصدر السابق لوحة I نمرة ٦٦ : الدكتور زكى حسن : كنوز الفاطميين لوحة ٤٧ .

(٢) La Ceramuque Egyptienne لوحة ٤٥، الدكتور زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر لوحة ٢٨ .

(٣) طبق من القرن ٩ م ، انظر الدكتور زكى حسن : الفنون الايرانية لوحة ٧٣ ش ٧٩ . وانظر A Survey of Persian Art لوح ٦٥٢ ، ٧١١ ، ٧٧٨ ، ٧٩٢

وقد استخدم هنا العنصر الحيوانى فى الزخرفة فنجد طائرا يتدلى من منقاره فرع نباتى يتفرع إلى أشكال حلزونية متصلة تملأ المساحة أسفل جسم الطائر وينتهى كل شكل منها بورقة نباتية . كما نجد أفرعا متداخلة تزين باقى المساحة . أما الطائر فقد زين جناحه بنصفين من المراوح النخيلية المسننة الأطراف وليس له سوى رجل واحدة .

وحافة الاناء مقسمة إلى أربعة أقسام بواسطة أربعة أشكال هندسية تشبه حرف Z الأفرنجى تقريبا وقد رسم فى المناطق الموجودة بين هذه الأشكال أنصاف أوراق نباتية على شكل قلب ومسننة الأطراف وفى كل منطقة نصفان تتجه قاعدة كل منهما نحو قاعدة الآخر ونلاحظ أن وضع هذه الأنصاف يختلف فمرة يتجه حد النصف إلى داخل الاناء ومرة إلى الحافة أى أن كل مجموعة تخالف التى تليها مباشرة فى الوضع . ويزين السطح الخارجى نقط زيتونية اللون موزعة بدون انتظام

الأبعاد : قطر ٢٥,٨ سم . ارتفاع ٤,٣ سم . عرض الحافة ٤ سم . قطر القاعدة ١١,٥ سم . ارتفاع القاعدة ١ سم .

وهذا الطبق من القرن ٥ هـ - ١١ م .

رقم ١٦٧ :

سلطانية ذات حافة . بين القاعدة والجدار جزء قليل الغور ولون البريق المعدنى أخضر زيتونى .

وفى القاع دائرة ، داخلها طائر صغير يتدلى من منقاره فرع نباتى ينتهى بورقة وثمت عصابة طائرة من رأسه يخرج منها فرعان ينتهى كل منهما بورقة نباتية تتجه إحداها إلى أعلى والأخرى إلى أسفل ويملأ الفراغ المحصور بين الطائر ومحيط الدائرة عدة أشكال لولبية بعضها رفيع وبعضها غليظ . ويلى محيط الدائرة شريط أبيض رفيع يفصل بينه وبين قطاعات من دائرة متجاورة تحد جدار السلطانية من أسفل ويلى هذه القطاعات شريط دائرى به فرع نباتى يرتفع فى سيره مرة وينخفض أخرى ، ويتفرع منه عند الارتفاع والانخفاض فرع آخر ينثنى إلى الداخل مكونا مناطق أو جامات عددها ٨ ، وينتهى على شكل حرف « الواو » حيث تخرج منه نصف مروحة نخيلية تنتهى

بحرف الواو أيضا ويتفرع منها نصف مروحة ثانية . وبعض هذه الأشكال المكونة من نصفى المروحة تظهر كأنها رأس طائر صغير وخاصة تلك الأنصاف ذات الأطراف المسننة والعميقة التسنين[١] . ويملأ الفراغ الثلاثى الشكل المحصور بين هذه الجامات أشكال مختلفة فنجد أحيانا شكلا لوليبا وأحيانا أخرى ورقة نباتية كأنها نصف مروحة نخيلية أو ورقة من ثلاثة فصوص .

ويزخرف الجدار الخارجى دائرتان كبيرتان داخلهما خطان غليظان

الأبعاد : قطر ٢٥ سم . ارتفاع ٦,٤ سم . عرض الحافة ١,٧ سم . قطر القاعدة ١١,٥ سم . ارتفاع القاعدة ١ سم .

وهذه السلطانية من القرن ٥ هـ - ١١ م .

رقم ١٦٨ :

صحن ذو قاع عريض . ولون البريق المعدنى ذهبى

ونجد دائرة كبيرة بمساحة قاع الصحن وقد قسمت إلى نصفين يحد كل نصف شريط عريض طرفه الداخلى مسنن . وفى كلا النصفين ورقة نباتية كبيرة الحجم على شكل قلب مسننة الأطراف ونهاية الطرفين عند العنق منثنية إل الداخل على شكل حرف الواو وبالورقة شكل بيضاوى به زخرفة على شكل حرف S وعلى جانبى الورقة أفرع نباتية تكون على الجانب الأيمن شكلا بيضاويا بداخله ثلاثة أوراق نباتية مختلفة الشكل والأفرع النباتية الموجوده على الجانب الأيسر متداخلة فى بعضها وينتهى كل فرع بورقة نباتية . ونجد أوراقاً نباتية أخرى تملأ الفراغ بين هذه الأفرع وبعض هذه الأوراق يتصل بالأفرع وبعضها لا يتصل بها . والفروع التى تزخرف أحد النصفين أكثر تداخلا وتشابكا .

ويحيط بهذه الدائرة شريط أبيض هو فى الواقع الحد الأسفل لإطار يزين الجدار وهذا الإطار مقسم إلى أربعة أقسام بواسطة أربعة أشكال هندسية تشبه حرف Z

(١) يوجد صحن حزفى يماثل هذه السلطانية وهو محفوظ بدار الآثار العربية وهو من العصر الفاطمى أيضا ولكن هناك اختلافا فى زخرفة المناطق غير أن زخرفة بعض المناطق تتشابه وخاصة فى ذلك الشكل الظاهر كأنه رأس طائر : انظر الدكتور زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين لوحة ٢٢ ، على بك بهجت وماسول La Céramique Musulmane de l'Egypte لوحة ٢ الملونة شكل ب .

اللوحة رقم ١ :



( شكل ١ ) صحن من الخزف ذى البريق المعدنى ، من صناعة مصر فى العصر الفاطمى . القرن ٥ هـ ( ١١ م ) فى مجموعة الدكتور على باشا ابراهيم ( رقم ١٥٨ )



( شكل ٢ ) صحن من الخزف ذى البريق المعدنى من صناعة مصر فى العصر الفاطمى القرن ٥ هـ ( ١١ م ) فى مجموعة الدكتور على باشا ابراهيم ( رقم ١٦٠ )
( تصوير الأستاذ محمد محمود شلبى )

اللوحة رقم ٢ :



( شكل ٣ ) سلطانية من الخزف ذى البريق المعدنى . من صناعة مصر فى العصر الفاطمى
القرن ٥ هـ ( ١١ م ) فى مجموعة الدكتور على باشا ابراهيم ( رقم ١٦١ )



( شكل ٤ ) سلطانية من الخزف ذى البريق المعدنى . من صناعة مصر فى العصر الفاطمى
القرن ٥ هـ ( ١١ م ) فى مجموعة الدكتور على باشا ابراهيم ( رقم ١٦٢ )
( تصوير الأستاذ محمد محمود شلبى )

اللوحة رقم ٣ :



( شكل ٥ ) سلطانية من الخزف ذى البريق المعدنى من صناعة مصر فى العصر الفاطمى القرن ٥ هـ ( ١١ م ) فى مجموعة الدكتور على باشا ابراهيم ( رقم ١٦٤ )



( شكل ٣ ) طبق من الخزف ذى البريق المعدنى من صناعة مصر فى العصر الفاطمى القرن ٥هـ ( ١١ م ) فى مجموعة الدكتور على باشا ابراهيم ( رقم ١٦٩ )

( تصوير الأستاذ محمد محمود شلبي )

اللوحة رقم ٤ :



( شكل ٧ ) صحن من الخزف ذى البريق المعدنى من صناعة مصر فى العصر الفاطمى
القرن ٥ هـ ( ١١ م ) من مجموعة الدكتور على باشا ابراهيم ( رقم ١٧٣ )



( شكل ٨ ) صحن من الخزف ذى البريق المعدنى من صناعة مصر فى العصر الفاطمى
القرن ٥ هـ ( ١١ م ) فى مجموعة الدكتور على باشا ابراهيم ( رقم ٢٢٧ )
( تصوير الأستاذ محمد محمود شلبى )

الافرنجى تقريبا تحصر بينها فى كل منطقة نصفى ورقتين على النحو الذى سبق شرحه فى القطعة رقم ١٦٦ .

وزخرفة الجدار الخارجية قوامها عدة خطوط لولبية الشكل .

الأبعاد : قطر ٣٠ سم . ارتفاع ٧ سم . قطر القاعدة ١٤ سم . ارتفاع ١ سم .

ويرجع هذا الصحن الى القرن ٥ هـ — ١١ م .

رقم ١٦٩ ( شكل ٦ ) :

طبق صغير ذو حافة مفصصة أى عبارة عن أقواس . وبريقه المعدنى ذو لون زيتونى والعنصر الزخرفى المستخدم هنا هو السمك فنجد سمكتين معكوستى الوضع تتجه رأس كل منهما نحو ذنب الأخرى وهو من النوع المعروف بالبلطى وهو متقن الرسم واضح التفاصيل وقد أظهر الصانع جزءاً من البطن فظهرت بيضاء بها عدة نقط . ويدور حول الحافة إطار من نفس البريق المعدنى .

ولم يكن اتخاذ السمك عنصرا زخرفيا شائع الاستعمال كالطيور والحيوانات ولقد وصلت الينا بعض القطع المزخرفة بهذا العنصر(١) منها طبق من العصر الطولونى(٢) ولقد اتخذ هذا العنصر فى زخرفة شبابيك القلل أيضاً(٣) . ونجد هذا العنصر ضمن زخرفة قدر الدكتور فوكيه المشهور(٤) كما نجـــده على بعض القطع من العصرين الأيوبى والمملوكى (٥) وعلى بعض القطع الخزفية الايرانية(٦) والأندلسية(٧)

(١) لوحه ٢ ش ١١ Martin : The Persian Lustre vase in the Imperial Hermitage at St. Petersburg ، على بك بهجت وماسول : المصدر السابق : لوحة ١١ ش ٢ ، لوحة ٢٤ ش ٣ ، لوحة ٢ الملونة ش أ ، La Céramique Egyptienne لوحة ٢٩ .

(٢) الدكتور زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر لوحة ٢٦ : ودليل موجز لمعروضات دار الآثار العربية لوحة ١ .

(٣) على بك بهجت وماسول : المصدر السابق : لوحة ٥٨ ش ١٠ ، لوحة ٥٩ ش ١ ، أحمد تيمور باشا والدكتور زكى محمد حسن : التصوير عند العرب ش ٥٢ ( لوحة ١٦ ) .

(٤) Collection du Dr. Fouquet لوحة XIV : الدكتور زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين لوحه ٣١ .

(٥) المصدر السابق لوحه XV رقم ٣١٥ ، لوحه ١٦٧ Prisse d'Avennes : L'art Arabe . وانظر Cleves Stead : Fantastic Fauna. Decorative Animals in Moslem Ceramics اللوحات من ١ — ٣٤

(٦) A Survey of Persian Art لوح ٧١٩ أ ، ٧٦٩ أ و ٧٨٨ وانظر أيضا شكلى ٢٦ ، ٢٨ من مقال Ettinghausen : Evidence for the Identification of Kashan Pottery. (Ars Islamica vol III part I.)

(٧) الدكتور زكى محمد حسن : فى الفنون الاسلامية شكل ٣٧ .

رقم ١٧٢ :

سلطانية ذات حافة يميل طرفها إلى أسفل . ولون البريق المعدنى ذهبى ضارب إلى الخضرة .

نجد بهذه السلطانية خمسة أعلام مثلثة الشكل مرسومة بحيث يكون الضلع الأكبر فى محاذاة الحافة وتتصل أطراف المثلثات بعضها فأصبحت أضلاعها الكبيرة كأنها محيط شكل خماسى يليه إطار دائرى . وتستند سوارى هذه الأعلام على امتداد أضلاع شكل خماسى مرسوم فى وسط القاع وقد نتج عن هذا الامتداد وارتكاز سوارى الأعلام على الخطوط الممتدة أشكال تشبه حرف L الافرنجى . وبكل علم عنصر زخرفى مكون من دائرتين متحدتى المركز ومتصل محيطاهما بخطوط عرضية متتالية ، وفى وسط الدائرة الصغرى نقط .

وفى الشكل الخماسى امضاء مسلم فى عبارة نصها : « عمل مسلم بن الدهان بمصر » بخط نسخى بسيط . ولهذا الصانع المشهور إمضاء كهذه على قطعة محفوظة بدار الآثار العربية(١) .

أما زخرفة الحافة فهى عبارة عن قطاعات من دائرة يقرب شكلها من أسنان المنشار

والأبعاد : قطر ٢١,٢ سم . ارتفاع ٧,٩ سم . عرض الحافة ١,٥ سم . قطر القاعدة ٩ سم . ارتفاع القاعدة ١,٢ سم .

والسلطانية من صناعة القرن ٥ هـ — ١١ م .

رقم ١٧٣ ( شكل ٧ ) :

صحن عميق ذو حافة تتقوس إلى الخارج قليلا . ولون بريقه المعدنى ذهبى ضارب إلى الخضرة .

وفى قاع الصحن ست دوائر قوامها دائرة ذات محيط مفصص يحيط بها خمسة إطارات تتحد معها فى المركز . والدائرة مزخرفة بعدة دوائر صغيرة وبكل دائرة نقطة داكنة . والملاحظ أن هذه النقط غير منتظمة التوزيع ويلى هذه الدائرة إطار من البريق المعدنى مفصص من الداخل بعدد فصوص الدائرة الداخلية ثم يلى هذا اطار أبيض به شريط من دوائر بها نقط غير منتظمة التوزيع أيضا ويختلف عرض هذا الشريط . ثم نجد إطارا

---

(١) على بك بهجت وفليكس ماسول : المصدر السابق لوحة ٤ ش ٤ مكرر .

من البريق المعدنى فاطارا أبيض به خطان متوازيان يحصران بينهما عددا من الدوائر ذات النقطة الداكنة ونلاحظ أن المسافة بين هذين الخطين تختلف فى العرض فأحيانا تسع دائرتين وأحيانا لا تسع إلا دائرة واحدة . وهذه الدوائر ذات النقط الداكنة غير المنتظمة التوزيع تقع أحيانا داخل الدائره وأحيانا على محيطها وأحيانا أخرى بين دائرتين وتذكر بأسلوب زخرفة الخزف فى طراز سامرا [١] . يلى هذا إطار من البريق المعدنى هو فى الواقع حد عصابة دائرية تحد من أعلا بقطاعات من دائرة تزين حافة الاناء فى نفس الوقت وبهذه العصابة كتابة كوفية زخرف ما بين أحرفها بأفرع ملتوية

وزخرفة السطح الخارجى قوامها دوائر وخطوط من ذلك النوع الذى سبق أن رأيناه

الأبعاد : قطر ٢٢,٤ سم . ارتفاع ٥ سم . قطر القاعدة ١٠ سم . ارتفاع القاعدة ١ سم . وهذه القطعة من القرن ١٠ م .

رقم ٢١٤ :

صحن له بريق معدنى ذهبى اللون ضارب إلى الخضرة .

العنصر الزخرفى هنا حيوان خرافى له جسم أسد مجنح ورأس طائر يتدلى من منقاره قطعة قماش والجناح غير واضح التفاصيل وينتهى على هيئة نصف مروحة نخيلية وقد زخرف رأس الحيوان بأفرع نباتية ويتدلى من رقبته شكل على هيئة الكمثرى مزين بقوسين صغيرين . وذيل الحيوان مرفوع إلى أعلا ومرسوم بحيث يملأ الفراغ كله تقريبا . ولقد استخدم الصانع الخطوط البيضاء ليسهل على الناظر معرفة أجزاء الحيوان فرسم شكلا بيضاويا مدببا من أسفل للدلالة على المفصل الأمامى . كما رسم عدة خطوط أخرى أسفل الرقبة وبين الساقين الخلفيتين . والحيوان مرسوم فى هيئة السير ونلاحظ أن القدم اليسرى غير موجودة وذلك لضيق المساحة .

وقد زخرفت الأرضية بأشكال ملتوية ( لولبية ) تتماس وتنتهى بنقط ويتصل بعضها ببعض بخطوط رفيعة . كما نجد ورقة نباتية . والحافة مزخرفة بأربع قطاعات من دائرة .

(١) على بك بهجت وفليكس ماسول : المصدر السابق لوحة ١ ، ٢ ، الدكتور زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر لوحة ٢٤ ، ٢٥ .

أما السطح الخارجى فمزخرف بالأسلوب الذى أشرنا اليه فى معظم القطع التى مر الكلام عليها .

الأبعاد : قطر ٢٥سم . ارتفاع ٧,٢ سم . قطر القاعدة ١١,٨ سم . ارتفاع ٧ ملم والصحن من القرن ٥ هـ - ١١ م .

ونلاحظ أن كثيرا من التحف ذات الحيوانات الخرافية قد وصلت إلينا مما يدل على أن ذلك الأسلوب كان مرغوبا فيه فنجد طيورا ذات روؤس آدمية على الخزف والأخشاب وغيرهما [١] كما نجد حيوانات مجنحة [٢] وأخرى ذات رؤس طيور [٣] .

رقم ٢٢٧ (شكل ٨) :

صحن لون بريقه المعدنى ذهبى ضارب إلى الخضرة

وزخرفة هذا الصحن عبارة عن راقصة قد شغلت أكبر مساحة ممكنة من الصحن ولقد ملىء الفراغ بأفرع وأوراق نباتية على شكل الـكمثرى ذات نهاية على شكل الخطاف وهذه الأوراق موجودة فى المساحات الخالية بين الأشكال المختلفة الهندسية التى تحتوى على الخطوط الحلزونية والنقط .

أما الراقصة فقد رسم جذعها ورأسها رسما أماميا وساقها وقدمها رسما جانبا . وقد ظهر ¾ . الوجه وتفاصيل الوجه مرسومة بأسلوب بسيط ويتدلى شعرها حتى كتفها كما نجد ذؤابتين أمام الأذنين وطرف خصلتين بأعلا الجبهة وحول الرأس هالة مستديرة بهاشريط عرضى مزخرف بمعينات ناجمة عن تقاطع خطوط . وترتدى السيدة رداء طويل الذيل والأكمام وله فتحة حول العنق وقد زينت جيدها بعقد يوازى شكل الفتحة تماما [٤] .

---

(١) La Céramique Egyptienne لوحة ٤٣ ، الدكتور زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين لوحة ٤٥ ؛ A Survey of Persian Art لوح ٦٣١ ، ٦١٧ ب

(٢) على بك بهجت وفليكس ماسول : المصدر السابق لوحة ٩ شكل ٢ .

(٣) نفس المصدر السابق لوحة ٥١ شكل ١ ، A Survey of Persian Art لوحه ٦١٥ | وكابفز ستيد : المصدر السابق اللوحات ١٧٢ — ١٧٧

(٤) La Céramique Egyptienne لوحة ٤٨ ، لوحة ٥٠ ، على بك بهجت وماسول : المصدر السابق لوحة ٢٧ ش ٣ وللهالة : على بك بهجت وماسول : المصـــدر السابق لوحة ٢٧ ش ١ ، La Céramique Egyptienne لوحة ٤٧ .

ولقد استخدم الصانع أسلوب التظليل لكى يوضح معالم الجسد . وتمسك الراقصة فى يديها منديلين وقد رفعت اليد اليمنى بينما خفضت اليسرى مع وضع العضد فى اتجاه مائل على الجسم كما فعلت فى الساق اليمنى . ونجد وشاحا طويلا مرسوما أمام الخصر ويرتفع إلى أعلا عابرا فوق الذراعين ثم منخفضا إلى أسفل مرتكزا على الذراع الأيمن وهابطا عموديا بينما يستمر فى ارتفاعه بعد الذراع الأيسر وينخفض إلى أسفل متبعا حافة الاناء.

وزخرفة السطح الخارجى من الدوائر والنقط التى تملأ الفراغ بين الدوائر .

الأبعاد : قطر ٢٩ سم . ارتفاع ٦ سم . قطر القاعدة ١٤ سم . ارتفاع القاعدة ٨ ملم وهذا الصحن من القرن ٥ هـ - ١١ م .

وتعتبر هذه القطعه من القطع النادرة فى الخزف الفاطمى لعدم وصول خزف إلينا يحتوى على هذا الموضوع . حقا ان مناظر الرقص من المناظر العامة التى إعتاد الفنانون الفاطميون اتخاذها عنصرا زخرفيا كما نرى من الألواح الخشبية الفاطمية المحفوظة بدار الآثار العربية[١] وبعض القطع العاجية[٢] رسم راقصة فى الكابلا بلاتينا فى بالرمو[٣]. ولقد وصلت إلينا رسوم راقصات من فن غير الفن الفاطمى منها صورة الراقصتين فى نقوش سامرا [٤] ونرى بعض أوجه الشبه بين صورة هذه الراقصة وصورة الراقصتين وخاصة فى رسم الوجه وذلك الوشاح أما حركة اليدين والرجل فمختلفة وكذلك أسلوب رسم الرداء . ويذكرنا ما فى رسم هذه الراقصة من حركة برسم حمال على قطعة من صحن خزفى ذى بريق معدنى فى مجموعة أراكيل نوبار باشا [٥]

رقم ٢٢٨ .

صحن لون البريق المعدنى ذهبى ضارب إلى الخضرة ( زيتونى داكن ) .

(١) الدكتور زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين لوحة ٤٥ .

(٢) Glück & Diez : Die Kunst des Islam لوحة ٤٩٨

(٣) Ettinghausen : Painting in the Fatimid Period . A Reconstruction ( Ars Islamica vol 9. )

(٤) أحمد تيمور باشا والدكتور زكى محمد حسن : التصوير عند العرب لوحة ٦ ش ١٦

(٥) الدكتور زكى محمد حسن : فى الفنون الاسلامية ص ٣٠ شكل ٩

نرى هنا سيدة تعزف على آلة موسيقية ( قيثارة ) وهى جالسة على وسادة مرسومة كأنها قطاع من دائرة ومزينة بأنصاف أوراق نباتية .

ووجه السيدة مستطيل بعض الشيء ولها أنف طويل وعينان واسعتان وقد ظهرت أطراف ثلاث خصلات تحت غطاء الرأس الملفوف حول وجهها أيضا وللثوب فتحة كفتحة ثوب الراقصة فى القطعة السابقة وهى فتحة غير مستديرة . وترتدى السيدة عقدا غير مستدير أيضا . والثوب ذو حافة مرتفعة حول العنق والأكمام مزينة بأشكال صليبية .

ونجد إبريقا إلى يسارها وهو ذو جسم كروى ورقبة واسعة جدا ويخرج من فوهته فرعان نباتيان قصيران ينتهى كل منهما بورقة نباتية . ويقابل الابريق فى الناحية الثانية حوض مزخرف بأشكال حلزونية . ويخرج منه أربعة أفرع نباتية ينتهى كل منها بورقة ذات طرف مشرشر . ثم نجد علاوة على ذلك أفرعا وأوراقا نباتية تزين باقى الفراغ[1]. وزخرفة الحافة قوامها قطاعات من دائرة . والسطح الخارجى مزين بتلك الدوائر والخطوط .

الأبعاد : قطر ٢٣ سم . ارتفاع ٧,٢ سم . قطر القاعدة ٩,٤ سم . ارتفاع القاعدة ١ سم والصحن من صناعة القرن ٥ هـ - ١١ م

رقم ٢٢٩ :

صحن . لون البريق المعدنى ذهبى

وقد رسم فى قاع الصحن دائرة كبيرة بمساحة القاع تقريبا محيط الدائرة من الداخل على شكل عقود بلغ عددها ١٦ عقدا زينت كوشاتها بخطوط لولبية رفيعة بيضاء اللون ، ونجد فى وسط الدائره كتابة كوفية نستطيع أن نميز منها كلمة ربما كانت « الغبطة » والخط من النوع المزهر . كما نجد أفرعا وأوراقا نباتية تخرج من العقود لتزخرف الفراغ المحيط بالكتابة .

أما جدار الصحن فقد قسم إلى ثلاثة أبحر بينها ثلاثة دوائر بيضاء مزخرفة بتلك

(١) قارن هذا برسم العازف فى الكابلا بلاتينا . انظر ش ٣ من مقال الأستاذ اتنجهاوزن فى مجلة : Ars Islamica Vol IX

الخطوط الحلزونية . وبالأبحر كتابة كوفية عبارة عن كلمة واحدة متكررة وهى نفس الـكلمة الموجودة بقاع الصحن .

والسطح الخارجى مزخرف بتلك الدوائر والخطوط يحدها من أعلا خط مستدير ومن أسفل حول القاعدة خط آخر .

الأبعاد : قطر ٢٤,٤ سم . ارتفاع ٧,٧ سم . قطر القاعدة ١١,٣ سم . ارتفاع القاعدة ١,٢ سم

والصحن من القرن ٥ هـ - ١١ م

رقم ٣٢٢ :

سلطانية صغيرة ورسومها ذات بريق معدنى ذهبى اللون .
العنصر الزخرفى هنا طائر وأفرع وأوراق نباتية تزين الفراغ
الأبعاد : قطر ١١,٥ سم . ارتفاع ٤,٨ سم. قطر القاعدة ٤,٨ سم
وهذه القطعة من القره هـ — ١١ م

رقم ٣٣١ :

قطعة خزفية نستطيع أن نتبين أنها على شكل رأس طائر والظاهر أنها كانت فوهة لاحدى الأوانى إذ وصل إلينا كثير من هذه الأوانى ذات الفوهة التى على شكل طيور(١) ونجد بهذه القطعة بريقا معدنيا ذا لون أصفر ضارب إلى الخضرة ولقد رسمت عين الطائر بواسطة بروز مستدير فى نفس مادة الخزف ومما هو جدير بالذكر أن قطعة كهذه من صناعة سامرا وبها كتابات كوفية(٢) قد وجدت فى بلاد الهند فى مدينة Brahminabad وتقع شمال شرقى حيدر آباد بنحو ٥٠ ميلا ،

والمعروف أن المسلمين قد فتحوا الهند فى القرن ٨ م وأن هذه المدينة كانت عامرة فى أوائل الهجرة سنة ٦٢٢ م ويحتمل أنها دمرت فى سنة ١٠٢٠ م بواسطة زلزال (٣)

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن : الفنون الايرانية لوحة ٩٠ ش ١٠١ ، لوحة ٩٦ ش ١٠٧ ، على بك بهجت وفليكس ماسول : المصدر السابق لوحة ٦٢ ش ٣ .
(٢) هوبسون : المصدر السابق ص ٨ ، ٩ لوحة ٤ ش ١٤ .

فوجود مثل هذه القطعة بالهند ليس بالأمر المستغرب وهذه القطعة من القرن ١١ م .

رقم ٣٣٢ :

فنجان مدهون بالبريق المعدنى وزخرفته غير واضحة أما اللون فهو الأصفر الضارب إلى الخضرة وأبعاده هى : قطر ٤,٣ سم° ارتفاع° ١,٩ سم° قطر القاعدة ٢ سم وهو من صناعة القرن ١١ م .

رقم ٣٣٣ :

طبق صغير جدا ولعله فنجان ، وهو مزين بورقة من ٦ فصوص كل فص يزين تجويفا من تجويفات الطبق إذ أن حافته مفصصة وعدد فصوصها خمسة ولقد رسمت الورقة السادسة على الخط البارز بين فصين من فصوص الفنجان ولون البريق أصفر ضارب إلى الخضرة .

الأبعاد : قطر ٤,٨ سم . ارتفاع ٢ سم . قطر القاعدة ٢,٢ سم . ارتفاع القاعدة ٦ ملم القرن ١١ م .

رقم ٣٣٤ :

طبق صغير ذو حافة مفصصة وتبرز الأقواس إلى الخارج وهو مزخرف بورقة نباتية على هيئة شكل بيضاوى وعلى يمينها وشمالها نصف مروحة . ولون البريق أصفر ضارب إلى الخضرة ، الأبعاد : قطر ٥,٥ سم . ارتفاع ٢ سم . قطر القاعدة ٢,٢ سم . ارتفاع القاعدة ٥ سم

من القرن ١١ م .

رقم ٣٣٥ :

طبق . لون البريق زيتونى ، ويزين هذا الطبق أرنب يتدلى من فمه ورقة نباتية ثلاثية الفصوص ، وله أذنان طويلتان وذنب قصير . استخدم الصانع الخطوط البيضاء للدلالة على أجزاء الجسم . والفراغ مزخرف بتلك الأشكال المملوءة بالأشكال الحلزونية

والنقط[١] . وهذا الطبق من القرن ٥ هـ — ١١ م

رقم ٣٣٦ :

طبق غير كامل لون البريق المعدنى أحمر نحاسى . الزخرفة قوامها طاووس رافع ذيله إلى أعلا ويتدلى من منقاره فرعان نباتيان أحدهما إلى الأسفل والآخر يذهب إلى خلف الرقبة وينتهيان بورقتين . كما نجد أوراقا أخرى وأفرعا نباتية ، والطبقة الزجاجية رقيقة جدا .

الأبعاد : قطر ٩,٣ سم . ارتفاع ٣,٨ سم . قطر القاعدة ٣,٩ سم .

ويؤرخ من القرن ٥ هـ — ١١ م

نستطيع إذا أن نصل مما تقدم إلى النتائج الآتية

١ — أن هناك شكلين للاطباق : أولا شكل يكاد يكون مسطحا أى أن جدار الطبق غير مرتفع ولعل أحسن تسمية لهـــذا النوع هى « الصحن » ويوجد واحد ( رقم ١٦٦ ) ذو حافة عريضة ( ٤ سم ) ولذا سميته طبقا . أما الشكل الثانى فذو جدار مرتفع فهو أقرب إلى شكل السلطانية منه إلى شكل الطبق ولقد سميت الأوانى ذات الحافة المستعرضة (رقم ١٥٩ - ١٦٢ - ١٦٤ - ١٦٧ - ١٧٢) سلطانيات أما الأوانى الباقية فقد سميتها « صحونا » . وهذا طبعا عدا الأطباق الصغيرة جدا وقاعدة هذه الأوانى جميعها متشابهة ويبلغ ارتفاعها نحو ١ سم .

٢ — ان العناصر الزخرفية اما أن تكون من رسوم حيوانية أو آدمية تلعب الدور الرئيسى فى الزخرفة وتصاحبها الأفرع والأوراق النباتية . وإما أن تكون من رسوم أوراق نباتية فى مناطق هندسية تصاحبها أحيانا كتابات كوفية (رقم ١٦٢) وأحيانا أخرى رسوم نباتية (رقم ١٦٨) ، واما كتابات كوفية تصاحبها الأفرع والأوراق النباتية ( رقم ١٦٣ )

---

(١) نفس المصدر . وتوجد قطع مشابهة محفوظة بدار الآثار العربية ، انظر La Céramique Egyptienne لوحة ٢٦ .

أما زخرفة الحافة فقوامها قطاع من دائرة يدور مع الحافة وأحيانا تتلامس هذه القطاعات ( رقم ٥٢ ) وأحيانا أخرى تكون متباعدة . ( رقم ١٥٨ - ١٥٩ )

وقوام زخرفة السطح الخارجي دوائر متباعدة يملأ الفراغ المحصور بينها عدة خطوط غليظة قصيرة أو نقط سميكة ترى مثيلا لها داخل الدائرة الداخلية لأن كل دائرة تتكون فى الواقع من دائرتين متحدتى المركز ويرجع هذا الأسلوب إلى العصر الطولونى .

٣ — أما البريق المعدنى فاما أن يكون ذهبيا أو أصفر ضاربا إلى الخضرة وأحيانا يكون اللون الأخضر داكنا ( رقم ١٧٦ ) وأحيانا أخرى فاتحا يقرب من الزيتونى ( رقم ١٧٢ ) كما نجد أيضا لونا أحمر نحاسيا ( رقم ٣٣٦ ) ويستعمل هذا اللون فى زخرفة السطح الخارجي لبعض الأوانى كما تستعمل باقى الألوان السابق ذكرها .

٤ — أن هذه الأوانى من صناعة مصر . كما تدلنا على ذلك تلك العبارة التى تشمل اسم الصانع واسم المدينة كما فى الآنيتين رقم ١٧٢،٥٢ ، وإذا كانت باقى الأوانى خالية من هذه العبارة فان التشابه بينها جميعا فى الصناعة والشكل والزخرفة ولون البريق المعدنى لايدع مجالا للشك فى أنها من صناعة مصر .

وقد يذكر اسم الصانع فى وسط قاعدة الاناء ( رقم ١٦٤ ) أو فى إحدى الدوائر التى تزين السطح الخارجي ( رقم ٥٢ ، ١٦٠ ) أو فى وسط قاع الاناء ( رقم ١٧٢ )

*جمال محمد محرز*

# المراجع


أحمد تيمور باشا والدكتور زكى محمد حسن : كتاب التصوير عند العرب للمرحوم أحمد تيمور باشا ، أخرجه وزاد عليه الدراسات الفنية والتعليقات الدكتور زكى محمد حسن (لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٢)

الدكتور زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ( دار الآثار العربية سنة ١٩٣٧ ) .

: الفن الاسلامى فى مصر ( دار الآثار العربيه سنة ١٩٣٥ ) .

: الفنون الايرانية فى العصر الاسلامى ( دار الآثار العربية سنة ١٩٣٩ ) .

: فى الفنون الاسلامية ( اتحاد أساتذة الرسم بالقاهرة سنة ١٩٣٨ )
: دليل محتويات دار الآثار العربية (كتبه بالفرنسية جاستون فييت وترجمه بتصرف زكى محمد حسن ، القاهرة ١٩٣٩) .
: الدكتور على باشا ابراهيم وهواية الآثار الاسلامية ( مقال فى مجلة الثقافة ، عدد ٩٤ ) .
البكباشى عبد الرحمن زكى : الخزف الفاطمى للدكتور لام ، ترجمة وتعليق الملازم الأول عبـد الرحمن زكى ( مجلة المقتطف عدد مايو سنة ١٩٣٧ ) .

Aly Bey Baghat et Massoul, F. : La céramique musulmane de l'Egypte, Le Caire, 1930.

Butler A. J : Islamic Pottery, London 1926.

CeramiqueOrientale : Ernst Henri, Editeur S. D. Paris 1922

LeCeramique Egyptienne de L'Epoque Musulmane(Musée de l'Art Arabe du Caire) Bâle 1922.

Collection du Docteur Fouquet du Cair.

Dimand, M. S. : A Handbook of Mohammedan Decorative Arts, New Tork, 1930.

: Loan Exihibition of Ceramic Art of the Near East (The Metropolitan Museum of Art 1931).

Hobson. R. L. : A Guide to the Islamic Pottery of the Near East (British Museum) London 1932.

Kœchlin. F. : The Persian Lustre Vase in the Imperial Hermitage at st. Petersburg : Stockholm 1899.

Pézard, M. : La ceramique archaïque de l'Islam, Paris 1920.

Pope, A. U.( Editor ) : A Survey of Persian Art Oxford 1938.

Riefstahl, M : The Parish-Watson Collection of Mohammedam Potteries, New Fork, 1932.

Wiet, G. : Deux Pièces de Ceramiques Egyptiennes : Ars Islamica vol II, part 2.

# أداة التعـــــــريف
## فى اللغـة العربيـة

بقـلم

فؤاد حسنين

---

لـكى نعالج هذا الموضوع فى اللغة العربية يجب علينا أن نعرض له فى سائر اللغات واللهجات التى تمت إلى لغة القرآن بصلة ، وذلك لأن لغتنا غصن من شجرة مترامية الأطراف متشعبة الجذور ، ودراسة هذا الغصن تتطلب ولاشك الاحاطة بهذه الشجرة والالمـام بها . فلغة القرآن الكريم لهجة عربية شمالية تـكوّن مع الثمودية ، والصفوية ، واللحيانية ، وما اليها من اللهجات العربية الشمالية ، التى اكتشفت أو لم تـكتشف بعد اللغة التى اصطلح العلماء على تسميتها العربية الشمالية ، وهى تقابل المعينية السبائية أو العربية الجنوبية كما تـكون الاسرتان مع الحبشية ( الجعزية ) الفرع الغربى من شجرة اللغات السامية بينما الأكدية هى فرعها الشرقى ، والأرامية والـكنعانية الشمالى .

وهذه اللهجات العربية الشمالية — التى انتثرت فى وسط وغرب وشمال وشمال غرب الجزيرة ، خاصة على طول الطريق التجارى القديم الذى كان يخرج من بلاد اليمن ماراً بغرب الجزيرة متجها شمالا مخترقاً مكة ويثرب حتى يصل إلى موانىء البحر الأبيض المتوسط ، وهناك يخرج منـه طريق آخر إلى دمشق حيث يتفرع إلى فرعين فرع إلى أسيا الصغرى فأوربا وآخر إلى بلاد بابل ماراً بتدمر — هى التى اكتشف المستشرقون كثيرا من نقوشها فى العلا والحجر ( مدائن صالح ) وتدمر وتيماء وجبال الصفا ( جنوب شرقى دمشق ) ووسط الجزيرة وسيناء ، والـكثرة المطلقة من هذه الـكتابات مكتوبة

بالخط المعينى الجنوبى ، وإن كانت لغتها عربية شمالية (١) ، وهذا مما يدل على قوة عملية التزاوج التى تمت بين العرب الجنوبيين والشماليين هذا التزاوج الذى كانت نتيجته الحتمية أن انتشرت اللغة العربية الشمالية بين القبائل المعينية الشمالية لا نقول قبل الاسلام فقط بل قبل الميلاد أيضاً . وذلك لأن هذه الكتابات العربية الشمالية لم تكن لغة العرب الشماليين فحسب بل المعينين أيضاً بعد أن نزحوا من الجنوب ، واستوطنوا تلك البقاع واختلطوا بالشماليين ، واحترفوا التجارة أو حراسة القوافل التجارية التى كانت تذرع الجزيرة طولا وعرضاً .

ولعل أشهر لهجة شمالية عرفتها اللغة العربية هى اللهجة القرشية ، وذلك بدليل المكانة الرفيعة التى تبوأتها مكة (٢) فى الجاهلية كوطن للكعبة ، وفى الاسلام كمهبط للوحى ووطن للرسول . لذلك قدر لهذه اللهجة المحمدية بفضل نزول كتاب الله بها ، وبفضل انتشار الاسلام أن تهيمن على سائر اللهجات واللغات التى كانت منتشرة فى سائر بقاع الجزيرة من ناحية ، وعلى كثير من لغات الأمم الأخرى التى دانت بالاسلام أو خضعت لرايته من ناحية أخرى . وهيمنتها هذه هى التى مكنتها من أن تفرض نحوها وصرفها ، بيانها وبديعها على اللهجات العربية الأخرى حتى أصبح نحوها هو النحو العربى الذى تجب مراعاته ويفرض درسه .

(١) D.H. Müller, Epigraphische Denkmäler aus Arabien in Denkschriften der kaiserl. Akademie der Wissenschaften, Wien 1889, Bd. XXXVII.

F. Hommel, Aufsätze und Abhandlungen arabistisch-semitologischen Inhalts, 1, München 1892.

Jaussen et Savignac, Mission archéologique en Arabie, Paris 1909-22.

M. Lidzbarski, Ephemeris für semitische Epigraphik, 11, 23-48, 345-361 ; 111, 214-217.

F. Hommel, Exploration in Arabia (in : Hilprecht. Explorations in Bible Lands. Philad. 1903.

F. Prätorius, Bemerkungen zum südsemit. Alphabet (ZDMG Bd. 58 (1904) S. 715 f)

. . . . . . . . . . . , Das kanaan. und südsemit. Alphabet. (ZTMG Bd. 63 (1909) S. 189 f)

Charles Doughty : Documents épigraphiques recueillis dans le nord de l'Arabie, Paris 1884.

Charles Huber : Inscriptions recueillis dans l'Arabie centrale, 1878-82.

J. Euting : Nabatäische Inschriften aus Arabien, Berlin 1885.

. . . . . . . . Sinaïtische Inschriften, Berlin 1891.

R. E. Brünnow und A. v. Domaszewski : Die Provincia Arabia, Bd. 1-111, Starssburg 1904-1909.

(٢) Christian Snouck Hurgronje ; Mekka. Heag 1888-1889.

لكن قداسة اللغة شيء والبحث اللغوى شيء آخر فنحن إذا عرضنا لأداة التعريف فى لغتنا فانما نعرض لها كظاهرة من ظواهر اللغة العربية خاصة ، واللغات السامية عامة فنحن سنتجاوز الحدود التى رسمها رجال الديانة الاسلامية للعربية الفصحى ، فخصوا قريشاً واللهجة القرشية بكل مقومات الفصاحة والبلاغة ووصموا ظواهر اللهجات العربية الأخرى بالضعف والوهن والشذوذ . نحن نعرض هنا فى هذا البحث لا لهذه اللهجات فحسب بل للغات السامية أيضاً وبذلك فقط نستطيع فهم هذه الظاهرة اللغوية فهماً صحيحاً .

التعريف قديم فى اللغات السامية وهو يوجد فى سائرها كما يوجد فى السامية القديمة إلا أن التعريف شيء وأداة التعريف شيء آخر [١] وقد تكون أداة التعريف هذه حديثة فى اللغات السامية ، وقد تكون غير موجودة فى السامية الأصلية إلا أنها ليست واحدة فى اللغات التى أوجدتها واستخدمتها فهى مختلفة متنوعة ، ولو أن بعض علماء اللغات السامية حاول ارجاعها إلى أصل واحد فلم يوفق [٢] . فهذه الأداة كما نعرفها اليوم من النصوص المختلفة قد تسبق المعرف كما هو الحال فى العربية والكنعانية ، وقد تلحقه مثل الأرامية والسبائية ، وقد يكون الفرق فى الاستعمال ناشئاً من أن بعض هذه اللغات استخدمت الأداة قبل أن تجمع على طريقة استخدامها . وليس هذا هو الخلاف الوحيد الذى يعترضنا فى بحثنا هذا بل هناك خلافات أخرى ستتبين لنا مما يلى.

الأكدية : لا تعرف أداة للتعريف وإن كانت تستخدم الاضافة أحياناً مع ذكر الضمير — ش — كما فى المثال الآتى : شرم ش ماتم : يعنى « الملك الذى للبلاد » أى « ملك البلاد » .

الحبشيــة : شاركت الأكدية فى هذه الصفة فهى وإن كانت لم تستخدم قديماً أداة تعريف خاصة إلا أنها استعاضت عنها بوسائل كثيرة منها :

---

[١] C. Brockelmann, Grundriss der vergleichenden Grammatik der semitischen Sprachen, 2 Bd., Berlin 1908-13.

J. Barth, Die Pronominalbildung in den semitischen Sprachen, Leipzig 1913.

[٢] W. Wright, Lectures on the Comparative Grammar of the Semitic Languages, Cambridge 1890 p. 114 sq.

١ — عَرّفت بدون أداة سائر الأسماء الدالة على شيء معين مثل :
ΘΠΕ : ( املاك ) أى « الله » و ΠΘΠΠ : ( ضحاى )
أى « الشمس » .

٢ — استخدمت فى كثير من الحالات الغائب المذكر : . ወአቱ
(واتو) قبل المعرف مثل : ወነሥአ፡ አምወአቱ፡ ዘወአቱ፡ ብሔር፡
ونشأ امواتو ذواتو بحر : = وأخذ من ( هو ) حجارة ( ذ هو )
المكان أى « وأخذ من حجارة المكان » .

٣ — بعض ضمائر الاشارة وهى أما :

ا — للقريب مثل H ( ذ ) أو : H ʒ ዠ ( ذنتو )

ب — للبعيد مثل H Ϋ ( ذكو ) أو H ħ ዠ ( ذكتو )

٤ — الضمير المتصل ሁ ( هو ) فى مثل : በዓመቱ፡ ( بعامتيهو ) فى السنة .

٥ — أن يؤتى بالحرف ለ ( ل ) قبل الكلمة المراد تعريفها وذلك فى حالة ما إذا جاءت الكلمة فى حالة اضافة .

مثل : ወሰሞ፡ አግዚአብሔር፡ለብርሃን፡ዕለት፡ :
: وسميو اجزى ابحر لبرهان علت « ودعاه الله يوم النور » ،

السريانية : تستخدم كأداة تعريف ܐ ( ا ) ويرجح أنها من ( ها ) وهى لاحقة مثل ܡܠܟܐ ܕܒܒܠ ( ملكا د بابل ) أى : الملك ( ذو ) بابل : اعنى ملك بابل .

الكنعانية : تستعمل الحرف ה ( ه ) مع تشديد الحرف الأول من الاسم المعرف إن لم يكن حرفاً حلقيا . وتستعيض العبرية عن تشديد الحرف الحلق بالمد التعويضى وهو اشباع فتحة الهاء وجعلها ( قامصاً ) مثلا أعنى أن ( ه ) تصير ( ها ) أو التضعيف التقديرى وهو أن تحتفظ الهاء بالفتحة أو أية حركة أخرى مع تقدير تشديد الحرف الحلق مثال ذلك הַשָּׁמַיִם ( هَشّاميم ) أعنى السموات و הָאָרֶץ ها آرص

أى الأرض و הֶחָג (هحاج) أى العيد .
العربية الجنوبية : ولهجة طى تستخدمان الميم وهى التى أطلق عليها العرب الطمطمانية كقولهم : طاب امهواء : أى طاب الهواء .
وتلحق السبائية احيانا الحرف ( ن ) بالاسم إذا أريد تعريفه مثل : أماكن ኣማኪን : أى الملوك .

## العربية الشمالية

فى اللهجات الثمودية واللحيانية[١] والصفوية[٢] نجد أداة التعريف ( ه ) وتستخدم هذه اللهجات هذه الاداة استخدام الأسرة الكنعانية لها تقريبا . اعنى أنها تشدد الحرف الاول من المعرف إن لم يكن حرفا حلقيا [٣] أو قريبا من الحلق مثال ذلك فى الثمودية ( ه و ع ل ) أى الوعل ، وفى اللحيانية ( ه ص ل م ن ) أى التمثال ، وفى الصفوية ( ه د ر ) أعنى « الدار » .

وقد لوحظ أيضاً فى النقوش اللحيانية أنها تستخدم إلى جانب الـ ( ه ) اللفظ ( هن ) وكذلك ( هل ) وذلك أحياناً مع الكلمات المبتدأة بأحد الحرفين الحلقيين ( ا ) و ( ع ) أو القريبة من الحلقية مثل ( ق ) . وقد عثر فى نقش ثمودى على إحدى الصيغتين السابقتين وقد جاءت كلمة مبتدأة بالحرف ( ك ) مثل ( ه ن ا م ن ) [٤]

(١) H. Grimme, Die Lösung des Sinaischriftproblems. Die altthamudische Schrift 1926.

E. Littmann, Entzifferung der thamudenischen Inschriften. Mitt. d. vorderas. Gesellsch. IX, 1 (1904).

J. J. Hess, Die Entzifferung der thamdenischen Inschriften. Paris 1911 (=Recueil des Travaux XXXIII).

(٢) E. Littmaun, Zur Entzifferung der Safâ-Inschriften. 1901.

H. Grimme, Texte und Untersuchungen zur safatenisch-arabischen Religion. Mit einer Einführung in der safaten. Epigraphik. 1929.

H. Grimme, Zur dedanisch lihjanischen Schrift. OLZ Bd. XXXV (1932), Sp. 753 ff.

(٣) ظاهرة عدم تشديد الحرف الحلقى موجودة فى العربية ، فقد جاء فى ألفية ابن بونه ص ٣٧٤ :
وأنفحة فى لغة من لا يشدد الحاء لشىء أصفر يستخرج من بطن الجدى .

(٤) Müller, No. 14.

و ( هـ ن ع ن ك )[١] و ( هـ ن ق ي ب ر )[٢] و ( هـ ل ك ت ب ي )[٣] .

والآن بعد أن رأينا أن الأسرة الكنعانية وبعض اللهجات العربية الشمالية تستخدم الـ ( هـ ) أو ( هـ ن ) أو ( هـ ل ) كأداة تعريف نحب أن نتعرف إلى هذه الـ ( هـ ) عن قرب قبل أن ننتقل إلى اللهجة القرشية .

الـ ( هـ ) ويرجح أنها كانت فى الأصل ( ها ) ثم قصرت الحركة فصارت ( هـ ) ثم استعيض عن هذا الاشباع بتضعيف الحرف الذى يليها ، هى بعينها التى نجدها فى الكثرة المطلقة من اللغات السامية كحرف اشارة أو تنبيه ، وقد ترد متصلة بأداة الاشارة ( ذا ) فى مثل قولنا ( هاذا ) وفى السريانية والعبرية أيضا كما ترد مع ضمير الغائب أو الغائبة المفرد أو الجمع للاشارة إلى البعيد فى العبرية مثل הָעָם הַהוּא ( هجوى هَهُو ) يعنى « ذلك الشعب » كذلك الحال فى اللهجات العربية الحديثة فاننا ما زلنا نجد فى اللهجة العربية المصرية مثلا استعمال الـ ( هـ ) مع أداة الاشارة فى مثل قولنا ( دُكْ هَ ) أو ( دِكْ هَ ) وكما أنها واردة لاحقة هنا فكذلك ترد سابقة مثل ( هـ د ك ) . وتستخدم العربية هذه الـ ( هـ ) فى مواضع أخرى فى مثل قولنا ( هاكَ وهاكِ . . . ) أو ( هازيدا )[٤] . وتتفق مع العربية فى هذه الاستعمالات لغات سامية أخرى كالعبرية والأرامية[٥] .

## اللهجة العربية القرشية

اختلف النحويون فى أداة التعريف ولخص ابن مالك هذا الاختلاف فى قوله :

أَلْ حَرْفُ تَعْرِيفٍ أَوِ اللَّامُ فَقَطْ      فَنَمَطٌ عَرَّفْتَ قُلْ فِيهِ النَّمَطْ

---

(١) Müller, No. 4.

(٢) Jaussen, No. 81

(٣) E. Littmann, Zur Entzifferung der thamudischen Inschriften, S. 17.

(٤) راجع ابن يعيش ص ٥٠٩ .

(٥) فى العبرية نجد مثلا הַזֶּה أى هذا وفى السريانية ܗܳܐ أى أنظر و ܗܳܘ أى « ذلك » و ܗܳܕܶܐ أى هذه .

وقد أجمع الشراح على أن (ال) بجملتها هي حرف التعريف وفاقا للخليل الذي لم يقل : الألف واللام : وليست الهمزة عنده زائدة بخلاف سيبويه الذى قال : باللام فقط محتجا بسقوطها فى الدرج ، وخالف المبردُ الاثنين فقال : الهمز : فقط لأن اللام تقلب فى لغة حمير ميما إذا كانت مظهرة كقوله عليه السلام : ليس من أمبر امصوم فى امسفر : وتحدثنا المصادر العربية أيضاً أن ( ال ) هذه تستعمل مع الفعل أحياناً كما فى قول العرب اليَجدع واليتقصع واليحمد : ويقول ابن خالويه فى كتابه ليس فى كلام العرب ص٨ : وكأنهم أرادوا الذى يجدع والذى يتقصع : أعنى أن(ال) هنا بمعنى (الذى).

وفى غير التعريف والموصول تستعمل ( ال ) أيضاً فى الاشارة وهى التى تسمى ال العهدية .

كقوله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم » أى هذا اليوم الحاضر وهو يوم عرفة من حجة الوداع الذى نزلت فيه الآية . وفى غير هذه المواضع نجد اللام مستعملة فى الاشارة فى مثل الذى وذلك وهنالك ويا لهبل ويا للرجال ويا للدواهى وتتفق تقريباً سائر اللغات السامية مع العربية فى هذا الاستعمال (١) .

والآن بعد هذه المقدمة الوجيزة لعرض اللام فى اللغات السامية نحب أن نرجع لقول ابن مالك فى اداة التعريف . الواقع أن مجرد النظر الى هذا البيت يجعلنا لا نتردد لحظة واحدة فى الحكم على أن رجال النحو العربى لم يصدروا هذا الرأى بعد بحث شامل لاداة التعريف وذلك لأن حكمهم وان وافق كتابة الأداة إلا أنه يخالف نطقنا لها . وهذا الخلاف بين كتابة الإداة والنطق بها يحتم علينا أن نرجع إلى الأصول الأولية للغة العربية أعنى الأبجدية .

نحن نعلم أن ابجديتنا مكونة من ثمانية وعشرين حرفا ، فالألفاظ المعرفة أو القابلة

---

(١) فى العبرية مثلا הַלָּז أو הַזֶּה هذا وكذلك הַלַּיְלָה هذه الليلة و הַיּוֹם هذا اليوم وفى السريانية ثمضلا الآن .

للتعريف لاتزيد موادها عن هذا العدد . ويقسم اللغويون هذه الأبجدية إلى قسمين رئيسين متساويين :

حروف شمسية وهى : ت ث د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ل ن

حروف قمرية وهى : ا ب ج ح خ ع غ ف ق ك م ه و ى

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تبين أخيرا من دراسة بعض اللهجات العربية أن بعض هذه الحروف التى اعتبرها المتقدمون قمرية هى فى الواقع شمسية ومن هذه الحروف الـ (ج) فى مصر وبيروت[١] ودمشق[٢] والموصل[٣] وبعض المدن الأفريقية الشمالية كالدار البيضاء[٤] وغير الجيم نجد ( الكاف ) فى مصر (والقاف) فى ضفار[٥] ومن هذا يتبين لنا أن اللام لاتسمع إلا مع مواد قليلة وتختفى ويحل محلها التشديد فى كثرة المواد . فاللهجة العربية القرشية متفقة فى هذه الظاهرة مع سائر اللهجات العربية الشمالية كاللحيانية والثمودية والصفوية ، وكذلك الاسرة الكنعانية حيث أداة التعريف فيها الهاء وتشديد الحرف الذى يليها مالم يكن حلقيا أو قريبا من الحلقى وفى الحالة الاخيرة نجد فى اللحيانية والثمودية ( ه ن ) أو ( ه ل ) كما وجدنا فى الكنعانية المد التعويضى والتضعيف التقديرى . فنحن الآن أمام ظاهرة جديدة وهى أن ( ه ن ) أو ( ه ل ) تقابلان ( ال ) فى القرشية ، وإذا كان الأمر كذلك أليس من الجائز أن (ن) الاداة (ه ن ) تقابل ( ل ) الاداة ( ه ل ) من ناحية وأن ( ه ل ) تطورت فى العربية الشمالية إلى ( ا ل ) ؟ بلى ففى النقوش العربية الشمالية المتأخره كنقش النمارا مثلا الذى يرجع تاريخه إلى عام ٣٢٨ م نجد أن اداة التعريف فيه ( ا ل ) وفى نقوش أخرى نجد أن ( ا ) مستعملة إلى جانب ( ه ) كأداة تعريف . ونفس هذه الظاهرة أعنى قلب اللام

---

(١) Mattsson, Le dialecte arabe de Beyrouth, p. 57

(٢) G. Bergsträsser, Zum arabischen Dialekt von Damaskus, Hannover 1924.

(٣) Socin, Der arabische Dialekt von Mosul und Mardin.

(٤) G. Kampffmeyer, Marokkanisch-arabischer Gespräche.

(٥) N. Rhodokanakis, Der vulgärarabische Dialekt im Dofâr (Südarabische Fxped. VIII, X), 11,110.

نونا أو النون لاما أو الهاء همزة موجودة فى لغتنا العربية حيث يقال فى (لعل) (لعن) وفى (لاسيما) (ناسيما) وفى (اصيلال) (اصيلان) وقول جميل .

وأتت صواحبها فقلن إذا الذى    منح المودة غيرنا وجفانا

والنتيجة التى مهدت لها بهذا البحث وأحب أن أصل اليها هى أن أداة التعريف فى لغتنا ليست (ا ل) بل الهمزة والتشديد وأما (ا ل) فلم تستعمل الا فى الحالات القليلة السابقة فقط والتى يتعذر فيها حقيقة التشديد وتتفق لغتنا فى هذه الظاهرة مع معظم اللهجات العربية والأسرة الكنعانية .

ونتيجة أخرى أحب أن أقرها فى هذا البحث أيضاً وهى أنه ثبت لى عند عرض أداة التعريف أن اللغة السامية تميل إلى استخدام أداة الاشارة أو الضمير الشخصى للتعريف والرأى عندى أن الاشارة أقدم من الضمير الشخصى وهذا أقدم من التعريف وجميعها تدل فى الحقيقة على معنى واحد ألا وهو الاشارة .

وإذا كان الأمر كذلك فما هو السبب الذى حمل نحويى اللغة العربية على القول بأن (ال) هى أداة التعريف ؟ قواعد اللغة الفصحى كغيرها من قواعد اللغات الأخرى هى فى الواقع نتيجة لعملية توحيد وتبسيط لمختلف القواعد السائدة فى تلك اللغة وأعتقد أن ما تقوم به بعض المجامع اللغوية فى أوربا وأمريكا خاصاً بلغاتها هو بعينه ما فعله لغويو العربية القديمة .

فؤاد حسنين

in the processions celebrating the spring feast of Isis at Kenchreae. The neophyte also held a torch in his right hand when he was first presented to the Isis devotees (Apuleius, Met. XI, 24).

The position of the 'sacrorum' in the cult of Isis is still problematic (cf. Wissowa, RR[2], p.3; Darem.—Saglio, Dict., s. v. Isis). There is no doubt that they were initiated in the mysteries but it is not clear whether they formed distinct associations or whether they were allowed a lower rank in the sacerdotal collegia. In the inscriptions we find men and women designated 'sacrorum' or 'sacrorum Isidis' without any further indication or explanation (CIL VI, 2244-5, 2279-82,37171; IX, 6099; XI, 819). In Apuleius, Met. XI, 23, we hear of 'turbae sacrorum' coming from all parts to offer presents to him, but he does not define their position in the cult.

*Mohamed Selim Salem*

# Ovid, Met. IX, 776—7

by

**Mohamed Selim Salem.**

One of the beautiful episodes versified by Ovid in his Metamorphoses, IX, 666 ff. is a miracle wrought by Isis for one of her Cretan devotees named Telethusa. The lady was about to give birth to a child when her husband with tears in his eyes ordered her to kill the coming infant if it proved to be a girl. Isis however appeared to the sad lady in a dream and advised her to deceive her husband and to spare the child, be it a girl or a boy. The child who happened to be a girl was accordingly reared and given the equivocal name, Iphis. The father, believing that the child was really a boy, gladly performed all his vows. When Iphis grew up, the father decided to choose a bride for his supposed son. The mother was in great distress; she turned to Isis for succour. The goddess heard her prayer and changed the sex of Iphis.

The text of Telethusa's prayer is not certain, and editors have made various attempts to remedy it. As the text now stands, the words 'faces sistrorum' in lines 776—7 cannot be made to yield any sense. The corrections already suggested vary between rewriting line 776: cunctaque eognovi, sonitum comitesque facesque, so that a word of sound may go with 'sistrorum' and marking a lacuna after facesque. Those editors who attempt to rewrite line 776 obviously consider this line to be corrupt, but in my opinion this line does not seen to have been tampered with. Nor is there any need to mark a lacuna after it. The first word in the succeeding line, that is the word 'sistrorum', seems to be the cause of the difficulty. It has displaced the right reading which was, in my opinion, 'sacrorum'. The resemblance between the two words is obvious, and a fortuitous change in the 2nd and 3rd letters in 'sacrorum' may have led to the introduction of 'sistrorum' which was possibly a gloss explaining the meaning of 'sonitum'. The words 'faces sacrorum' are clear to any one with a little knowledge of the Isis cult; although the word 'sacrorum' itself is sometimes misunderstood. It may be taken to mean only 'rites' (sacra), and in this case 'faces sacrorum' become a puzzle hard to interpret. In this passage of Ovid the words 'faces sacrorum' mean of course the 'torches of the initiated' (sacri). The custom of carrying torches in the Isis processions is well attested by Apuleius, Met., XI, 9 who tells us that a number of men and women carried lamps, lanterns and torches

the Burgundians failed, for which they blamed the Englishmen. This caused a delay till ten o'clock at night before the rearward were in their tents, which were pitched inside the court or the fort of a monastery called St. Martin where there was some scarcity of bread that night. And then they took their way back towards the town of (Vallcines) above which a bridge was made for the body of the army to cross the river. And the Duke and his council of captains and many of the cavalry went to the town of Valenciennes where they tarried to put the king's artillery in safe custody and to despatch the English to England and the Burgundians to their homes. These had been in the two expeditions described before to fulfil the promise of the Emperor in his compact, which says that he bound himself to prepare for the King ten thousand men in harness both horse and foot and their wages for half a year. And in the same way the King was bound to the Emperor whenever one should call on the other, wherefore the King of England did not have to pay any of the cost of the Burgundians during these two expeditions.

And as soon as the Duke had put everything in order in Valenciennes and taken leave of the Burgundian chiefs, he took his retinue and rode from there to Tournay and from Tournay as it happened to Bruges, and from Bruges to Dunkirk, where he shipped many of the horses of the English in a couple of hoys, on which there rose a storm of wind that threw them on shore between Dunkirk and Sealand where the vessels broke up and the horses were drowned. At this time the Duke came to Calais about three weeks before Christmas and sent the soldiers across the sea to England but Lord Sands so performed the message of the Duke to the cardinal of York, who governed the King's dominions as he saw fit, that he, according to the account of the aforesaid lord made such slander between the Duke and the king that the Duke stayed in Calais till after Epiphany when he went to England. But he was in England from then till the feast of St. John before he was allowed to come before the king, and so this was the end of the expedition, and the soldiers came penniless to the kingdom."

*M. B. Davies*

struck its tents and booths and set fire to the huts which nearly set fire to the township, but certain of the captains of the rearward made the soldiers put out the fire which was running across the field in the straw like lightning because everything was so dry and sear from the force of the frost. And so the host marched against the freezing wind throughout that day which was Friday towards a town called le Cateau Cambrésis (Kambessi) which was one of the worst and hardest days for frost that the oldest man in the host had ever seen, and there were many men who were over sixty years of age. This day if people can be believed many men on horse and on foot died from sheer cold. Others said that some had lost the use of their limbs from the force of the frost wind. And others said that they had lost the use of their waterpipes and could not pass any water that way until they had got fire and warm water to thaw them. Indeed this was a greater misfortune to some men than to others for in truth I was on a horse riding among men who had little enough round them to keep the cold wind from the body, as I myself. In this company there were old men and young who were on horseback from six o'clock in the morning till nine o'clock at night but I saw none of the afflictions aforesaid happen or fall upon any of them. Still, this matter may be true and might have happened to those stubborn lazy men who had long been sick in those members of a disease and a hurt that it was not easy for doctors to cure, in which places the cold wind struck so severely that the nature of the flesh was unable to strengthen the blood to give natural warmth to the members which had been overcome by the cold, wherefore they were lost, as is treated of before in this work.

The host stayed in and around this place and the next morning they marched towards the town of Saint Quentin which belongs to France, from which a certain number of men in harness emerged to skirmish with the Englishmen. The latter in order to begin the play rode along the wall of the city and past the bailies of the gate in order to entice them out to the field away from the town so that some of the English and Burgundian horsemen who were waiting in ambush to see what the French soldiers would do, whether come out of the town or not, could take them in the flank as they were coming past the town. This they would have done if there had been enough time for as soon as the horsemen of the rearward heard that some of the horsemen from the town had come out to skirmish and that the English archers were not able to stand against them they ran backwards fast which the French espied, and since they had not come far enough from the fortress for the Burgundians to break from their ambush and strike at them the plans of

of a knight called Sir Thomas Wainford that they would take their leave as soon as they saw the light of day. Against this some of their comrades said that it was as well to ask leave of their captains before quitting the camp, for fear of their lives, and that what they were discussing was no less than treason, namely to leave the king's captain on the field with the ordnance and to go off without knowing to their captains, which could not go without punishment. To this these obstinate senseless men answered that it was no worse being hanged in England than dying of cold in France. My master Sir Robert Wingfield heard all this noise and talking and made me get out of my bed where I was as snug as a small pig to listen to the talk and to take note of those men who were making this noise. After a long argument they put their heads down and shut up and I came to my master's tent and told him all about it, after which I laid my head in the straw again. But before I had warmed my bed one of the people next to me got up to make water in the door of the tent or the hall and shouted "Ah sirs, if I had known at the beginning of the night that there would be as much frost and snow as this I would not have taken so much trouble to search my shirt for lice, but I should have hung it out in the wind and let them die of cold, as we shall do if we stay here any longer." To listen to what he was saying I had to get up from my pallet the second time when the man who was in the door of the tent said "If any of you were of the same idea as myself I should shout 'Let us go home, home;" But because it was now near the dead of night his neighbours told him to lie down till day came, which he did. And as soon as day came they began to talk about their journey to England all through the host and then they shouted out loud 'Home! Home!' especially the men of Essex and Suffolk among whom there were many wealthy farmers who used this confusion to urge on the poor men to go home.

It is certain that the Duke and all the captains who had any sense were amazed at this shouting, not only from shame that the foreigners from Burgundy should see the shiftlessness, the weakness and the unruliness of the English soldiers, but also for fear lest the enemy should get to know of this tumult and fall suddenly upon them. So the sensible men got up and went each to his company to pacify the unruly ones with fair words and promises that they should take their journey back to England the next morning. This made them shut their jaws and silenced their clamour and after the people had been quieted the Duke and his captains went into council to decide which way they should next take with their goods in safety. Next morning the whole host

enemies. During this time grey bearded winter began to show his face in black cold frost wind and short days and long nights which caused the decrepi tshivering soldiers to complain and groan to each other. Some said it was too much for them to be there lying on the earth under hedges and bushes dying of cold, another said that he wanted to be home,* in bed with his wife which was a more comfortable place for his head than here. This complaint many of the English and the Welsh made with great weeping and wailing. And yet they had no reason to complain except of their own sluggishness and slovenliness. For there was no lack of food or drink or wood for fire or making huts, and plenty of straw to roof them and to lie on if they had only fetched it. But there was many a man weak in body who preferred from sheer laziness to lie under the hedge rather than take the trouble to make a snug warm hut to keep him from the frost wind and the snow, and they preferred to shiver with cold rather than take the trouble to light a fire, which was all very well known to me, Elis Gruffudd and Sion Dafydd and those who were in Sir Robert Wingfield's tents. On the second day of the frost these were divided into two parts. Some went with the cart to fetch wood, the others stayed at home to make a bank of turf and earth to keep off the wind which was blowing from the East. Inside the bank, after the wood had come they made a big fire. But by the time the fire was hot enough for a man to warm himself by it, none of the men who had taken the trouble to make it could get near enough to warm his paw, because the others would not move from it for fair words or foul. Many young men lay round it all through the night and I saw there one young man who had turned his backside to the fire and turned his stockings down over his knees and taken off his wrappings to warm his feet and legs, and in this way he lay with his back to the fire until the heat had blistered his knees and the soles of his feet, which was an extraordinary sight that a man could be so sluggish as to sieep so soundly that he could not feel his own flesh burning. But however great the cold they did not intend to leave there until getting letters from the King, though there was much murmuring among the common soldiers. At last on Wednesday night there rose a noise and shouting amongst the host and especially around the tents of the Duke and some of the soldiers said they would tarry there no longer and that they would go home willy nilly the next day. This talk spread from there among the men of Suffolk and Norfolk who began to swear mightily in the hall

* The Welsh has ai ben yn nhin i wraig

saw clearly that they had not half enough people to hold so many towns nor a tenth of the artillery and ordinance to fully man one of them. For in Gods truth they had only a very few Cannon balls and less powder because they had decided to blow up certain of the strongest towers that were around the town with gunpowder. After this they took the host and rode back from there by another road to the town of Roy where the Duke heard Mass on New Year's Eve and knighted several gentleman among whom Master Roger Salsbri of Llyweni was made a knight. While the Duke and the gentlemen were at Mass the host moved from the south to the north side of the town in which the Duke and his gentlemen kept their state until the day was done. Then they went to their tents and the next day they rode towards another town called Nesle (Nael) from which the people fled with all their goods as the inhabitants of Roy had done. And after the host had stayed around and in Nesle for two nights and a day they took their way towards a castle called Bohain (Vohaayn) beneath which i. e. about half way between Corbie and Bohain there was a bridge across the river Somme towards which the host went quickly, but before they could come near the place the French broke down the bridge and so they had to stay for three nights and two days on the banks of the river till the bridge was repaired. After this they roused the host and went across the river and shortly after the Duke of Suffolk sent Lord Sandys with new tales to the King about this expedition which the Duke repented a little later as will be shown more fully in this work when the time comes. Then the Duke and his host went on their way to a castle called Bouchain which, after the Duke had sent some people with artillery to lay siege to it, surrendered to the Duke. At this time letters came to the Duke from the King to say that his grace was anxious for them to make the best provisions possible and to spend the winter within the dominions of the king of France and saying that Lord Curson (Kwrsswn) was coming with much artillery and ordnance and money to pay the soldiers and this news was well received by the gentlemen of England and those men of the common soldiers who had set their mind on being men of war, but those who were thinking of their wives and children and husbandry and those cowardly men with base hearts who would rather go home to their mothers and fathers, some to plough and thresh, others to follow the cart and hedge and dig and live niggardly, these were unwilling and were angry with anyone who talked about staying there during the winter. Still the Duke and his council took the trouble to note down the towns and castles in those parts which could receive them and protect the soldiers from their

to fill the town full of every kind of fodder for men and beasts, which was easy to do because the country was full of wine and wheat and the fattest pigs ever a man saw. Because the country was so full of every kind of thing that pertains to the nourishment of man it is called Seint teerr which is the blessed land, or paradise. And in Gods truth, had the host been as well supplied with everything that is necessary for a host to hold the town as they were with provisions and men of good heart and enterprise they could have spent the winter there, without thanks to the king of France and all his people. And yet they were within thirty miles of Paris, which is the queen of all the towns and cities of France. In spite of this the French did not try to break a lance with any of them more than once or twice, which was a great wonder, considering that there was only a small army of English and Burgundians and that there was a great number of French soldiers both horse and foot defending the towns around namely Amiens (Amias), Doullens and Corbie, besides the castles in those districts which belonged to France. The reason for this lack of interference in the opinion of some of the Englishmen, was that it was for fear of the Duke of Bourbon who was one of the ablest men in France and next in blood to the Crown, who had turned against the king as aforesaid, and who, if the opinion of the people was to be trusted, had agreed with the Cardinal of York during the meeting at Guisnes to help the English to win France whenever the King of England should send his host to conquer it. But it is unlikely that this story is true because the aforesaid Duke took to his heels and fled from France in fear of his life before the English came near to Ancres. After this the King of France rode to Lyons de la Rhone with all his rout before and after him and there he stayed lest the Duke should come with a host from Italy to make havoc in France. Therefore he did not make much haste to turn back to drive the English from his kingdom since he was sufficiently familiar with them to know that they would do no harm in the world, only take their sport in strolling around the countryside and eating wheaten bread and meat and fish and drinking wine, which was a great treat for the English common people. And as soon as winter came it was sure that they would keep to their custom as they were used to do, which was true. For as soon as the French had left Montdidier the Duke of Suffolk called his council around him to find out what they would advise, whether to take their way further into France or not at that time, or to try to keep that town with Bray and Ancres so that help and succour in men and provisions and artillery could come to them along that way. But after having considered the matter well they

Lihon (Lihwn) which was so large that it lodged the whole host, horse and foot in houses, at which place the captains were in great fear of fire balls. From this place they went on their way till they came to Montdidier near which the English horsemen took some of the French horsemen prisoner. That afternoon siege was laid to the town and the second night after dark Christopher Morus set artillery against the wall and shot very rapidly, During this time, I know not why, one of the finest houses in the town caught fire and there was a great commotion on account of which they asked for a truce to talk with the Duke. By this time a great breach had been made in the wall and the people were ready to make the assault but although a great breach had been made in the wall, still the ditch was very deep and hard to fill, therefore the duke and his council were the more ready to allow a truce with the French. These after some parley agreed to surrender the town provided they could leave with all their goods which they were allowed to do. Soon after the horsemen rode out of the town and the footmen went in front with much of their property. The merchants and men of substance had fled with all their wealth two or three days before. After the French had left, some of the English and Burgundian soldiers came into the town. Some of them had some spoil in clothes and furniture from the town, which was built on the side of a hill above a gorge along which a stream of running water was flowing. The foundations of the town were laid on a rock of white limestone which was quarried under the town so that one could go through any of the caves from one side of the town to the other. This is known to me Elis Gruffydd and Sion ap Dafydd ap Rhys ap Gruffydd of Gronnant in Flintshire in North Wales who were there and took some men from the town and went through the ashes that were smouldering in the courtyard of one of the houses which had caught fire the night before, to the entrance of a cave they saw leading into the earth to try to get plunder inside it thinking that no one would try to go in that way, in which they were right. After they had come into the upper cellar which was under a loft they only found two or three vessels full of wine. From there they took a wide stair going lower down which they followed till they reached the floor of the cave which was very spacious. Through this cave and others they went till they came underground to the other end of the town where they found a great deal of worldly wealth, had there been any means of carrying it from there, wine, honey leather, and pieces of pewter, and salt, of which some of the lower caves were full. Indeed there was a great deal of grain in granaries in the town and therefore some of the captains wanted

created great discontent among the men on the south side of the river who put the whole blame on the Welshmen although there were twice as many Englishmen more eager to turn home than the Welshmen, but as the proverb says 'The dog who is to be killed, is the one that kills the sheep'. * At this time there was plenty of talk in the council, for some wanted to hang all the Welshmen there, others to kill them all, but as it happened the matter was settled when they turned round and came to the town, where most of them spent the night. During that night there was a shortage of bread among the host but no want of cattle and sheep and the fattest pigs I ever saw and plenty of wine and corn to make bread. Next morning the Duke sent his heralds to ride round the country and make proclamations to show that every man of the commons of the country would have a safeconduct to come to the host with bread and cheese and be paid for it as a result of which before ten o'clock the next day there were bread markets in several parts of the host, with no one asking its price. In this place the Duke and his people stayed three days waiting for the men who were coming after them from Burgundy with provisions. During this time the Duke sent to fetch those men he had left to hold the town of Ancres and all his people to the north of the town of Bray, and as soon as he had collected them on the south bank of the river, he caused the bridge to be broken down and broke up all the boats which could be collected on that side of the river. During this time the French took some of the Englishmen prisoners, who like fools had been wandering about the country collecting sheep, pigs and cattle, and took them to the town of Corbie. After the generals had taken counsel as to which way they would go they prepared a proclamation to be made in the name of the King and the Emperor to order everybody to take courage and arm themselves to withstand their enemies who were in front, behind, and all around them, and that there was no way in the world to fly and find safety except through stout hearts, which made those men who were feigning sickness put their hands on their breasts and ask for arms. Then the Duke and the earl mustered their host, which counting the waggoners and all, was not more than fourteen thousand of all sorts, of which there had come as many as ten thousand in harness from England with the Duke and five thousand with the Count of Egmont Buren, but their number had decreased greatly by this time. Still like men of good courage they took the host and rode and marched on towards a fortified town called Montdidier. On this expedition they spent a night in an open town called

* "Give a dog a bad name and hang him"

which flows on the south side of the town. As soon as the French heard that the Englishmen had entered the castle they set fire to the gate of the town and the street, which was very narrow, and began to break down the bridge so that the Englishmen would not be able to follow them any further. But before they had cut the bridge, the Englishmen had won the town and had begun to bicker with them on the bridge which they abandoned, and turned their backs on their enemies and took to their heels and fled fast along a great causeway of stone that stretched between two watery marshes, from the town towards France. This road was very narrow and the Englishmen pursued the Frenchmen very fast till they came to the further end of the causeway where there were two strong bailies of turf, one on each side of the road, in which were two brass serpents to guard it. But whether for lack of powder and shot or for fear of killing their own people they did not fire a single shot and the Englishmen kept the place. By this time the Duke and all his host had arrived in front of the gate that lies to the north of the town which the men of the town had closed with earth and dung and stones. This the workmen had great trouble to clear in order to open it, and through it the horsemen and the artillery and the baggage passed and went across the river on to French ground. During this time the footmen of the rearward were standing in front of the town on the slope of a watery hill where many men had water in their boots, and for this reason everybody was complaining because they could see night coming and the weather wet and they likely to stand in their ranks through the greater part of the night unless they crossed the river, or so the story went among those in the field. So the soldiers began to talk and to say that if they were not allowed to come to the town in time to stay there through the night, they would swear to retrace their steps to the place where they had had shelter the night before. Some Welshmen from South Wales who were under Lord Ferrers, among whom were many unruly men, heard this and these took the matter so seriously that they sent round word to cry all together 'On to the town' 'On to the town' which they all did, while beginning to turn back. Lord Ferrers and the captains of that end of the host perceived this and had trouble enough to pacify the unruly ones, concerning which word went swiftly to the Duke of Suffolk and the other end of the host, which was on the other side of the river where the camp and tents had been pitched for the night. This was explained to him in the worst possible way by saying that it was the Welshmen who were turning their faces towards England and saying they would not cross the river Somme. These tales

"In the following July the King of England sent a number of men in harness, on horse and on foot, to make war in France and the king appointed Sir Charles Brandon Duke of Suffolk, as captain or leader (pen teulu) of this army, who took his way from his palace in Southwark to go to Dover on St. Bartholomew's day or the twenty fourth day of August 1523. A few days later he and all his people, noble and common, landed safely in Calais, where people were dying from small pox. Therefore the Duke ordered all his captains to pitch their tents in the fields to the south of Calais, and there they lay for a month waiting letters from the king and his council to tell them which way they should take to ravage France, in which matter the Cardinal of York took his time, for everything passed through his hands. During this time Lord Berkeley who was lieutenant of the castle of Calais died, and the post was given to Sir Robert Wingfield. And during this time there was much skirmishing between the Englishmen and the French. After the king had sent his letters to the Duke to show him which way he should take on his expedition into France, the Duke gathered his army and went forward by stages until he came to the township near St. Omer called Esquerdes (Ackword) where the Duke and his host lay three or four days sitting with his council to consult about sending those people who were sick to Calais. Among these was many a man who made himself appear worse than he really was in order to try to go home. Indeed, many a man was unwilling to go further because the weather was wet and winter was beginning to show his face. Still the Duke took his men and passed on from there by Terouenne (Terwain) and through a town called Arras (Errei) and from there by a French town which the Lord Admiral had destroyed the year before but which they had made much stronger since. The name of the town is Doullens (Dorlans) and from there he took his host, he and Earl Powers who had joined his people to the English host, and from there they rode to a walled town called Ancres (Engkyr) which surrendered to the English and Burgundians and outside which the whole host stayed that night and all the next day. When night fell the Duke of Suffolk ordered some of his people horse, foot and artillery, to assault the town of Bray. These came to the fortress in the dead of night and planted certain great guns which gave the fortress such a good day as to shatter gaps in the wall so that men could scale them and assault the town, which the English soldiers did very gallantly. The men of the town did not stand an instant but gave up the struggle and fled after the rest of the people who were very hurriedly carrying their goods from the town and taking them across the river Somme,

# Suffolk's Expedition to Montdidier 1523

by

M. B. DAVIES

## Introductory Note.

This is an account of one of the campaigns undertaken in France by Henry VIII in pursuit of his ambition to play the Arbiter of the Balance of Power in Europe. The plan aimed at an invasion of France in which the English army would be reinforced by the Emperor Charles. As will be seen it came to nothing, because the Emperor merely used the English army as a covering force for his campaign in Italy and the Imperialist reinforcements when they arrived were insufficient. The Emperor's explanation was that most of his force had been made over to the renegade Constable of Bourbon and he suggested a rendez-vous near Compiègne to which Henry consented. But the Constable's forces mutinied and dispersed, so that there was nothing for the English army which had got as far as Montdidier to do, but to disperse also.

The account which follows is a translation from a Welsh Ms. now in the Welsh National Library written by a certain Elis Gruffydd. It is part of a History of England and Wales from the time of William the Conqueror to the sixth year of the reign of Edward VI, and the last 292 follos deal with the reign of Henry VIII. Gruffydd was one of those Welshmen who left Wales to seek his fortune abroad. He says that he entered on his wages as one of the retinue of Calaias en the 27th January 1529, but he had evidently, as this extract shows, been on service before. The interest of the Ms. lies in the fact that apart from the racy idiomatic character of the style especially when he is writing of contemporary matters, much of what he describes is written from the standpoint of an eyewitness and has therefore a good deal of value from the historical point of view.

In the following extract for example his account of the mutiny of the tioops contradicts that given by Hall and quoted by Oman in his History of the Art of War in the 16th Centry.

In Gruffydd's account there are two outbreaks, one started by the Welsh who had cold feet from standing in water outside Montdidier, and the second on the way back by the men of Suffolk and Essex who cried 'Home, home!'. Oman says the Welsh were responsible for the second, but Gruffydd was there and presumably he should know. It is passages like this, with their vivid, and idiomatic phrasing which make the Ms. valuable.

Gruffydd also served in the campaign of 1543 of which he gives an even longer and more detailed description. There are two other Mss. compiled by him appaiently during the term of his service in Calais, one of which is a book of Welsh poetry, and the other a translation of various contemporary English books on medicine.

In the translation I have put the names of the places mentioned with the Welsh equivalent in brackets. Sir Robert Wing field, under whom Gruffydd was serving, was made deputy of Calais after having been used by Wolsey on several diplomatic missions. The Dictionary of National Biography says that he took no part in the campaign though he was appointed to a command by his cousin the Duke of suffolk. This as will be seen is not so.

matière à des temps différents, le type total demeurant toutefois, mais dans certaines limites, indépendant d'une pareille variation.

L'identité de l'organisme vivant qui se maintient dans le temps et dans l'espace n'est ni une identité logique, ni une identité statique et inchangée, mais dynamique et progressive. Identité dynamique, car tout nouvel équilibre instauré diffère de l'équilibre précédent en raison des modifications qui résultent de tout agent de perturbation et qui ne sont pas complétement annulées par les systèmes compensateurs partiels, mais plus ou moins atténuées. Ces modifications, dont l'effet plus ou moins durable subsiste toujours, constituent l'expérience individuelle de l'organisme et retentissent sur les dispositions innées, tout en étant conditionnées par elles, pour les modifier dans un sens ou dans un autre.

Ces possibilités de modification de l'organisme vivant tiennent à l'extrême complexité de la composition chimique de la matière vivante et de son organisation en un système invividuel spatio-temporel. Cette plasticité de la matière vivante avec ce qu'elle comporte de variabilité et d'adaptation est une donnée en quelque sorte primitive pour l'étude du comportement.

*Youssef Mourad*

quelque chose d'aussi impensable qu'un organisme qui resterait immuable et qui ne subirait aucun changement. L'organisme se développe dans l'espace et dans le temps pour réaliser un type biologique propre. Une fois conçu, il se développe, se modifie, atteint sa mâturité, puis dégénère; mais au cours de ces étapes successives et jusqu'au moment de sa dissolution, il obéit à une loi de développement continu et en vertu de son organisation biologique propre il conserve une identité générale qui fait qu'on peut parler du même organisme en dépit des changements qu'il subit. Cette identité de l'individu biologique diffère de l'identité statique d'un objet inerte ou d'un système physique ou chimique clos. Ce n'est pas une identité de matière, ni une identité de forme stable, mais l'identité réalisée par une unité spatio-temporelle qui se développe dans une direction donnée, grâce à des modifications qui sont régies par un mécanisme régulateur et compensateur interne.

*Résume.*—Les considérations sommaires qui précèdent nous amènent à donner de l'organisme vivant la définition suivante : Un organisme vivant est un système dynamique tensionnel qui dans des conditions internes et externes qui changent constamment, tend à réaliser un type spécifique et à maintenir son identité fonctionnelle et biologique grâce à une organisation interne déterminée.

C'est un système dynamique, parce qu'il est agencé de telle sorte qu'à l'action de certains facteurs de changement, il oppose celle de certains facteurs de modération et de compensation en vue d'établir un équilibre proprement biologique qui se caractérise à la fois par son instabilité et son rétablissement rapide, et cela dans une direction progressive déterminée.

Il est tensionnel, en ce sens qu'il contient de grandes réserves d'énergie potentielle, et qu'il peut diriger, modérer ou inhiber ses dépenses énergétiques et réparer de lui-même ses pertes d'énergie.

La constance du type biologique est conditionnée surtout par la constance du milieu interne laquelle est réalisée par le fonctionnement de certains systèmes subsidiaires très complexes qui agissent comme des amortisseurs et des régulateurs. L'action de ces systèmes a pour but, en particulier, de maintenir constante la composition chimique du milieu vital.

Les besoins de l'organisme sont dans une grande mesure conditionnés par le milieu vital interne.

Le système biologique diffère de la majorité des systèmes physiques et chimiques en ce qu'il peut être composé de particules différentes de

subsidiaires qui sont régis par la loi de Le Châtelier. Mais pour l'organisme pris dans son ensemble et en fonction du cycle qu'il parcourt, croissance, mâturité, vieillesse, le principe de Le Châtelier doit subir une légère modification et s'énoncer ainsi : "Si un changement se produit dans un des facteurs qui déterminent une condition d'équilibre dynamique, l'équilibre se modifie d'une manière qui tend à atténuer l'effet de ce changement."

La différence entre ce second principe et le principe de Le Châtelier est d'une importance capitale. Ce second principe, en effet, revient à dire que tout changement modifie l'organisme, et que le nouvel équilibre établi est différent de l'ancien. Cette modification dans la mesure où elle retentit sur le comportement extérieur, constitue pour l'individu une partie de son expérience. Cette modification, et partant ce que l'on appelle la plasticité de la matière vivante, n'est possible que grâce à la nature de l'équilibre dynamique propre à l'organisme vivant et qui est un équilibre tensionnel, non entre des particules de matière, mais entre des processus qui se déroulent dans l'espace et dans le temps [1].

Mais cette modification de l'organisme va de pair avec sa conservation. Ces deux aspects sont comolémentaires l'un de l'autre. Un organisme qui changerait au point d'être autre à chaque instant serait

(1) La plasticité de l'organisme vivant se manifeste sur le plan organique interne, sur le plane sensoriel et sur la plan moteur.

La constance et la régulation du milieu interne : sang, lymphe, liquides interstitiels, liquide céphalo-rachidien, sont assurées par de multiples mécanismes : chimiques, hormonaux et nerveux. Les limites dans lesquelles les variations du milieu interne peuvent s'accomplir sans entrainer de déréglements graves sont variables. Les invertébrés supérieurs et les vertébrés poikilothermes (Poissons, Batraciens et Reptiles, appelés improprement animaux à sang froid ) ont une résistance plus grande aux variations que les animaux homéothermes (Oiseaux et Mammifères). Chez ces dernièrs, un des phénomènes de régulation le plus délicat est le maintien de la composition chimique du sang et de son état physico-chimique (constance du pH). W. B. Cannon. The wisdom of the body. 1932.

Uu exemple de plasticité sensorielle est là réorientation du champ de la vision chez des hémianopsiques. Une moitié du champ de la vision disparaît et un nouveau centre du champ se forme dans l'autre moitié.

La plasticité motrice est manifeste dans les cas d'amputation. Un chien, amputé d'une ou de deux pattes,coordonne immédiatement,après la cicatrisation de ses blessures et sans aucun apprentissage le mouvement de ses autres membres moteurs. La coordination se fait toujours selon un rythme complètement nouveau. Il n'existe pas de centres rigides et fixes de la coordination des mouvements. La plasticité du système nerveux est surtout mise en lumière dans les cas pathologiques. (BETHE et WOITAS, 1930). Cf. D. Katz. Animals and Men, 1936.

contrairement aux processus physico-chimiques qui doivent nécessairement suivre une direction déterminée. Il est vrai que la Physique du XXème siècle tend par ses conceptions générales à atténuer la rigidité d'un tel principe et dans la mesure où elle reconnaît que les lois physiques ne sont que des lois statistiques, elle substitue la probabilité à la certitude. Il n'en demeure pas moins, qu'à notre échelle spatio-temporelle, le déterminisme des processus physiques est mieux établi et plus simple en apparence que le déterminisme des processus biologiques.

Il est surtout malaisé de prévoir dans quel sens se produiront les manifestations du comportement, à cause du flux incessant des changements qui rompent à chaque instant un équilibre qui n'est jamais achevé. En effet, l'organisme vivant ne réalise jamais un état d'équilibre stable. Cet état d'équilibre stable, s'il existait, serait d'ordre purement physico-chimique et correspondrait à la mort. L'état d'équilibre réalisé par l'organisme vivant est un équilibre qui se qualifierait plutôt de dynamique et qui est caractérisé par la constance de certains facteurs qui maintiennent le système en l'adaptant à d'autres facteurs internes et externes qui changent rapidement.

En dépit ou plutôt en raison de ces ruptures d'équilibre et des rétablissements approchés et successifs de nouveaux équilibres, l'organisme se maintient tout au long de son développement jusqu'à ce que l'équilibre biologique soit rompu irrémédiablement et fasse place à un équilibre physico-chimique qui n'est plus celui d'un individu, mais d'un agrégat de particules matérielles dissociées. Tant que l'équilibre biologique avec ses mécanismes propres se maintient, l'organisme vivant conserve son identité individuelle et se comporte comme s'il tendait à maintenir cette identité ou en d'autres termes à persévérer dans son existence. Un système chimique par exemple qui se trouve en équilibre stable se maintient tant que ses réserves internes d'énergie ne sont point épuisées. Il obéit à la loi de Le Châtelier qui dit que si un changement se produit dans un des facteurs qui déterminent une condition d'équilibre, l'équilibre se modifie d'une manière qui tend à annuler l'effet de ce changement. Ce même principe s'applique aussi au système vivant avec cette différence que l'organisme est un système qui ne peut être isolé du milieu extérieur alors que l'on peut réaliser expérimentalement des systèmes chimiques qui constituent, pendant un laps de temps plus ou moins grand, des touts indépendants. D'ailleurs cette dépendance étroite et continue à l'égard du milieu extérieur est une condition nécessaire de la fonction à la fois transformatrice d'énergie, réparatrice et régulatrice de l'organisme vivant. A l'intérieur de l'organisme vivant, se trouvent d'autres systèmes

Cette tendance vers la réalisation d'un type, vers un équilibre dynamique optimum, n'est pas une cause extérieure qui s'ajouterait aux causes physiques, c'est une finalité immanente qui n'est que l'expression de ces causes physico-chimiques mêmes, qui, à des degrés divers et avec des variations de complexité, se retrouvent à l'œuvre dans certains phénomènes physiques et chimiques qui présentent le caractère de système et de forme et qui se retrouvent pareillement dans l'organisme vivant qui présente le type de système le plus achevé.

La perpétuation du type biologique aux diverses étapes de son développement et au sein d'un milieu extérieur qui exerce des influences constantes, et le maintien d'un équilibre biologique à l'intérieur du système qu'est l'organisme vivant ne font pas que l'organisme puisse être considéré comme un système total et isolé. L'organisme fait partie d'un milieu plus large qui inclut le millieu extérieur avec lequel l'organisme a de constants échanges de matière et d'énergie. Considérer l'organisme comme un système isolé serait une abstraction qui sous prétexte de simplifier l'étude de son comportement aboutirait à des conclusions et à des résultats erronés. Ici, la méthode employée en physique et qui s'accomode d'une certaine simplification et fait abstraction de certains facteurs pour établir des lois mathématiques qui ne s'appliquent qu'à des cas théoriques et idéaux serait inadéquate. D'ailleurs les fonctions de l'organisme vivant, irritabilité, motilité et reproduction, le maintiennent en étroit rapport avec son milieu extérieur. Ces trois fonctions qui sont conditionnées dans une certaine mesure par le milieu extérieur, le sont surtout par un facteur d'ordre plus primitif qui se confond avec les besoins de l'organisme. Ces besoins organiques sont l'expression directe du milieu intérieurl. Le rôle du milieu intérieur, sur lequel Claude Bernard avait déjà particuliérement insisté, est dans la majorité des cas premier et initial, car c'est lui qui sensibilise l'organisme à l'égard du milieu extérieur. Cette priorité du milieu intérieur, comme la priorité de l'organisme à l'égard de ses parties constitutives sont la véritable clef pour la compréhension du comportement animal et humain.

C'est à cause des caractéristiques propres que présentent les échanges constants entre les deux milieux : rôle initiateur ou perturbateur du milieu interne, modes d'action et de réaction de l'organisme et des organes qui y sont intégrés, multiplicité d'aspects et variations du milieu extérieur, que les lois du comportement sont difficiles à établir. Il devient par conséquent malaisé, et dans bien des cas impossible, de prédire dans quelle direction se dérouleront les processus du comportement,

Cette identité dans l'altération, cette pérpétuation du type biologique à travers le changement, montrent la priorité de l'organisme sur les éléments qui le composent. Ces éléments acquièrent un mode spécial d'existence par leur intégration dans l'ensemble. Ce n'est pas la somme des éléments qui forme l'ensemble, mais c'est le tout qui organise les parties; et ce sont les relations internes qui existent entre ces éléments pris un à un et entre eux et l'organisme pris dans son ensemble qui font que tel organisme est ce qu'il est. Un élément séparé n'est plus le même que quand il était intégré dans le tout. L'organisme qui est ainsi une véritable structure et non un agrégat d'éléments satisfait à un haut degré aux critères de la Gestalt.[1] Non seulement il est plus et autre chose que la somme de ses parties, mais il est aussi transposable en ce sens qu'il conserve ses propriétés caractéristiques et expressives tout au cours de son développement et qu'il est relativement indépendant vis à vis des variations du milieu extérieur. La matière extérieure ingérée n'est pas simplement juxtaposée, mais elle est assimilée et modifiée non seulement en conformité avec sa nature propre, mais selon les besoins de l'organisme en vue du maintien de la structure et de la forme générales. Les moyens mis à contribution peuvent varier, mais la fin à réaliser reste la même et cette fin dépend stictement des besoins de l'organisme qui découlent de son organisation spécifique et des relations internes qui existent entre ses parties. Dans l'économie générale de l'organisme, le facteur final est un fait réel et il est agissant dans la mesure où l'on peut dire que les parties de l'organisme sont déterminées par l'ensemble. Si nous considérons, par exemple, le cas du développement embryonnaire et larvaire d'un animal jusqu'à l'étape de la reproduction, nous nous trouvons en présence d'une série d'étapes complétement différentes. L'état adulte se présente comme la fin vers laquelle tend le développement au moyen de ces diverses étapes successive. Ces moyens qui sont les étapes du développement sont en un sens déterminés par le tout qui est la formation de l'individu adulte. K. E. von Baer[2] comparait déjà, il y a plus d'un siecle, le développement de l'individu à une mélodie. De même que dans une mélodie, la conception du tout par le créateur de la mélodie est antérieure à celle des parties et détermine le choix de ces parties et de leur agencement dans un système d'influences réciproques; de même, l'état adulte d'un individu est un tout qui détermine les diverses phases du développement.

1. R. Malthæi. Das Gestaltproblem. München 1929.

2. Cité par F. Alverdes. The psychology of animals, p. 9. London 1932.

D'autre part, la méthode synthétique de Pavlow a eu aussi pour résultat d'exagérer le rôle des mécanismes réflexes dans les réactions motrices en les désintégrant du complexe total. Coghill insiste sur la prédominance du système total sur les parties qui le composent et se réfère aux travaux de R. Magnus[1] sur les réactions posturales de l'animal et où il démontre la subordination des réflexes à l'activité totale de l'organisme. Ce point a été aussi mis en lumière par M. Minkowski[2] dans ses études sur le développement des mouvements chez le foetus humain.

La subordination des parties au tout considéré dans son activité dynamique s'exprime aussi par la subordination des diverses fonctions à l'organisme pris dans son ensemble. H. Wallon[3] discutant la notion de fonction formule un jugement qui confirme et éclaire les résultats auxquels sont arrivés Coghill, Magnus, et Minkowski. "... La fonction est en elle-même une notion systématique et abstraite. Sans doute, elle offre en un sens plus de réalité que l'organe, puisqu'elle est sa raison d'être dynamique, son fondement et son explication biologiques. Par contre elle en a moins que l'organisme où elle se développe, car il répond à des nécessités particulières et à des formes déterminées d'existence, auxquelles elle reste subordonnée comme un élément dans l'ensemble. Le développement d'un être n'est pas celui de ses fonctions, mais celui de son type adulte" (p. 305).

*Maintien de l'identite à travers le changement.*— Un second caractère de l'organisme, étroitement lié à celui de l'individualité une et totale est celui de son opposition au monde extérieur. L'organisme a un dedans et un dehors, le dehors étant formé par tout ce qui constitue le milieu matériel externe. Quoiqu'il soit difficile de tracer la ligne de séparation entre l'organisme et son milieu, il n'en demeure pas moins que cette distinction existe. Certes, entre l'organisme et le milieu extérieur, il y a un échange continuel de matière et d'énergie, mais en dépit de ces échanges l'organisme se développe suivant les caractéristiques de son type morphologique et fonctionnel et demeure plus ou moins le même, et dans certaines limites, indépendamment des variations du milieu extérieur.

---

1. R. Magnus. Animal posture. Coronian Lectures. Rroc. Poy Soc. (B), 98 (B), 1925.

2. M. Minkowski. Sur les mouvements, les réflexes et les réactions musculaires du foetus humain de 2 à 5 mois et leurs relations avec le système nerveux foetal. Rev. Neur. Vol. 37, pp. 1105—1118, 1235—1250.

3. H. Wallon. Le problème biologique de la conscience. in Nouveau Traité de Psychologie par G. Dumas. Tome I, pp. 293—329. Cf. aussi H. Wallon, L'évolution psychologique de l'enfant. Paris, 1941.

système nerveux et de ses parties et celui du comportement. Ce dernier avec ses caractères typiques ne se présente pas tout d'abord d'une manière fragmentaire et désordonnée pour s'intégrer ensuite, mais it est l'expansion progressive d'une forme totale parfaitement intégrée dès le début et c'est au cours du développement que se produit l'individuation des structures partielles qui deviennent peu à peu et à des degrés différents discrets. Même avant l'apparition du système nerveux l'embryon est parfaitement intégré. Avant l'intégration due au système nerveux il existe un processus non-nerveux d'intégration. Ce processus se retrouve chez les organismes inférieurs qui ne possèdent pas de système nerveux. Ces organismes comme les organismes supérieurs présentent une propriété de polarisation. L'activité glandulaire et musculaire se fait dans certaines directions marquées par des axes physiologiques, des lignes de clivage. Cette notion de "gradients physiologiques" a été développée particulièrement par C. M. Child dans son ouvrage sur les fondements physiologiques du comportement.[1]

C'est ce principe de polarité que possède l'organisme et ses tissus qui rend l'animal capable de diriger ses forces de telle manière qu'il se place dans une relation appropriée avec son milieu. Cette polarité de l'animal, insiste Coghill, n'est pas simplement une affaire de différences stucturales ou physiologiques ordinaires entre les parties; elle est l'expression de forces en action, elle est, en un mot, dynamique.

C'est grâce à ce phénomène de polarisation axiale que les organismes inférieurs dépourvus de système nerveux présentent eux-aussi le caractère d'unité et d'intégration des organismes vivants en général. C'est aussi ce phénomène qui préside au développement du système nerveux comme il a présidé à celui des cellules glandulaires et musculaires au cours de l'évolution de l'espèce.

Ainsi le développement est commandé par une totalité qui présente dès le début un caractère d'intégration : la partie est toujours en relation avec le tout de telle sorte qu'à chaque étape de la croissance de l'individu nous avons affaire non à une somme arithmétique de parties anatomiques, mais à une unité organisée. Goghill dénonce comme démesurée l'importance accordée au réflexe. Les travaux de Sherrington et de ses collaborateurs, par leur méthode d'étude analytique, ont contribué à mettre le réflexe tellement en relief, que sa distinction et son autonomie ont été surestimées relativement au comportement typique pris comme un tout.

1. C. M. Child. Physiological foundations of behavior. New York 1929.

Les formes physiques satisfont ainsi au double critère qu'Ehrenfels[1] avait établi pour les mélodies et les figures : 1°) Une forme est autre chose ou quelque chose de plus que la somme de ses parties. 2°) Elle est transposable. A ces deux critères d'Ehrenfels, Köhler ajoute un troisième : Ce qui caractérise une collection sommative d'éléments c'est que ces éléments restent identiques à eux-mêmes et ne subissent aucune altération; tandis que dans une "Gestalt" les éléments qui la forment deviennent autres par leur intégration et par les relations qui découlent de cette intégration. Chaque élément est déterminé par sa place dans le tout et son déplacement modifie cet élément et les autres éléments du système.

Les propriétés que nous avons reconnues au système en général : propriétés de l'ensemble qui ne sont pas la somme des propriétés des parties, mais qui découlent des relations spéciales qui naissent de l'organisation de ces parties à l'intérieur du tout et ensuite la tendance que manifeste tout système à se conserver et à compenser les changements perturbateurs en vue du rétablissement de l'ancien équilibre ou d'un nouvel équilibre qui ne modifie pas l'aspect général du système dans le temps et dans l'espace, se retrouvent, mais avec une plus grande complexité, dans l'organisme vivant.

*L'organisme vivant; son caractère d'unité et d'intégration.*— L'organisme vivant présente par excellence la réalisation de la relation : pluralité dans l'unité. Les connexions qui existent entre les diverses parties de l'organisme, la subordination des parties au tout font qu'on a affaire à un individu, c'est-à-dire à un tout ou à une unité qui ne peut se fragmenter ni se diviser sans perdre son caractère spécifique. Ces connexions des diverses parties entre elles sont à la fois d'ordre structural et fonctionnel. Dans les organismes suffisamment évolués, la totalité est réalisée par le système nerveux. Ce point a été mis en lumière par les travaux de Sherrington[2] et mis à contribution par les théoriciens de l'école organiciste.[3] Dans son étude sur le développement de *l'amblystoma*, Coghill[4] a montré l'étroite corrélation qui s'établit entre le développement du

---

1. Ch. v. Ehrenfels, Ueber Gestaltqualitäten. Viert. f. wiss Phil., 1890, p. 249—292.
2. Ch. Sherrington. The integrative action of the nervous system. 1911.
3. W. E. Ritter. The unity of the organism. 1919.—Uue bibliographie étendue des travaux de l'école organiciste moderne est donnée par W. M. Wheeler dans son livre : "Emergent Evolution and the development of societies". 1928.
4. G. E. Coghill. Anatomy and the problem of behavior. 1929 Cf. Youssef Mourad. L'Eveil de l'Intelligence, Paris 1939, pp. 90—98.

changements internes peuvent se produire, mais sous ces changements la permanence du tout doit être sauvegardée sinon le système est détruit. Il faut que les relations fondamentales qui maintiennent l'unité du système ne soit pas altérées en dépit des changements internes, et c'est dans cette mesure qu'on peut parler d'un système qui reste le même dans le temps et dans l'espace. La nature inorganique présente des cas où les relations internes qui existent entre les parties du système soient telles que toute menace de changement est suivi automatiquement par des changements de compensation qui tendent à conserver constant le système menacé et ce dans certaines conditions de température et de pression.

Mais cette tendance à la conservation n'est pas la propriété fondamentale que présente un système, ce n'est qu'une propriété dérivée. Si grâce aux relations internes que soutiennent entre eux les éléments du système, celui-ci se maintient en équilibre avec le minimum de dépense d'énergie, les éléments à leur tour sont modifiés par leur position à l'intérieur du système. Si ces éléments sont isolables logiquement, ils ne peuvent l'être en fait, sinon l'intégrité du système est menacée. Non seulement la soustraction d'un ou de plusieurs éléments, détruit le système, mais certains déplacements partielsy suffisent. Le système ne peut donc être considéré comme une sommation de parties discrètes, il présente de nouvelles propriétés qui ne peuvent s'expliquer par la propriété de chacun de ses éléments et qui sont dues à l'organisation des éléments et à leur mode de connexion à l'intérieur du système. La notion de système se rapproche ainsi de celle de la forme telle que l'entendent les Gestaltistes. Köhler[1] a étudié de près la propriété des systèmes physiques en équilibre. Il a démontré qu'il existe des faits physiques qui présentent les caractères des formes telles qu'elles sont définies dans la psychologie de l'école. Ces systèmes physiques manifestent des propriétés d'ensemble qui contrastent avec les propriétés des parties. Ils sont plus que la somme de leurs parties et ne sont pas additifs. De plus, ils sont transposables, c'est à dire que les propriétés du tout sont indépendantes de la matière particulière qui le composent et des valeurs quantitatives qui sont en jeu, tant que les relations nécessaires à la formation du système subsistent.

1. Cf. à ce sujet l'ouvrage de W. Köhler : Die physischen Gestalten in Ruhe und im stationören Zustand, Eine naturphilosophische Untersuchung, Erlangen, 1920. Un résumé détaillé de cet ouvrage a paru en anglais dans l'ouvrage de W. D. Ellis, A source book of Gestalt Psychology. Kegan Paul, London 1938.

dans leurs études l'importance qu'il mérite, et sa signification profonde a échappé à une méthode exclusive et systématique d'analyse.

Pour ne pas maintenir une coupure trop tranchée entre le monde inorganique et le monde organique, on a cherché à établir plutôt les propriétés communes à ces deux mondes. L'observation courante a toujours constaté la communauté de certaines propriétés telles que l'inertie, la solidité, la pesanteur. Ces propriétés générales de la matière ont justifié aux yeux des mécanistes l'application universalisée des lois physico-chimiques, telles qu'elles ont été établies par la méthode analytique, à tous les faits de la nature. Mais de bonne heure, la biologie a reconnu à l'organisme vivant des propriétés d'ensemble que l'analyse faisait disparaître, mais qui ne s'imposaient pas moins à l'observation du savant. Les notions de système, de forme, de tension, de dynamisme auxquelles ont eu recours philosophes et savants exprimaient d'une manière plus ou moins claire l'existence de ces propriétés qui résistaient à toute analyse.

Mais l'observation de certains faits physiques a montré que l'organisation n'est pas une propriétés des seuls êtres vivants, mais qu'elle se retrouve dans la nature entière, à diverses échelles et avec plus ou moins de complexité. Non seulement en chimie, mais en physique aussi on rencontre des systèmes qui présentent de grandes analogies avec les systèmes vivants. Mais il convient de faire remarquer que cette similitude qui rend plus grande la continuité entre le monde inorganique et le monde organique ne doit pas détruire l'autonomie relative de chacune des sciences de la nature; elle contribuera tout au moins à donner un fondement plus large et plus stable aux recherches biologiques et psychologiques qui concurremment avec la méthode analytique tendront à donner une description aussi complète que possible et un commencement d'explication des manifestations de la vie et du comportement, prises dans leur ensemble.

Avant de traiter de l'organisme vivant et de ses propriétés intrinséques, nous dirons quelques mots de la notion de système en général. Un système peut être défini comme une unité ou un tout, formé de plusieurs parties; mais ces diverses parties considérés comme un tout ne constituent de véritable système qu'à la condition qu'il existe entre elles des relations internes et réciproques. Nous avons d'une part les éléments, puis les relations reciproques que soutiennent entre eux les éléments, enfin le tout; un système présente ainsi le caractère de la pluralité dans l'unité. Ces relations internes peuvent présenter de nombreuses variétés, peuvent être plus ou moins complexes, plus ou moins stables. Des

Bergson, entéléchie pour Driesch, hormé pour Mac Dougall. Les vitalistes méthodologiques rejettent et critiquent vivement de pareilles entités et préfèrent laisser en suspens le problème de l'explication totale pour se contenter de décrire les faits vitaux en tenant compte de leur spécificité et de leurs qualités d'ensemble. Ils soutiennent que les faits d'autorégulation et d'adaptation ne peuvent être expliqués par les principes mécanistes et préfèrent considérer que le facteur essentiel des phénomènes vitaux est encore inconnu.

Cette attitude nous met sur la voie d'une véritable solution et le dilemme vitalisme-mécanisme sera levé si l'on assigne à chacune des sciences naturelles son objet propre d'étude. Le savant d'une manière générale cherche à décrire et à expliquer la nature en montrant les multiples relations que soutiennent entre elles les diverses conditions des phénomènes. Sa principale préoccupation est de prédire et de contrôler les faits et les processus naturels. Mais ces faits ne se présentent pas sous le même angle en physique, en chimie et en biologie. La science physique ne peut pas s'ériger en science universelle sous prétexte que les composants des corps inertes et vivants sont en dernière analyse les mêmes. De même toutes les lois physiques ne peuvent être appliquées telles quelles aux phénomènes chimique et biologiques, Il y a des lois scientifiques d'une portée générale qui marquent l'interdépendance des trois grandes sciences qui constituent le groupe des sciences naturelles, mais à l'intérieur de ce groupe chaque science a droit à une certaine autonomie et peut faire appel à des concepts propres pour rendre raison de certains faits spécifiques. Les concepts d'individualité. d'organisation, d'autorégulation, d'adaptation et enfin d'intégration sont fondamentaux en biologie, alors qu'ils sont de moindre importance en physique ou en chimie. Le point important qui mérite d'être souligné et qui légitime l'autonomie dont doit jouir la biologie est que l'organisme vivant est un système dynamique qui tend à se maintenir dans un milieu. Une méthode saine pour une science compréhensive du comportement de l'être vivant, animal et homme, doit être établie d'après les caractéristiques propres du système vivant et ce sont ces caractéristiques qui doivent tout d'abord être mis en lumière.

*Système et Forme.* — Les notions d'organisme et d'organisation impliquent l'existence d'un certain ordre, d'un certain nombre de relations internes qui concourent à la réalisation du tout. Ce caractère d'organisation que possède l'être vivant a toujours été reconnu et n'a jamais fait l'objet d'un doute; seulement certains savants ne lui ont pas accordé

est la physique et que par conséquent les lois de la physique doivent être appliquées à tous les phénomènes de la nature, y compris les phénomènes vivants. La biologie et la psychologie ne seraient que des subdivisions de la physique. Beaucoup de biologistes, sans nier la valeur des lois physico-chimiques pour l'explication des faits organiques isolés, considèrent pourtant que l'analyse physico-chimique ne suffit pas pour résoudre le problème fondamental de la nature des processus organiques. Cette méthode analytique est de même impuissante à expliquer d'une manière satisfaisante les réactions motrices qui s'intègrent dans un comportement qui se déroule dans un temps plus ou moins long et qui est marqué par des étapes successives qui se soutiennent et s'appellent mutuellement. L'apparition de la vie fait émerger de nouvelles qualités et de nouvelles organisations qui exigent une nouvelle méthode d'investigation. Cette nouvelle méthode demeure basée sur l'observation et l'expérimentation, mais sur le terrain biologique et celui du comportement l'observation et l'expérimentation n'ont plus affaire à des faits qui peuvent s'isoler et se fragmenter sans perdre leur qualifications, mais à des touts organisés, et l'observation ainsi que l'expérimentation constatent des phénomènes étrangers en apparence au monde physico-chimique tels que les tendances, les besoins, la recherche, consciente ou non, peu importe, d'une fin. Alors que la physique étudie des phénomènes de masse par des procédés quantitatifs et statistiques, la biologie a pour objet d'étudier des individus organisés, des systèmes vivants partiellement autonomes et qui possèdent une histoire. Il est vrai que dans les faits physiques se rencontrent des unités qui ont leur organisation propre, mais ces unités échappent vu leur petitesse à l'analyse quantitative. Mais quand le physicien s'attache spécialement à l'étude de ces unités, il ne peut s'empêcher souvent d'élargir la terminologie mécaniste et de faire appel à des notions qui sont propres à l'étude de l'être vivant, telles que celles d'individualité, de tendance et d'autorégulation. Nous verrons plus loin que la notion de système avec ses qualités propres d'unité et d'organisation interne, trouve aussi place dans les conceptions physiques.

Le vitalisme, qui dénonce l'étroitesse de vue des explications mécanistes, se présente sous deux aspects différents dès qu'il s'agit de remplacer l'explication mécaniste par une autre plus adéquate aux phénomènes vivants. Ces deux aspects sont l'un positif et l'autre méthodologique. Le point de vue positif postule l'existence d'une entité extra-spatiale qui s'ajouterait à la causalité mécaniste pour la compléter et la diriger. Cette entité reçoit des noms différents selon les auteurs : élan vital pour

# Structure fondamentale de l'organisme vivant

par

YOUSSEF MOURAD

Parmi les problèmes fondamentaux qui s'imposent à l'attention du psychologue, il en est un qui ne cesse de faire l'objet de nombreuses controverses : c'est celui de la méthode. L'idéal du savant et du philosophe a toujours été de formuler les règles d'une méthode universelle s'appliquant à l'étude de tous les faits naturels. Dans les sciences physiques et chimiques, les progrès réalisés militent d'une manière péremptoire en faveur de la méthode d'analyse expérimentale. Cette méthode a été appliquée à la Biologie et à la Psychologie et elle a donné de nombreux résultats partiels. Mais si la méthode expérimentale est indéniablement la seule méthode scientifique, son application à des domaines variés soulèvent de nombreuses difficultés. En passant des sciences physico-chimiques aux sciences biologiques, un nouveau phénomène apparaît, celui de la vie et de l'organisation de l'être vivant. Il s'agit alors de savoir dans quelle mesure les manifestations vitales sont réductibles à des phénomènes physico-chimiques[1] et si le mécanisme avec ses procédés analytiques suffit pour expliquer les faits biologiques et le comportement total de l'être vivant. Le vieux conflit entre le mécanisme d'une part et le vitalisme et le finalisme d'autre part est toujours pendant. Les tenants des deux doctrines opposées se réclament tous deux de la méthode expérimentale. Ce conflit ne tient pas seulement à une question de sentiment et d'appréciation subjective comme le soutient E. Rabaud[2]. Nous estimons que le point de vue finaliste mérite d'être considéré et discuté. Il est vrai que les termes de mécanisme, vitalisme, finalisme, volontarisme, etc . . ., présentent des acceptions diverses et nuancées et leur emploi systématique contribue souvent à obscurcir le débat. Les deux thèses opposées, formulées brutalement sous la forme d'un dilemme, sont certainement inconciliables et l'acceptation de l'une entraîne forcément le rejet de l'autre.

Les mécanistes professent que le type achevé des sciences de la nature

1. Un bon guide dans l'étude de ce problème est l'ouvrage magistral de J. Lefèvre. Manuel critique de Biologie, 1048 pages ; Masson, Paris 1938,

2. E. Rabaud : "Psychologie animale et finalité". Journal de Psychologie, 34ème année, 1937, pp. 305—323.

The former, who occupied a prominent place in the court life of the later Umayyad Khalifs (c. A.D. 700-750) was a great opponent of the Iconoclastic movement which had broken out in the Byzantine Empire, and wrote three books against it. But although he also wrote against Islam, he never accuses the Muslims of being guilty in this respect, but only the Christians and Jews. On the other hand Theodore Abu Qurra, Bishop of Harran, who was a contemporary of Harun ar-Rashid and al-Ma'mun and the first Father of the Church to write in Arabic, actually does include the Muslims amongst the people opposed to painting.

Dr. Zaky Hasan says that Abu Qurra "could judge the Muslims by what they said in their books, and not merely by what they practised — No wonder he was better acquainted than his master with the attitude of Islam towards pictorial art". This argument wont hold for a moment, for John knew what the Muslims wrote every bit as well as Theodore, for, as Becker points out, his quotations from the Quràn in Greek are sometimes almost literal translations of the original, and he even gives the actual names of the suras when citing them.

All this indirect contemporary evidence is so consistent that I feel bound to accept it in the absence of any contemporay evidence to the contrary.

*K.A C. Creswell.*

# Note on the Attitde of Islam Towards Painting

by

K. A. C. Creswell

---

Dr. Zaky Hasan has very kindly suggested that I should defend my point of view in a note to follow his paper on "The Attitude of Islam Towards Painting."

I am very glad to avail myself of this opportunity. First of all I would like to emphasize the fact that we have no contemporary evidence to show that the prohibition against painting goes back to a period earlier than the end of the eighth century A.D. Against this we have contemporary indirect evidence of great importance.

1) The statement of Azraqi that Muhammad, on entering the Kaba after the capture of Mekka gave orders that the picture of Mary with Jesus on her lap was not to be rubbed out. This early evidence cannot be set aside merely by refusing to believe it.

2) The fact that Sa'd ibn Abi Waqqas and his Arabs, after the capture of al-Madain or Ctesiphon, used the great Iwan for the Friday prayer and were not disturbed by the paintings of the siege of Antioch which decorated it, cannot be explained away as due to lack of time, the victorious troops being in a hurry to celebrate their great victory, for these paintings were allowed to remain for long after, and were seen by al-Buhturi who died in A.D. 897.

3) The only instance cited of an Umayyad Khalif objecting to a painting is the case in which Umar ibn Abd al-Aziz expressed his indignation at a painting in a bath. I suggest that this painting was most probably pornographic, as was often the case in *hammâms* (e.g. al-Ghuzuli, *Matali' al-Budur*, Cairo 1300 H., II, p, 8., Ibn al-Hagg, *Madkhal*, Cairo, 1348 H., II. pp. 178-9, and that this was the real cause of Omar's anger.

4) Dr. Zaky Hasan says that the attitude of a dynasty like the Umayyds towards painting is no test of the real feelings of Islam at the time. To which I reply, let us leave this dynasty for a moment and consider the fact that the most rigid Khalif of all — 'Umar I — used a censer with human figures on it, to perfume the Mosque of Madina, and that it was only in A.D. 785 that a Goveunor of Madina had these figures removed (Ibn Rusta, p, 66, ll. 15-19). This hardening of opinion towards the end of the eight century is in perfect keeping with what we learn from John of Damascus and Theodore Abu Qurra.

Thus we come to the conclusion that pictorial art, in its different forms was disliked in the Prophet's time. The theologians, however, may have exagerated in putting into Muhammad's mouth, these traditions which mean strict and absolute prohibition. On the other hand, we do not believe that the objection to pictorial art was meant to be general. In fact it is not a part of the Muslim credo.[1] Further, the fundamental cause of that objection is the horror of idolatry and the suspicion with which a statue or a picture was regarded "through apprehension of the possible influence it might exercise on the faithful by leading them astray into the heresy most abhorred by Muslim theolgians, *shirk*, or the giving a partner to God."[2] It cannot be meant for all times and circumstances especially when Muslims get far away from the pagan life of Pre-Islam and when they become a powerful nation full of confidence in their faith and power, and lastly when picture-making proves to have so many scientific and artistic uses which nobody can deny.

*Zaky M. Hassan*

---

1. We must recall that the Koran does not prohibit pictorial art. Professor Creswell did not not do Ali al 'Enani justice in writing that he—Enani—suggested that Quran II, 92, contains such a prohibition. He translated that verse as, "Oh. ihr, die ihr glaubt, siehe der Wein, das Spiel, die Bilder und die Pfeile sind ein Greuel von Satans Work. Meidet sie." Dr. Enani has actualy translated the word *Ansab* into "Bilder" which means "images", but he explained it in detail and asserted that he meant paintings and statues which were deified or used as good omens. He even says expressly that the Koran does not prohibit any other images except those. He mentions that Solomon was allowed to use pictures and statues for reasonable ends. See A. Enani : *Beurteilung der Bilderfrage im Islam nach der Ansicht eines Muslim*" pp 9—10 and especialy p. 10, lines 10—16.

2. Th. Arnold, *op. cit.* pp 10—11.

Nielsen thinks even that it is in Northern Arabia and not in Southern Arabia that the representation of Gods in images was known.

"Die bildliche Darstellung von Göttern in der religiösen Kunst kommt im Heidentum nur in Nordarabien als nordsemitische Entlehnung vor und hört mit dem Bilderverbot im Islam völlig auf[1]".

Wellhausen mentioned that the Arabs used to engrave some of the holy stones in order to create a similarity between them and human beings. "Manche (Steine) sind etwas bearbeitet, indem eine natürlichen Ähnlichkeit etwa mit einem Menschenhaupte, durch Kunst nachgeholfen ist, wie Dhul Chalaça und al Galsad. Sie machen den Übergang zu eigenlichen Bildern. Diese hat man von den Steinen wohl zu unterscheiden[2].

H) Again it is thought that the Prophet could not have had an intolerent attitude towards figured art, if we Judge by a conversation between his wives sitting round his bed during his last illness. Two of the Prophet's wives, Umm Salamah and Umm Habîba had been to Abyssinia. They spoke of a church, St Mary's, which they had seen there and praised its beauty and the splendour of its pictures.

In fact Ibn Sa'd's text on that subject does not show that Muhammad shared his wives' enthusiasm for those pictures. This author, who died about 844 A.D. states expressly that the Prophet Joined in the conversation and said : "It is the custom of these Abyssians, when one of their holy men dies, to build a house of prayer over his tomb, and paint such pictures in it. Such people are most wicked in the sight of God[3]."

I) Finally, we cannot say that there was no objection to pictorial art in Early Islam, simply because of the many figured objects of art and paintings which we know of the Umayyad period. In fact the theological objection to paintings and statues is a defenite thing, while the attitude of certain persons toward that objection is absolutely something else. Many a thing had been prohibited by the Koran but was practised by the Umayyad Caliphs and by many Muslims of their time, We do not expect anybody to hold that wine was not prohibited by Islam, simply because some Umayyad Caliphs and other Muslims used to drink it in Early Islam.

***

1. *ibid* p. 187; cf. also pp 201,231.
2. J. Wellausen, *op. cit.* p 102.
3. Cf. Th. Arnold, *op. cit.* pp 6—7 and Creswell, *op. cit.* pp 270 and Ibn Sa'd; *Biographien* Vol 2 p 34.

to practise idolatry, these two images were among the idols which they worshipped."[1]

Moreover, the Arabic lexicographers and writers differed in opinion about the defenition of "Asnâm" in a way bearing witness to their having known real statues as well as natural idols. "Some of them said that idolized pieces of stone are "Ansâb". If real statues, they are "Asnâm" and "Awthân." Others said that idols made of wood, gold or silver in in the form of human beings are "Asnam"; if made of stone, they are "Awthân"[2]

In a verse of the thirty-seventh sura of the Koran, mention is made of carving. The following is releted of Abraham when his tribesmen came back to him with hasty steps he said, "Worship ye what ye carve when God hath created you and that ye make ?"[3]

We have also to mention what the Arab historians and learned men of the "*Hadith*" reported about the 360 images found in the Kaaba when Mekka was conquered by the Prophet. If we admit that there was not enough place in that temple for such a big number of idols, it is nevertheless true that the Kaaba contained many idols for different Arab tribes. At least many of these idols are spoken of by historians as having eyes and faces.[4]

There is no doubt that the Arabs knew real statues before the Muslim Conquests[5]. They ascribed their introduction into Hijaz to Amr ibn Lohay who brought the first statues from Palestine and put them round the Kaaba[6].

We should bear in mind, moreover, that many of the Arabs of the Hijaz before Islam were familiar with Syria and Yemen. They used to carry goods and conduct caravans between the north and south parts of the peninsula[7].

---

1. *ibid* pp 9, 29 ; cf. J. Wellhausen, *op. cit.* p 77 ; Azraqî *op. cit.* pp 44,45,69—71.

2. Ibn al-Kalbi *ibid* pp 33,53 ; Ahmad Taymur (ed. Zaky M. Hassan) : *Al-Taswîr 'end al-'Arab* pp 43—49 ; cf. J. Wellhausen, *op. cit.* p 102.

3. J. M. Rodwell : *The Koran translated from the Arabic* p 82.

4. Ibn al-Kalbi, *op. cit.* p 31, Azraqi, *op. cit.* p 71 ; Ph. Hitti, *History of the Arabs* (2d ed.) p 100.

5. Mordtmann, Müller and Nielsen mention the two antelope golden statues which 'Abd al Muttalib found when he dug out Zamzam, the famous well. See J. H. Mordtmann and D. H. Müller, *Sabäische Denkmäler* (Wien 1883) p 10 and D. Nielsen, *op. cit.* p 237. See also J. Wellhausen, *op. cit.* p 76.

6. Ibn al-Kalbi *po. cit.* p 8 ; cf. J. Wellhausen, *op. cit.* p 72.

7. D. Nielsen, *op. cit.* pp 110 sqq.

Wherever the traveller took up his quarters or pitched his tent, he used to put down the stone from the Ka'ba and walk round it as he used to walk round the Kaaba itself[1]. Some of these stones were a cubic piece of rock like "Al-Lat"[2], or a slab of white stone like "dhi al-Khalasa[3], or a long piece of rock like "Sa'd"[4] or a protuberation in the mountain resembling a human figure like "al-Fals."[5] The pre-islamic Arabs used also to worship some houses as they used to worship the Kaaba in Mekka. Among such houses there are "Riam"[6] in San'a, the kaaba of Bani al-Hārith ibn Ka'b in Nagran,[7] the kaaba of Iyad between Kufa and Basra[8] and the church of al-Qalis[9] in San'a.

But it is incorrect to assume that the pre-islamic Arabs did not know any graven images except in the outskirts of the peninsula. The old Arab historians, and specially Ibn al-Kalbi[10] († 204 A.H, 819 A.D) mentioned among the idols worshipped by the Arabs, some statues resembling human figures, in the Hijaz and in the Kaaba itself. Among these images is "Hobal," "which was of red chalcedony, having the figure of a human being with a broken right hand. When the tribe of Quraish planted itself in this region, they made him a golden hand"[11] The Kalbites in Daumat al-Djandal used to worship "Wadd", which was the statue of a powerful man armed to the teeth[12].

Among such images there are also Isaf and "Na'ila". They are thought to have been originally a man and a woman of the tribe of "Jurhum." They entered once the Kaaba and, seizing the opportinity of nobody watching them, they were guilty of misconduct. They were metamorphosed into two stones, which the Arabs placed near the Kaaba as a bad example and a warning to anybody who failed to respect the holy temple. They remained a long time there, and when the Arabs began

---

1. Ibn al-Kalbi : *kitâb al-Asnâm* (2nd ed.) p 6.
2. *ibid* p 16.
3. *ibid* p 34. See also D. Nielsen, *Handbuch der Altarabischen Altertumskunde* p 231.
4. Ibn al-Kalbi : *ibid* pp 36—37.
5. *ibid* p 59.
6. *ibid* pp 11—12.
7. *ibid* pp 44—45.
8. *ibid* p 45.
9. *ibid* p 46.
10. Cf. J. Wellhausen : *Reste Arabischen Heidentums* (2e ed. Berlin 1927) pp 10—13.
11. Ibn al-Kalbi : *ibid* p. 28 ; cf. J. Wellhausen, *op. cit.* p 75, Azraqi, *op. cit.* pp 69.
12) Ibn al-Kalbi, *ibid* pp 10,56.

qoranique il designe non — comme plus tard — les images, mais les formes extérieures, les dimensions géométriques des corps. Comment expliquer cette attitude, cette indifférence de Mahomet à l'endroit des idoles ? Par la nature spéciale du polythéisme à son époque et dans son Arabie à lui, celle du Higaz et du Nagd limitrophe, à l'exclusion du Yemen, de l'ancienne Nabateé et des cantons soumis à l'influence des régions syro-mésopotamiennes. La religion preislamite de la Péninsule, ainsi délimiteé relève entièrement du fétichisme. C'est un culte à l'usage des Bedouins — race médiocrement religieuse — culte d'origine nomade, même lorsque — c'était le cas pour la Ka'ba — le centre se trouve fixé dans une agglomération citadine. Ce culte sans temple, sans liturgie, sans hiérarchie proprement dite, ne fabrique pas ses dieux : il les rencontre dans la nature. Au lieu d'effigies divines, il honore les pierres et sous les formes les plus variées, rochers, blocs erratiques, stèles, obélisques . . . . . Toutes les anciennes idoles plus ou moins historiques : Manat, Al-Lat, Ozza, Dou'l Halasa, Fals, Sa'd, Oqaisir etc., appartiennent à la catégorie des *acheropita,* pour me servir de ce terme emprunté à l'archéologie chretienne : pierres brutes, protubérances rocheuses, blocs tenant encore au sol, bizarrement corrodés par les agents atmosphériques et où, avec de l'imagination, on croyait parfois découvrir de vagues linéaments humains"[1]

When Profesor Creswell read the argunents which we give in this article, he wrote to me." In the time of Muhammed this question (horror of paganism and idolatry, and fear that the Arabs might return to the cult which was prevailing among them before Islam) did not arise. It is very doubtful if any 'graven images' existed in the Hijaz, for the Arabs practised litholatry, worship of shapeless pieces of stone. When the Muslims got far away from the pagan (i.e. litholatry) life, they found themselves in countries where there were statues in public places in the cities. It was then that the danger began, not before, in Arabia, where lumps of stone, because of their bizarre form or meteoric origin were revered."

We think, however, that this argument is miscalculated. It is true that the Arabs worshipped stones before Islam. Ibn al-Kalbi wrote that this litholatry originated in an old Arabian immemorial usage: no traveller left Mekka without carrying with him a stone from the Kaaba, as a token of reverence to the House of the Gods and of love for the Holy city.

1. Lammens, *L'attitude de l'Islam* . . . . . pp 242—244.

that he who paints anything living, will be compelled on the Day of Resurrection to breath into it a soul." Lammens pointed out to Professor Creswell that although the Muslims were not actually named "la citation presque verbale du *ḥadith* musulman prouvent qu'ils sont visés, et de plus que le *ḥadith* en question était déja en circulation parmi les musulmans au temps d'Abou Qurra". Professor Creswell concludes that the iconoclastic movement in Islam may be placed towards the latter part of the eighth century.

We can hardly accept this proof. We think that if John of Damascus did not mention that statues and paintings were forbidden in Islam it is because he lived in Syria and saw the Umayyad Castles decorated with paintings and various objects of art. But we know that the Umayyad Caliphs did not keep on the straight and narrow way in matters of religion. The only one of them who is known to have kept in the right path is the Caliph Omar ibn Abd al-'Azîz. We read in his biography a story which shows to what extent he hated painters and paintings. Ibn al-Jawzî (+ 1200 A.D.), the biographer of this pious Caliph wrote :

"Hussein ibn Wardan related to us that 'Omar ibn Abd al 'Aziz passed by a bath having a picture. He had it rubbed out and exclaimed. "If I could only find out who painted it, I would have him well-beaten[2]".

Abu Qurra, on the other hand, got in touch with the Jurists of Iraq. He knew Arabic well[3] and could Judge the Moslims by what he read in their books and not only by what they practised. No wonder that he was better acquainted than his master John of Damascus with the attitude of Islam towards pictorial art.

7) P. Lammens and Professer Creswell draw an inference that images were not prohibited in the Prophet's time from the fact that Arabs in the Hijaz did not know any graven images at that early time of Islam. "Un seul texte (Qoran, 22, 31) nous laisse en suspens". wrote P. Lammens. "Il recommande d'éviter l'impureté des awthan. Faut-il comprendre images ou fétiches, le terme *awthan* comportant cette double signification ? Idoles ou fétiches, la Qoran n'en interdit nulle part la fabrication, parce que, nous le verrons tantôt, cette interdiction n'avait pas de sens en Arabie. Quant à la peinture, le recueil n'y fait jamais une allusion explicite. On y rencontre bien le terme *soura*, mais dans la langue

---

1. Creswell : *ibid* pp 270—271.

2. Ibn al-Jawzi, *Sirat Omar ibn Abd al-'Azîz p 80, cf.* Arnold : *op. cit.* p 46.

3. See C. Brockelman, F. N. Finck J. Leipoldt und E. Littmann. *Geschichte der Christlichen Literaturen des Orients* p. 68.

We do not want to deal here with other coins and medals bearing effigies which were struck by some Ābbasid Caliphs and by princes belonging to dynasties of Turkoman origin. Mention may be made of a medal bearing on one side the effigy of the Caliph Mutawakkil and on the other a man leading a camel. On another medal the Caliph Muqtadir is represented with a cup of wine in his right hand and a weapon in his left. On the obverse is a musician playing a lute. On a third medal, the caliph Muti' is represented "holding a wine-cup in his hand, with an attendant on either side of him, one holding a musical instrument, the other a cloth with which to drive away flies, on the obverse is a musician playing a five-stringed bute[1]." Coins struck for Saladin in northern Mesopotamia bear his effigy sitting on the throne[2].

6) P. Lammens and Professor Creswell use a further argument to prove that Early Islam was not uniformly hostile to all representation of living forms[3], This is that John, Patriarch of Damascus did not mention the Muslims amongst the enemies of images. John was one of the Bani Sardjoun Christian family who served the Umayyads in financial administration more than half a century[4], He was a boon companion of the Caliph Yazid II, but he lived long after him, and retired to lead a solitary life in one of the monasteries of Damascus. He gave himself up entirely to writing polemic works on the superiority of Christianity to other religions until he died in 754 A.D. It is known that John was one of the most bitter adversaries of iconoclasm. It is argued that had he known that the Muslims were iconoclasts, he would never have failed to mention it and attack them in that field.

On the other hand, one of his disciples in the monastry to which he retired in Damascus, won great fame and had the apportunity, fifty years after his master's death to state that Moslims did forbid painting and sculpture. His name is Theodore Abu Qurra. He lived long enough to become a contemporary of Harûn al-Rashîd and al-Mamun, and was the first father of the Church to write in Arabic. He was also a bitter enemy of the iconoclasts. Abu Qurra did not actually mention the Moslims in connection with iconoclasm, but wrote of "those who assert

1. Arnold, *op. cit* pp 125—126.

2. See Hautecœur et Wiet, *Les Mosquées du Caire* pp 176-177.

3. See Lammems, *L'Attitude de l'Islam primitif en face des arts figurés* pp 267 and sqq. and Creswell, *op. cit.* p 270.

4. See H. Lammens, *Etude sur le Règne du Calife Omayade Moawiya 1er* pp 384 sqq.

4) Neither can we deduce that there was no condemnation of pictorial art in Early Islam from the fact that some Companions of Muhammad and other Moslims felt no hesitation in retaining in their posession woven stuffs and vessels decorated with figures of men and animals[1]. In fact they were eager to make use of these stuffs and vessels, and they were not responsible for their images. Further. it is recorded that some of those Moslims destroyed the images and that some of the stuffs were devided between the 'Faithful' in such a way as to deform the ensemble of their pictures. This was the case with the famous carpet of Kisra, which the Caliph Omar distributed among Moslims[2].

5) A further argument of those who hold that there was no theological objection to pictorial art in Early Islam is that some Arabic coins had figures and drawings. Maqrizî mentioned in his treatise about Muslim coinage tht Mu'awiya struck dinars on which there was a figure girt with a sword[3]. We do not know of any of these coins to-day, but a number of coins with the effigy of Abd al-Malik have been preserved. The Caliph is represented holding a sword in his right hand[4].

But we do not think that this argument is solid. In fact it is not safe at all to consider the Umayyad Caliphs as authorties in theological subjects. They were far from being model Moslims from the religious point of view. Moreover, such figures on coins were, most probably, not intended to be actual portraits. As Professor Arnold suggested, they were merely a modification of the design which portrayed the Emperor on the Byzantine coins to which the inhabitants of Syria, Palestine and Egypt had been accustomed under the old regime[5]. But this transitional concession to the popular conception of current coinage did not last long. Maqrizî adds that the companions of the Prophet did not object to anything in those new coins except to the figures on them[6]. Later on, about 696 A.D. Abd al-Malik struck new coinage without any pictorial representation.

---

1. See Arnold : *op. cit.* pp 7—8.
2. Tabarî Vol 4 pp 178—178.
3. See *An-Nuqûd al-'Arabiyeh wa 'Ilm an-Mummiyat ou Monnaies Arabes et Numismatique d'après les Meilleurs Auteurs de Langue Arabe* par le P. Anastase-Masie de St. Elie (Cairo 1939) p 33. Professor Creswell (*op. cit.* p 95 writes that Muawiya himself was represented on these dinars. Silvestre de Sacy (*Bibliothèque des Arabisant Français*, t. I p 19) wrote : "Moavia fit encore frapper des dinars sur lesquels il était représenté ceint d'une épée."
4. See Th. Arnold, *op. cit.* p 123 and Creswell, *op. cit.* pp 95—96.
5. *Ibidem.*
6. P. Anatsase-Marie de St-Elie : *op. cit.* p 34.

the figures of men and horses. He did not even touch them. Neither he nor his troops refrained from holding the prayer in that palace because of these figures[1].

This does not prove, however, that there was no objection to pictorial art in Early Islam. If we admit what Tabarî wrote, we can explain it by the fact that Sa'd ibn Abî Waqqâs and his troops were deeply moved at their great victory in capturing the capital of Iran. They, also, had such great confidence in themselves and in their faith. The first thing they did was to hold prayer in the greatest building of the captured city. So anxious they were that they did not care to remove or obliterate the paintings which decorated Khosrau's Iwan. These images did not expose Muslims to danger, because these had not been acquainted with them before Islam and because they had not been worshipped by the Persians. Besides, the Moslems themselves were not in any way responsible for those images.

We cannot refrain from pointing out that victorious armies do not always act according to religious princples.

Some of the paintings in Iwan Kisra survived up to Buhturî's time. This poet, who died in 284 A.H. (897 A.D.) mentions them in his famous poem about that palace of the Sasanian kings. The description of the painting, which represented the fighting between the Persians and the Romans at the siege of Antioch by Anushirwan in 538, is as follows :

> When I saw the picture of Antioch, I stood in awe of the multitudes of Romans and Persians,
>
> With death overhanging and Anushirwan pushing the columns under the large standard
>
> Having a haughty deportment and dressed in green, yellow and red
>
> And the fighting of men before him all quiet and without the least noise,
>
> Some worrior charging with his spear
>
> And another protecting himself with his shield,
>
> They appear life-like and seem to have between each other signs like those of the dumb.
>
> I could not believe that they were merely pictured before I felt them with my hands.

1. See Tabari ( Cairo ed. ) Vol 4 pp 173—174 ; Th. Arnold : *op. cit.* p 8 ; Creswell : *op. cit.* pp 15,270.

picture perished in the fire which destroyed the Kaaba. We think it more probable that the picture was obliterated at the same time as all other images in the Kaaba[1]. Some traces of it, however, may have remained till they were completely destroyed in the fire of the Kaaba.

In fact the authority who is credited with having seen that picture before the fire says clearly that he saw it with traces of obliteration on it[1]. This was passed over in silence by Arnold who made use of this story[2].

2) One of the arguments given by Professor Creswell to prove that there was no hostility to painting in the Prophet's time is that "Muhammad's wives were acquainted with fabrics woven or embroidered with figures of human beings and animals, and employed them without any religious scruples[3]". His authority for that are some Traditions in Bukhari. Professor Arnold, homever, was more precise. On examining the same Traditions he comes to the conclusion that the Prophet does not appear to have objected to the figures of men or animals on the woven stuffs with which his house in Medina was decorated, *so long as they did not distract his attention while engaged in prayer*, *and so long as they were in their proper place, being either sat upon in cusions or trampled underfoot in carpets.* When he found that A'ishah had hung up a curtain with figures on it at the door of her room, he exclaimed that those who thus imitated the creative activity of God would be most severely punished on the Day of Judgment ; but he was quite satisfied when his wife cut up the offending fabric and made cushion covers out of it[4]".

We are not aware of any Traditions which show that the Prophet accepted at his house and allowed his wives unconditionally the use of woven stuffs with figures of men and animals.

3) It has been also argued that the Companion of the Prophet, Sa'd ibn Abî Waqqâs appears to have been untroubled by any iconoclastic scruples. When he entered Ctesiphon after winning the battle of Qâdisiah in 637 A.D. he held a solemn prayer of thanksgiving for the victory of the Muslim armies. The place in which this prayer was held and which he turned into a mosque was Iwan Kisra, the great palace of the Sassanian kings. Tabarî expressly states that Sa'd paid no heed to

1. See Azraqî (Mekka ed.) Vol 1 p 106.
2. *Painting in Islam* p 7.
3. A. C. Creswell : *Early Muslim Architecture* Vol 1 p 270.
4. Th. Arnold, *op. cit* p 7.

should be judged by the results and object in view. If some legal judgment or plysical treatment or discovery of scientific matters depend on pictures, there is no doubt that making them is a thing approved and wished for by the Divine law. If pictures are only for decoration or licit entertainment, they are lawful. But if they are venerated or worshipped or taken as a source of blessing, they are absolutely forbidden; both the one who makes them and the one who has them are bound to be punished[1]".

***

Let us now answer the arguments of those who hold that painting was not forbidden or disapproved of in Early Islam.

1) The retention, by the Prophet, of the paintings of Mary and Christ, when going inside the Kaaba after conquering Mekka, and his order effecting the removal and obliteration of the rest of the paintings is a matter of doubt. Some theologians believe that the Prophet did not enter the Kaaba before all paintings and statues were obliterated[2]. But Azraqî, the authority for the story of keeping those two pictures died in 244 A.H. (858)[3]. He is earlier than Bukharî in whose *Saḥiḥ* we read that the prophet had all images removed or obliterated before he went into the sanctuary. Bukhari died in 256 A.H. (870). If, however, we admit that the Prophet ordered that all the pictures should be rubbed out except that of Mary and Jesus, this could be explained by the high opinion the Prophet held of Christianity and the respect he bore for Christ. Furthermore, Muhammad, may have esteemed that it was no source of danger and that none of his followers, all pagans before Islam, would deify that Christian image.

We doubt, however, the veracity of what the same Azraqî adds about that picture having remained in the Kaaba until years later, in 683, when 'Abd allah ibn al-Zubayr was being beseiged in the Holy City by the Umayyad troops. According to Azraqî, it was not until then that the

---

1. *ibidem*, See also the similar view of Shaikh Muhammed 'Abdu, the most authoritative of Muslem modern theologians, in *Târikh al-Ustaz al-Imam al-shaykh Muhammed 'Abdu* ed. by Mnhammad Râshîd Rida Vol 2 pp 499—501

(تاريخ الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده لجامعه السيد محمد رشيد رضا)

See also our article in the *Ihaqâfa* no 90 about *'Pictures, Paintings and Statues in mausoleums and Mosques.*

2. See their arguments in Azraqî (Mekka ed.) Vol 1 pp 104—105.

3. Dr. H. Haikal pasha adopts that view in his biography of the Prophet "*Hayât Mohammad*" 2d. ed p 409, where he writes that the Prophet ordered *all* the pictures in the Kaaba to be obliterated.

images goes back to the time of Muhammad and that it emanated from a horor of paganism and idolatry and from fear that the Arabs might return to the cult which was prevailing among them before Islam. There was, furthermore, the aversion of luxury during that early period of Islam, when the 'Faithful' led a simple life of devotion and fought for the Faith of God.

Shaikh Abd al-Aziz Shâwîsh, one of the modern leading authorities on Moslem theology, wrote the following :

"If the Prophet disallowed having any images whether detached or engraved or painted, it is only because his followers were fresh in leaving indolatry and it was feared for them that they should be attracted by what was worshipped by their ancestors and was familiar to them for a long time."[1]

We believe, too, that the unlawfulness of painting and sculpture depended on whether or not the object was in a place of honour. The theologian who registered the Traditions about the prohibition of images did not ascribe to the Prophet something which was altogether of their own creation. All that could be held against them is that they made the prohibition in these Traditions absolute and all-sided. Shaikh 'Abd al-'Aziz Shâwish develops this view in the following passage :

"The theological objection to pictorial art was not intended to be general for all times and all nations. In fact such an interdiction would have no *raison d'être* if it is sure that the worship and veneration due to God remain for Him only. How could picture-making be completely prohibited when it could be a means of safeguarding legal rights as is the case with pictures of unknown drowned and dead, pictures which the government exhibits to the public so that these people may be identified by their relatives. Thus can judgment be passed about inheritance, matrimonial matters, liabilities etc . . . Pictures may be a means of warning the public against stealthy thieves and impostors who cover up their tracks and conceal themselves from the government. When their pictures are published, the public can trace them and direct the authorities to their hiding places. Other pictures illustrate the mysteries of the Almighty's power and wisdom in his creations, as is the case in pictures of animals and their different parts, given in books on natural history and anatomy. Some other kinds of pictures, like X-ray photographs, help to cure patients suffering from internal diseases or bullet wounds. One of the principles of religious law is that means

1. See 'Abd al-'Aziz Shâwish, *On the attitude of Islam towards images* (in *Al-Hidâya*, Vol 3, pp 487—491)

a dress or any other design, whether the picture hangs on a wall or is on a robe or a carpet, whether in an object of inferior status in commen domestic use or not, as is the clear meaning of the Traditions, especially the one, called the Numruqah, which was related by Muslim[1]. This is a sound view.

Others admit pictures on textiles whether on objects of inferior status or not; they dislike pictures casting a shadow or painted on walls and similar objects, whether a design or not. They state that the Prophet said in some of the Traditions of this Chapter : "except what is in the form of a design on a dress." This is the view of al-Qasim ibn Muhammad.

All authorities agree in forbidding pictures which cast a shadow and to destroying or mutilating them. Al-Qâdî takes exception to dolls for little girls to play with; but Mâlik does not like a man buying such dolls for his daughters. Some authorities hold that the lawfulness of dolls for girls is made nul by the Traditions which are the object of this commentary"[2]

That is the orthodox view on the subject summed up by Nawawi, the Shafeite legist of the thirteenth century.

***

But some orientalists and historians of art hold that the Prophet did not dislike or forbid painting, and that hostility against it started among Muslim theologians in the second half of the second century A.H (VIII A.D.). They argue that Traditions attributed to the Prophet on this subject are apocryphal and represent only the view of the theologians living in the time when the Hadîth was collected and written (ca. III century A.H, IX century A.D). One of the pioneers of those orientalists and art historians was the R.P. Lammens, who wrote an article in the *Journal asiatique* (September — October 1915 pp 239 — 279) entitled "L'Attitude de l'Islam primitif en face des arts figurés" His thesis in that article was to prove that the Prophet was not hostile to painting or sculpture and that no such hostility existed in the first century A.H.

One of the most fervent advocates of this theory in our days is Professor K.A.C, Creswell, head of the Institute of Moslem Archaeology in the Fuad I University of Cairo, He adopts it in his monumental work "Early Muslim Architecture" (Vol 1, pp 269 — 271).

But we disagree with that point of view. We believe that hostility to

1. *Sâhih* (Cairo 1334 A.H) Vol 6 p 166

2. Yahya ibn Sharaf al-Nawawî : *Al-Minhaj fi Sharh Muslim ibn al-Hajjâj* (Bulaq, 1304—1306 Vol·8 p 398. See also Muslim's *Sahih* Vol 6 pp155 sqq.

Nawawi, the Shafeite legist of the 13th century, in his *Commentary on Muslim's book of Traditions* summed up the orthodox view on the subject in the following passage[1] :-

"The learned authorities of our school[2] and others hold that the painting of a picture of any living thing is strictly forbidden and is one of the great sins, because it is threatened with the above grievous punishment as mentioned in the Traditions, whether or not it is intended for things to sit on or trample underfoot. So the making of it is forbidden under every circumstance, because it implies a likeness to the creative activity of God ; whether it is on a robe, or a carpet or a coin, gold, silver or copper, or a vessel or on a wall etc. On the other hand, the painting of trees and mountains and other things that have no life is not forbidden. Such is the decision as to the actual making of a picture.

As to using things with pictures of living beings the decision is the following : It is forbidden to make use of any object on which a living thing is pictured, whether it be hung on a wall or worn as a dress or a turban or is on any other object which is not in an inferior status by being sat upon or trampled underfoot. But if it is on a carpet trampled underfoot, or on a pillow or cushion or any similar object of inferior status, then it is not forbidden. In all this there is no difference between what casts a shadow and what does not cast a shadow. This is a short report of the decision of our school on the question.

The majority of the Companions of the Prophet and their immediate followers and the learned of succeeding generations were of an opinion confirming ours; it is also the view of Thawrî, Mâlik, Abu Hanîfah and others.

Some authorities in the past believed that the prohibition referred only to objects that cast a shadow, and saw no harm in objects that had no shadow. But this view is quite wrong, for the curtain with the picture to which the Prophet objected was certainly condemned, as everybody admits, yet the picture on it cast no shadow; and the other Traditions make no difference between one picture and another.

Az-Zuhrî holds that the prohibition refers to pictures in general, and similarly to the use of objects containing them and to entrance into a house in which they are found, whether it is a case of a design on

1. We give here Sir Th. Arnoid's translation of the part which he translated of this passage in his "*Painting in Islam*" pp 9—10, except for some changes which were necessary. The rest of the passage is our own translation.

2. i.e. the Shâfe'î school.

# The Attitude of Islam Towards Painting

by

ZAKY M. HASSAN

Azraqî ( — c. 850 A. D.) wrote that when the Prophet entered the Kaaba after he had conquered Mekka, he said to Shaybah ibn 'Othmân : "O Shaybah ! Destory every picture in the place except what is underneath my hands". Azraqî continued that, when the Prophet removed his hands, there were underneath the pictures of Jesus, son of Mary and his mother[1].

Some orientalists have taken the above passage as a proof that painting was not forbidden or disapproved at the time of Muhammad.

It is admitted that the Koran does not forbid painting or sculpture. The condemnation of pictorial and plastic art is based on the Traditions (hadîth) ascribed to the Prophet. He is reported to have said:

1) "Those who will be most severely punished by God on the Day of Judgement are the painters."

2) "The Angels will not enter a house in which there is a picture or a dog."

3) "Those who make images will suffer on the Day of Judgment; they will be called upon to breathe life into the forms that they have fashioned."

4) 'Those who will be most severely punished on the Day of Judgment are the murderer of a Prophet, one who has been put to death by a Prophet, one who leads men astray without knowledge, and a maker of images or pictures.' 'A head will thrust itself out of the fire and will ask: Where are those who invented lies against God, or have been the enemies of God, or have made light of God ? Then men will ask: Who are these three classes of persons ? It will answer: The sorcerer is he who has invented lies against God; the maker of images or pictures is the enemy of God; and he who acts in order to be seen of men, is he that has made light of God[2]."

1. Azraqî : *Akhbâr Makka*, Mekka 1352 A. H., Vol 1 pp 106—107.

2. Sir Th. Arnold : *Painting in Islam*, p 6, See also 'Alî al-Muttaqî, *Kanz al-'Ummal*, Vol 2, p 200.

# FOUAD I UNIVERISTY

## Bulletin of the Faculty of Arts

Vol. VII. July, 1944

## Contents of the European Section.



## Contents of the Arabic Section.

# FOUAD I UNIVERSITY

## BULLETIN

## OF THE FACULTY OF ARTS



Vol. VII—July, 1944

This Bulletin is published annually, at the end of every University Session. All requests for copies should be made to the Fouad I University Librarian, Giza. Communications for the editors and manuscripts should be addressed to Dr. **Zaky M. Hassan**, Editor of the Bulletin, Faculty of Arts, Giza, Egypt.

AL-ETTEMAD PRINTING PRESS. CAIRO


Bibliotheca Alexandrina
05442802